

أدب ما بعد الحرب

دائمًا ما يُرمز لأدب "ما بعد الحرب" بـ "أدب الأطلال" و"أدب الدمار". ولا تعني كلمة "الأطلال" فقط تلك المدن الرمادية المحترقة، لكنها تعبر أيضًا عن القيم والمثاليات المنهارة، وحقيقة الحرب والتجربة بين الموت والبقاء داخل تلك الأطلال.

ومن بين الدول التي عاشت ويلات الحروب خرج علينا كتاب ومبدعون يكتبون وجهة نظرهم، ينتصرون للإنسانية، وليس للحدود الإقليمية الفاصلة بين الدول، ولكن الملاحظة الغريبة في الأمر أن كل هؤلاء الكتاب ينتمون إلى دول عاشت الحروب، سواء كانت منتصرة أو مهزومة، تملكهم الإحباط واليأس بين سطور كتاباتهم، رافضين الحياة وسط هذا الدمار.

ويتداول أدب ما بعد الحرب تجارب الأمة تحت الحكم النازي وفي الحرب. فقد ركز كارل تسوكماير في مسرحيته جنرال الشيطان على الماضي النازي عندما حلل الصراع بين الضمير والطاعة لدولة فاسدة أخلاقيًا.

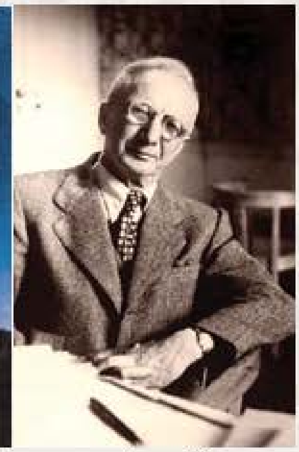
ويُعد كل من فريدريتش دورينمات وماكس فرتش السويسريين من أبرز المسرحيين الذين كتبوا بالألمانية. وبالإضافة إلى هذين، هناك رودولف هوخهوت وبيتر فايس في مجال المسرحية.

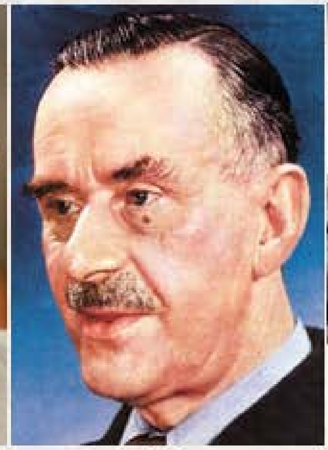
أما في الرواية الألمانية الغربية بعد الحرب فإن أبرز الأسماء هي هاينرش بول، وغونتر غراس، وزيجفريد لينتس، ومارتن فالسر. ويتناول الفن القصصي في مجمله الدمار الروحي والدّمار المادي الذين تسببت النازية فيهما. وتُعدُّ رواية (طبلة الصفيح) التي كتبها جونتر جراس أقوى مثال لهذا الموضوع. وقد أسهم العديد من كتاب ما بعد الحرب مثل بول وغراس في قيادة الأدب الألماني اليوم. وتغطي حقبة حياة بطلة رواية بول صورة جماعية مع السيدة حقبة ما قبل الحرب. وقد أبدى كتاب ألمانيا الشرقية في العصر الحديث وقبل اتحاد الألمانيتين، اهتمامًا متزايدًا بعلاقة الفرد بالدولة. وألمع كُتّاب ألمانيا الشرقية سابقًا هو أولريش بلندسدورف. في عام 1990، اتحدت الألمانيتان الشرقية والغربية. وبدأ أدباء ألمانيا الشرقية السابقة في التعبير عن التجربة التي مارسوها عندما كانت الشيوعية تسيطر على المجتمع والحكومة معًا. فقد حاول ولفتجانج هيبيجواريخ لويست ومونيكا مارون وكريستا ولف مصالحة الماضي في رواياتهم ومقالاتهم وسيرهم الذاتية. أما أدباء ألمانيا الغربية ومنهم غنتر غراس ومارتن ولسر فقد أسهموا بفاعلية في الكتابة عن المشكلات التي صاحبت تقسيم ألمانيا ثم اتحادها والحقبة التي تلت الاتحاد.

وبعد الحرب العالمية الثانية كانت ألمانيا خاوية من أي إنتاج أدبي يستوقف القارئ الجاد. لذا كان لا مفر من إعادة الروابط مع العالم خارج ألمانية النازية التي انتهت عام 1945 . وقد برزت أسماء أدباء لم يكونوا مشهورين في حياتهم مثل روبرت موزيل (1880 - 1942) وهرمان بروخ (1886 - 1951). تقوم شهرة موزيل على رواية لم تتمه مع أنها بلغت صفحة بعنوان (الرجل الذي لا خصال له) Der Mann ohne Eigenschaften واستغرقت كتابتها ثلاث عشرة سنة. وهي تصف الحياة في فيينا إبان الحرب العالمية الأولى. وربما كان أهم الأدباء الألمان الذين اشتهروا بعد انهيار ألمانية النازية غونتر غراس المولود عام 1927، والذي نشر عام 1963 رواية (سنوات البؤس) Hundejaher التي تصوّر فظائع ألمانية النازية.

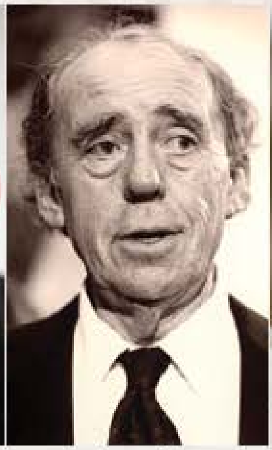
في عام 1947 تألفت فيما كان يُسمى ألمانية الغربية «جماعة 47» ضمت مشاهير الأدباء الألمان. منهم من عاد من المنافي الاختيارية. ومنهم من ترك ألمانية الشرقية مثل غونترغراس. يسيطر عليهم جميعًا رعب الحرب العالمية الثانية والشعور بثقل الخطيئة، التي جرّتها على البشرية ألمانية النازية. وقد كان التعبير عن ذلك يتخذ مسارب شديدة الخصوصية والعرقية أحيانًا لكنه يتخذ توجّهات تتشوّف إلى عوالم أرحب في أحوال غيرها.

وكان من الظواهر الملموسة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية إقبال القراء الشديد على استيعاب التيارات الأدبية التي شاعت في العالم الخارجي. ولم تصل إلى الألمان إبّان الحكم النازي، مثل الواقعية الجديدة في روايات الأمريكي إرنست همنغواي ووجودية الفرنسي سارتر. كما اشتد الإقبال على مؤلفات الألمان الذين اختاروا حياة


الفريد دوبلين


توماس مان


غونتر غراس


هاينرش بول


زيجفريد لينتس

المنافي، أو أرغموا عليها منذ عام 1933، مثل هاينريش وتوماس مان والفريد دوبلين وبرتولد بريخت وآنّا زيغرز. وقد شاع بين الكتّاب الشبان رغبة شديدة لـ «البداية من الصفر»، وإجراء «تنظيف شامل» في الساحة الأدبية. وظهرت عنوانات تعبّر عن أيام الرعب، مثل «وراء الباب» Draussen vor der Tur و«تقرير ناج من الموت» Bericht eines Uberlebenden وتشير إلى ميل الأدباء في هذه الحقبة إلى تسخير الأدب لخدمة قضايا المجتمع. لكن ذلك الميل ما لبث أن تضاءل في عقد الستينيات، ربما بسبب خيبة الأمل بمجتمع «البحبوحة» Affluent Society الذي أقامته مشاريع الدعم الاقتصادي. كما يلمس في روايات فولفغانغ كوبن وهاينريش بُل ومارتن فالزر مما جعل كثيرًا من الأدباء يشككون في قدرة الأدب على تغيير المجتمع. فظهرت نبرة تصف الأدب بأنه مسألة خاصة. لكن هذا الاتجاه انقلب في آخر عقد الستينيات فغدا الأدب معنيًا بالسياسة بالدرجة الأولى، وخاصة بعد حركات الطلبة عام التي عمّت فرنسا وعددًا من الأقطار الأوروبية. وبعد أن كان الكثير من الأدباء يعلن نفوره من السياسة راحوا ينغمسون فيها إلى حد المشاركة في الحملات الانتخابية، ويسخّرون أدبهم في هذا السبيل. وهنا اتخذت الرواية طابعًا تسجيليًا يذكّر المرء بروايات ظهرت بعد الحرب مباشرة تؤرخ لسنوات الرعب النازي، وتستخدم سجلات السجون والمحاكم أساسًا تقيم عليه الأدب الروائي في تلك الحقبة.

الرواية العربية بعد الحرب العالمية الثانية:

الرواية والحرب، علاقة وثيقة برغم أنها غامضة، فمنذ أن وقعت الحروب كان هناك الرواة والمؤرخون والقاصون، لكن مع ذلك قليلة هي الدراسات النقدية التي حاولت أن تؤرخ وتحلل تأثيرات الحروب على الرواية العربية المعاصرة، وفي الحديث عن هذا التأثير يمكن التطرق إلى بعدين مهمين هما:

الأول: الرواية التي يكتبها عسكريون محترفون سواء بصفتها نوعًا من المذكرات أو قصة فيها الخيال الممتزج مع الوقائع، وربما هناك أدباء مروا على المجال العسكري لمدة من حياتهم فتركت تأثيرها على أعمالهم، ونذكر هنا جمال الغيطاني الذي كان محررًا عسكريًا لصحيفة أخبار اليوم القاهرية في أثناء حرب الاستنزاف (1967 – 1973) ويوسف القعيد من مصر، بينما كان هناك الأدباء الفلسطينيون الذين عايشوا المعارك ومنهم رشاد أبو شاور في قصته المعروفة (بيروت – بيروت) وعاصر وقائع الغزو الإسرائيلي للبنان، كما غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا وآخرون.

الثاني: الرواية التي يكتبها أدباء عاديون لكنها تناولت مناخ الحرب وتأثيراته على أوضاع البلاد العربية، ولا يكاد يكون كاتب عربي من المحيط إلى الخليج إلا وتأثر بالحروب التي عانت منها الأمة بدءًا من الاحتلال الأوروبي، ووصولاً إلى الحروب ضد إسرائيل، وحتى الأدباء الفرانكفونيين أمثال الطاهر بن جلون ومحمد ديب وجورج شحادة وأغلبهم من المغرب العربي، وبرغم وجودهم في أوروبا إلا أن أعمالهم الأدبية تأثرت بما جرى في المنطقة العربية باعتبار أن أبطال هذه الروايات (ثلاثية محمد ديب مثلاً) هم عرب، وهو ما نجده في (موسم الهجرة إلى الشمال) للكاتب السوداني الطيب صالح، حيث التداخل الموضوعي بين ما هو محلي وما هو أجنبي.

كانت هُناك العديد من الأعمال التي تناولت الحرب، سواء عن مُشاركة شخصية للكاتب أو عن طريق رؤيته للأحداث، مثل "في الصيف السابع والستين" للروائي إبراهيم عبدالمجيد، والتي تناولت المجتمع المصري وما أدى به إلى هزيمة يونيو 1967، وظروفها والتحولات التي طرأت على المصريين، ومجيد طوبيا الذي كتب "أبناء الصمت" عن حال الجنود المصريين على الضفة الغربية لقناة السويس، التي تحولت لفيلم تم تصنيفه من أهم مئة فيلم في التاريخ، وكذلك كتابات جمال الغيطاني عندما كان مراسلًا حربيًا، وسجّل في روايتيه القصيرتين "الغريب" و"الرفاعي" بطولات من حرب أكتوبر؛ أيضًا كتبت الروائية السورية غادة سمان مذكراتها التي وصفت فيها وقائع ومجريات الحرب الأهلية اللبنانية التي عايشتها تحت اسم "كوابيس بيروت".

الشعر:

أصبح الشعر في أدب "ما بعد الحرب" من الألوان الأدبية المهمة، وذلك لسبب التالي حيث أظهر النثر كثيرين من الكتاب من خلال اللغة الوطنية كاذبين وغير جديرين بالتصديق، لذلك رأى كثير من المؤلفين أن الشعر هو أفضل إمكانية للتعبير عن مشاعرهم وتجربتهم.

النثر:

أهم شكل نثري ظهر في "أدب ما بعد الحرب" كان "القصة القصيرة"، حيث استمرت بشكل ناجح من كثير من المؤلفين وبخاصة من بورشرت و شنورا، وكمثال يحتذى به كانت القصة الأمريكية القصيرة وأيضًا المؤلفين ويليام فولكنر، أرنست همنغواي وأدجر آلن بو. وتضم أشهر القصص القصيرة لبورشرت كل من "ساعة المطبخ"، "في ذلك الثلاثاء" و"الكرز".

الدراما (المسرح):

كان هناك صورة مختلفة على مسارح أدب ما بعد الحرب " في المناطق السوفيتية والغربية المحتلة، وبينما لقيت أعمال كتاب الدراما المهاجرين شعبية كبيرة في الشرق، أعيد في الغرب تقديم دراما ليسنج "ناثان الحكيم" ومسرحية "إيفيجيني" لجوته.

ومنذ ذلك تولّدت المسرحيات في زمن ما بعد الحرب، وكان هناك القليل منها التي اكتسبت جمهور كبير مثل "مسرحية بورشرت" خارجًا أمام الباب ومسرحية "جنرال الشيطان"، أما بريشت الذي رفض الذهاب إلى ألمانيا الغربية، انتقل عام إلى شرق برلين حيث أسس مع هيلين فايجل "الفرقة البرلينية"، في العام نفسه تم عرض مسرحية بريشت "شجاعة أم".



تأثير الحروب على الرواية العالمية

تأثر الأدب بشكل عام بالحروب، ومنها الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية التي غيرت مجرى الرواية سواء على المستوى العربي أو العالمي لما عايشوه الأدباء بأجواء الحرب، فخرجت لنا ألوان من الرواية، كلها تتحدث عن أجواء الحرب كل يراه من زاويته.

روايات الحرب العالمية الأولى:

رواية الجندي الصالح زفاك

عنوان مختصر لرواية كوميديا سوداء ساخرة غير منتهية للكاتب جاروسلاف هاسيك، "مغامرات مميتة للجندي الصالح زفاك في أثناء الحرب العالمية"، وهي أكثر رواية مترجمة من الأدب التشيكي.

رواية التوامتان Mirror Image

هي إحدى روايات الروائية الأمريكية دانيال ستيل، وهي من الروايات الرومانسية.

تدور أحداث الرواية في حقبة الحرب العالمية الأولى عن توامتين تعيشان مع أبيهما الذي لم يتعاف مطلقًا من وفاة أمهما بعد ولادتهما، وتختلف شخصياتهما وتصرفاتهما تتواجد إحداهما في فرنسا أثناء اشتعال الحرب، وتتورط الأخرى في زيجة لم تكن في حسبانها.

رواية الرداء الأخضر Greenmantle

هي ثانية روايات شخصية ريتشارد هاناي الخمس بقلم جون بوكان، نشرت لأول مرة في عام 1916 عن طريق دار هودر وستوكتون في لندن، وهي إحدى روايتين من روايات هاناي تدور أحداثها خلال الحرب العالمية الأولى، والأخرى هي السيد ستاندفاست (1919)؛ حيث إن رواية هاناي الأولى والأشهر، الدرجات التسع والثلاثون (1915)، تقع أحداثها في الحقبة التي سبقت الحرب.

رواية النهر الكبير ذو القلبين- Big Two-Hearted River

هي قصة قصيرة من جزأين للكاتب الأمريكي إرنست همنغواي نشرت عام 1925 ضمن طبعة بوني وليفرايت لقصة "في وقتنا"، وهي أول مجلد أمريكي لروايات همنغواي، وتتميز القصة ببطل واحد هو "نيك آدامز" والذي يعكس السيرة الذاتية لهمنغواي في تلك الحقبة، ويسمع صوته مرتين فقط في القصة.

وتكشف القصة عن الطابع المدمر للحرب وكيف تقاومه طاقات الطبيعة الشافية والمُصلحة، ولقد أشاد النقاد بالقصة عندما نشرت بأسلوب همنغواي، وأصبحت عملاً مهمًا في شريعته الكنسية، وتعد هذه القصة واحدة من باكورة أعمال همنغواي التي وظف فيها نظرية "الجبل الجليدي" الخاصة به في الكتابة، وهي منهج معاصر للكتابة النثرية يعتمد على التلميح لا التصريح للمغزى الأساسي، كما تقتصر القصة على الوصف وتخلو عمدًا من الحبكة.

امرأة صالحة A Good Woman

هي إحدى روايات الروائية الأمريكية دانيال ستيل A Good Woman ، وهي من الروايات الرومانسية.

تدور أحداث الرواية عن قصة حياة امرأة منذ ان كانت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها نشأت في أسرة غنية في نيويورك وفقدت أسرتها في غرق التيتانك، وتطوعت بعدها لتمريض الفقراء، مرت في حياتها بزيجة فاشلة انتهت بفضيحة لم تستحقها وسافرت الى فرنسا وعملت كممرضة لضحايا الحرب العالمية الأولى، وفي باريس أنشأت لنفسها حياة جديدة ودرست الطب وعملت كطبيبة لكن القدر أتاح لها الفرصة للعودة إلى نيويورك مرة أخرى بصورة غير متوقعة .

جوني حمل سلاحه Johnny Got His Gun

هي رواية للكاتب والسيناريست الأمريكي دالتون ترومبو، وكتبها عام 1938 ونشرها في سبتمبر من العام اللاحق، وربحت جائزة الكتب الوطنية، وكانت من أفضل

المبيعات برغم أنها أتت في وقت حرج زمن الحرب العالمية الثانية.

تدور الرواية حول جو بونهام، وهو جندي في الحرب العالمية الأولى، حيث يتعرض جو لقذيفة مدفعية أفقدته وعيه، يستيقظ جو في المستشفى ليكتشف أنه فقد أطرافه ووجهه (بما فيها عيناه وأذناه وفمه). لكن دماغه ما زال يعمل، ما جعله سجينا داخل جسده.

رواية سفر إلى آخر الليل Journey to the End of the Night

هي الرواية الأولى للويس فرديناند سيلين. هذا العمل شبه سيرة ذاتية يصف الشخصية الرئيسية فرديناند باردامو.

ورواية سفر إلى آخر الليل، كانت أول رواية طويلة نشرها سيلين خلال مساره المهني، وكان ذلك في العام 1932 حيث نالت على الفور جائزة «رينودو». وهو استوحاها، على رغم طابعها الروائي الخالص، من ذكريات حياته وبعض مغامراته، خلال الحرب العالمية الأولى.

رواية كل شيء هادئ على الجبهة الغربية Im Westen nichts Neues

هي رواية كتبها إريك ماريا ريمارك، الذي قاتل في الحرب العالمية الأولى، وتصف الرواية الضغوط الجسمانية والعقلية الفادحة، التي تعرض لها الجنود الألمان في أثناء الحرب، والانفصال عن الحياة المدنية كما يشعر به العديد من أولئك الجنود لدى عودتهم من الجبهة.

الرواية حققت نجاح مذهل 50 مليون نسخة تم بيعها حتى الآن، وتُرجمت إلى 20 لغة، وعند وصول هتلر للسلطة أمر بحرق جميع نسخ الرواية، وسحب الجنسية من ريماركه الذي اضطر للعيش في سويسرا.

تحولت الرواية إلى أفلام سينمائية أمريكية، أحدهما عام 1930 والآخر عام 1979.

وداعاً للسلاح A Farewell to Arms

هي رواية كتبها إرنست همنغواي خلال الحملة الإيطالية في الحرب العالمية الأولى، ونشرت عام 1929، وعنوانها مأخوذ من قصيدة للكاتب المسرحي الإنجليزي "جورج بيليه" الذي عاش في القرن السادس عشر.

تروى الرواية على لسان الأمريكي فريدريك هنري، الذي يحمل رتبة "ملازم" في المستشفى الميداني للجيش الإيطالي. وتدور أحداثها حول علاقة حب تنشأ بين المغترب الأمريكي هنري وكاثرين باركلي على خلفية الحرب العالمية الأولى، من هزل الجنود والقتال ونزوح السكان.

ثم يُسمح بنشر الرواية في إيطاليا بسبب النظام الفاشي



الذي كان يرى أنها تمس شرف القوات المسلحة من حيث تصويرها لمعركة كابوريتو، ولتضمنها نزعة معينة مضادة للعسكرية، وإنما كُتبت الترجمة الإيطالية للرواية بشكل غير شرعي عام 1943 على يد فرناندا ابيفانو، الأمر الذي أدى إلى حبسها في تورينو.

روايات ما بعد الحرب العالمية الثانية

رواية الثلج الحار Hot Snow

رواية للكاتب الروسي يوري بونداريف صدرت هذه الرواية في سنة 1969 متناولاً أحداث معركة ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية بشكل غير مألوف عن وقائعها،

واستناداً لخبرته شخصيًا كضابط مدفعية.

تتناول الأحداث قصة الشاب كوزنيتزوف وعلاقته بالضابط العنيد درازدوفسكي والممرضة والجندي غولوفانوف والأب وآخرين، ويصور الكاتب الجنود بوصفهم بشرًا يعيشون أجواء الخوف والارتباك والترقب، بعيدًا عن مبالغات الشجاعة المفرطة وعدم خشية الموت التي تصورها الآلة الإعلامية السوفيتية.

نقل الرواية إلى اللغة العربية الكاتب العراقي غائب طعمة فرمان، وتولت نشرها دار المدى.

رواية البحر والسم

رواية للكاتب الياباني شوساكو إندو صدرت في 1958 وحصلت على جائزة أكوتاجاوا ذائعة الصيت. تدور أحداثها حول تجربة لا إنسانية تجري في كلية الطب في فوكوكا خلال الحرب العالمية الثانية.

ترجمها يوسف كامل حسين إلى العربية عن الترجمة الإنكليزية لها بواسطة مايكل جالاجر، وصدرت طبعتها الأولى في 2005 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

رواية الجندي المجهول

أولى الروايات البارزة للكاتب الفنلندي فاينو لينا، وأهم أعماله إلى جانب "تحت نجم الشمال"، نشرت في عام 1954. تتناول الرواية حرب الاستمرار بين فنلندا والاتحاد السوفييتي من وجهة نظر الجنود الفنلنديين العاديين، حازمة وواقعية، وهدفت جزئيًا لتحطيم أسطورة الجندي الفنلندي النبيل المطيع، وقد نجحت في ذلك بشكل مثير للإعجاب.

رواية الطريق الضيق لعمق الشمال

رواية للكاتب الأسترالي ريتشارد فلاناغان، تجمع بين قصة حب رائعة وبين معاناة الإنسان وحياة المحاربين.".

فازت الرواية بجائزة مان بوكر في 15 أكتوبر عام 2014، والبالغة قيمتها 50 ألف جنيه إسترليني.

رواية المريض الإنكليزي The English Patient

رواية للكاتب السيرلانكي مايكل أونداتجي صدرت في 1992 وفازت بجائزة بوكر مان لتلك السنة، وترجمت إلى أكثر من ثلاث مئة لغة منها العربية، كما أنتج فيلم عنها في 1996. تحكي الرواية عن رجل محترق بالكامل له تاريخ غامض، وممرضته الكندية، ولص كندي هو صديق والد الممرضة، ولغام سيخي برتبة ملازم، في أجواء الحرب العالمية الثانية.

تُرجمت الرواية إلى العربية في 1997، وصدرت في طبعتين عن دار المدى، ترجمها أسامة إسبر، وراجعها سعدي يوسف.

رواية سارقة الكتاب The Book Thief

هي رواية للكاتب الأسترالي ماركوس زوساك، نشرت للمرة الأولى عام 2005، حصدت الرواية عددا من الجوائز، وتم إدراجها ضمن لائحة الكتب الأكثر مبيعًا في جريدة النيويورك تايمز لأكثر من 230 أسبوعًا.

تتمحور رواية سارقة الكتاب حول حياة ليسل ميمينغر، وهي فتاة في التاسعة من العمر تعيش في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

رواية شرف صامت Silent Honor

هي إحدى روايات الروائية الأمريكية دانيال ستيل، وهي من الروايات الاجتماعية.

تدور أحداث الرواية في أثناء الحرب العالمية الثانية عن فتاة يابانية، يرسلها والدها صاحب الأفكار التقدمية إلى كاليفورنيا للدراسة برغم اعتراض أمها المتمسكة بالتقاليد اليابانية القديمة، وتحاول الفتاة أن تكون عند حسن ظن أبيها برغم رغبتها الشديدة في العودة إلى ديارها، وبعد ضرب اليابانيين لبيرل هاربر يجبر اليابانيين الأمريكيين على بيع ممتلكاتهم والإقامة الجبرية في معسكرات، ومن بينهم تلك الفتاة وأسرة عمها.

رواية في مغيب القمر او افول القمر The Moon Is Down

رواية شهيرة لجون شتاينبيك، وتتحدث عن سيطرة ألمانيا النازية على قرية نرويجية صغيرة خلال الحرب العالمية الثانية، اعتبرت القصة عند ظهورها أقوى قصة كتبت أثناء الحرب لتستحث البلدان الديمقراطية على التصدي للنازية، ترمز الرواية إلى قوة الشعب في مقاومة الاحتلال، وتؤكد حرية الفرد وكرامته في ظل الوعي الجماعي.

رواية كاتش- 22 Catch-22

هي رواية تاريخية مكتوبة بصيغة هجاء للكاتب الأمريكي جوزيف هيلر، بدأ هيلر كتابة هذه الرواية عام 1953، وقد نُشرت للمرة الأولى عام 1961، تقع أحداث الرواية في فترة الحرب العالمية الثانية من 1942 إلى 1944، وغالبًا ما يُستشهد بها على أنها واحدة من أعظم الأعمال الأدبية في القرن العشرين، تستخدم الرواية أسلوب السرد ووصف الأحداث من وجهات نظر شخصيات مختلفة، ويتطور الخط الزمني بتطور الأحداث في الحبكة.

رواية مجوهرات Jewels

هي إحدى روايات الروائية الأمريكية دانيال ستيل، وهي من الروايات.

تدور أحداث الرواية عن ذكريات عجوز في الخامسة والسبعين من عمرها، حيث تتذكر رحلتها من أمريكا الى أوربا مع والديها بعد زواج فاشل دام لمدة سنة واحدة



وتعرفها هناك على دوق بريطاني يتخلى عن حقه البعيد في التاج، ويجعلها دوقته، يقيمان في الثلاثينيات في قصر بفرنسا وبعد قيام الحرب يذهب الزوج للمشاركة، ويستولي الألمان على قصرهما، وتحاول هي النجاة بطفليها في ذلك الوقت إلى أن تلتقي بزوجها مرة أخرى بعد انتهاء الحرب و يبدآن عملاً عائليًا وهو تجارة المجوهرات.

رواية مدافع نافارون The Guns of Navarone

هي رواية من تأليف الكاتب الأسكتلندي أليستر ماك لين، تدور أحداثها في اليونان خلال الحرب العالمية الثانية، تتمحور قصة الرواية حول مجموعة من الجنود الإنكليز الذين يسعون لاختراق خطوط الدفاع الألمانية في جزيرة يونانية تسمى نافارون تقع قبالة الساحل التركي، وتتمركز عليها مدفعية ضخمة تهدد سفن الحلفاء التي تحاول الاقتراب، يشابه اسم الجزيرة اسم البلدة الإغريقية نفارون، غير أنها جزيرة خيالية ليس لها وجود في الواقع، وجميع أحداث القصة مختلقة، وعلى الرغم من ذلك فإن أحداث القصة مبنية على أحداث معركة حقيقية وقعت خلال الحرب العالمية الثانية، هي معركة ليروس، وهي جزيرة كانت تحصّنها ضد السفن البحرية بعض أكبر مدافع الحرب العالمية الثانية، نشرت دار القاموس الحديث اللبنانية ترجمة عربية للرواية باسم "مدافع نافارون" في سنة 1970.

ن او م او الطابور الخامس N or M

وهي رواية لأغاثا كريستي، طُبعت للمرة الأولى بالإنجليزية سنة 1941 في أثناء الحرب العالمية الثانية، وبينما القوات الجوية الملكية تُكافح من أجل تفادي هجمات السلاح الجوي الألماني، واجهت بريطانيا تهديدًا أكثر خطورةً بسبب العدو الداخلي (الطابور الخامس) "النازيين الذين يلعبون دور المواطنين العاديين"، ومع تزايد وطأة الضغوط تقوم المخابرات بتعيين جاسوسين غير محتملين تومي وتوبنس بيرسفورد، مهمتهما تتمثل في البحث عن رجل وسيدة من بين نزلاء فندق سان سوسي، الذي يقع على الشاطئ، لكن هذه المهمة لم تكن سهلةً على الإطلاق لأن ن أو م قاما للتو بقتل أحد أهم العملاء البريطانيين، وما من أحد يُعدُّ محل ثقة أبدًا.

الدون الهادئ And Quiet Flows the Don

رواية للكاتب الروسي ميخائيل شولوخوف، حصل على جائزة نوبل عام 1965 عن روايته "الدون الهادئ" ذات الأربعة أجزاء التي استغرق في كتابتها حوالي 12عامًا، عايش شولوخوف الأحداث المأساوية التي عاشتها روسيا وهو في بداية طور الشباب، في روايته الدون الهادئ استطاع أن يرصد التطورات المأساوية لروسيا إبان الحرب العالمية الأولى وما تلاها من سقوط القيصرية

والحرب الأهلية.

لم يكن هذا هو التأثر الوحيد لشولوخوف بالحرب، فقد عايش الحرب العالمية الثانية بوصفه مراسلاً حربياً. أثرت الحرب العالمية الثانية في شولوخوف، فكتب روايته "مقاتلون في سبيل الوطن" التي لم يستطع أن يكملها، يُعدُّ أدب شولوخوف "حلمًا إنسانيًا" لم يتحقق بإنهاء الحروب عبر رصد المآسي التي تسبب فيها. انتهت حياة شولوخوف عام 1984 بعدما هجر الكتابة في آخر ستين عمره.

روايات عن الحرب الأفغانية السوفيتية:

رواية عداء الطائرة الورقية The Kite Runner

رواية عداء الطائرة الورقية وعنوانها الأصلي (The Kite Runner) للكاتب الأديب الأمريكي من أصل أفغاني خالد حسيني، ونشرت سنة 2003، وهي من أكثر الروايات مبيعًا بعد تصدرها لقائمة "نيويورك تايمز" لأكثر من عامين، بيع منها 7 ملايين نسخة في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها.

تحكي الرواية قصة أمير، الفتى الأفغاني في العاصمة كابل وصديقه المقرب حسن، خادم والده الهزاري مع خلفية الأحداث المتلاحقة والمضطربة، التي شهدتها أفغانستان، بدايةً بسقوط النظام الملكي في أفغانستان، مروراً بالتدخل العسكري السوفيتي، فنزوح اللاجئين إلى باكستان والولايات المتحدة، ومن ثم صعود نظام طالبان وتوليه حكم البلاد.

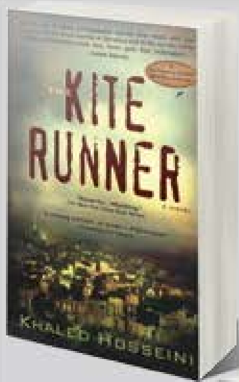
برغم الانتقادات والجدل الذي أثارته بعض فصول الرواية، إلا أنها رواية حرب وصداقة وخيانة ووفاء، تحولت إلى فيلم سينمائي عرض 2007، وصدرت ترجمتها العربية سنة 2012 عن دار بلومزبري القطرية.

في حربها غير المعلنة على أفغانستان من عام 1979 إلى عام 1989، قدرت القوات السوفيتية بنحو مليون جندي خلفوا 50 ألف قتيل وعبثوا بمستقبل الآلاف وإنسانيتهم، وهنا نطقت سفيتلانا بصوت التاريخ المخفي عن الحرب الأفغانية، فوقفت لقصة أكثر ما يثير فيها وحشيتها، وكشفت التشابه بينها وبين حرب فيتنام الأمريكية في بحث استمر أربعة أعوام عن تلك النظرات المروعة.

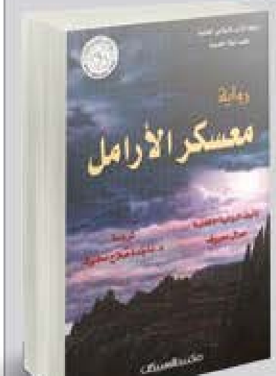
رواية أبناء الزنك Zinky Boys

رواية أبناء الزنك للكاتبة الروسية الفائزة بجائزة نوبل لعام 2015 سفيتلانا أليكسفيتش صدرت الرواية في عام 1989، جعلت سفيتلانا في الرواية كل قارئ على صلة حميمية بحرب بعيدة جداً عنه، وكأنها أعادت شحن القتلى من توابيت الزنك المختومة أمام دولة نفت مراراً وقوع الحرب ومجتمع سوفيتي ما زال يرفض ذكر "فيتنام السوفيتية".

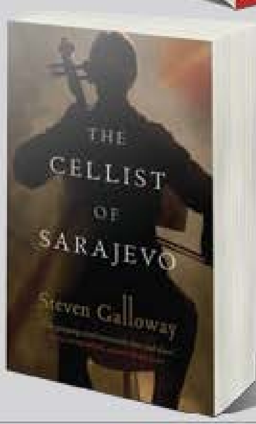
أضرت "أبناء الزنك" بالكاتبة، وأثارت الجدل والغضب حولها عندما نشرت لأول مرة في الاتحاد السوفيتي، حتى











وصفوا روايتها "بنص افتراء صنعة الخيال وأصوات هستيرية لهجمة خبيثة في صورة كتاب"، فقد حوى الكتاب شهادة صريحة للجنود والممرضات والأمهات وأبناء الضحايا وبناتهم، كل من لا ينسى أثرًا للحرب حتى ملأت سفيتلانا ثقبًا في الذاكرة اسمه حرب أفغانستان، وهي تحكي عن جمال الطبيعة بها، ووحشية القوات العسكرية، وتعمد القتل والتشويه، واضطراب الحياة اليومية.

رواية معسكر الأرامل

رواية معسكر الأرامل للأديبة الأفغانية مرال معروف، تدور أحداثها حول زوجات المجاهدين ممن ترملن أو ابتعدن عن أزواجهن واستقر بهن المقام في مخيمات اللاجئين الخاصة بالنساء على الحدود الباكستانية، وسردت الكاتبة الصعوبات التي واجهتها في دخول المخيم المخصص للنساء، وروت ما سمعته وما شاهدته من قصص الجهاد على ألسنة النساء في المعسكر. صدرت رواية معسكر الأرامل عن مكتب البلاد العربية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، ونشر مكتبة العبيكان بالرياض، وترجمة: د. ماجدة صلاح مخلوف.

روايات عن حرب البوسنة

رواية مخاوفي السبعة

رواية مخاوفي السبعة للكاتب البوسني سلافيدين أفيدتش تتحدث عن الحرب البوسنية المرعبة التي جرت أطوارها بين سنتي 1992 و1995، في هذه الرواية المحترفة التي عرضت الواقع الدموي للحرب بعيدًا عن أي تصوير ممل ورتيب للأحداث.

راوي الحكاية يخرج إلى الحياة بعد عزلته التي دامت 9 شهور متتالية، ليقرر مواجهة العالم ومساعدة ميرنا ابنة صديقه الصحفي أليكسا رانكوفيتش، الذي اختفى في الحرب، وسط أجواء تعبق بالأساطير البلقانية المرتبطة بالجن والأشباح، واستعادة لأجواء وسلوكيات الحرب.

صدرت الرواية سنة 2009، ولاقت رواجًا ونجاحًا كبيرًا في البوسنة، قبل أن ينتقل نجاحها بعد ذلك إلى الأوساط الأوروبية التي استقبلتها بإيجابية كبيرة دفعت صحيفة "غارديان" البريطانية إلى إدراجها ضمن قائمة أفضل كتب 2014.

ترجمها إلى العربية الكاتب محمد أسامة، ونشرتها دار العربي للنشر والتوزيع.

رواية عازف التشيلو The Cellist of Sarajevo

رواية عازف الكمان للكاتب الكندي ستيفن غالاوي، صدرت الرواية في عام 2008، وتتناول الرواية الحرب في البوسنة خلال حصار سراييفو في أعوام التسعينيات من القرن الماضي، والكاتب يتناول عددًا من الشخصيات ومنها عازف الكمان، الذي يحتفل بالحياة والجمال وسط بشاعة الحرب.

قصة سربرنيتسا

قصة سربرنيتسا رواية عن الحرب على البوسنة للكاتب إسنام تاليتش. استطاع الكاتب أن يصور كل ما حدث دون أن يسمح لمشاهدة الرعب والذعر التي تضمنتها القصة بأن تزعج القارئ أو أن تنفره، وهو مع ذلك نجح في نقل رسالة المعاناة إلى القراء". إن القصة الرئيسية المتعلقة بمقاومة سربرنيتسا وسقوطها، يرويها بطل الرواية (مرجان جوزو)، بالإضافة إلى قصة أخرى من دفتر يوميات الحرب الخاص بجده (رحمن بيك جوزو)، الجندي الأسير الذي وقع في الأسر الروسي في أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي رواية "قصة سربرنيتسا" تتداخل القصتان وتتشابكان معًا، ترجمت الرواية إلى الإنجليزية ونقلتها إلى العربية صهباء محمد بندق.

روايات الثورات والحروب الأهلية

رواية الدكتور جيفاغو Doctor Zhivago

رواية كتبها الروائي الروسي بوريس باسترناك هذه الرواية سيرة ذاتية في جزء منها، ورواية ملحمية في جزئها الآخر. إنها قصة متعددة الطبقات بدءًا بالعام 1903، وإثر موت والده، أما والده، وهو صناعي غني، فقد انتحر جراء التأثير المحبط الذي مارسه محاميه كوماروفسكي. والرواية تجمع فن الطب والعلاقات العائلية والحب والسرد في مقابل الخبرة والثورة والمجتمع والحرب.

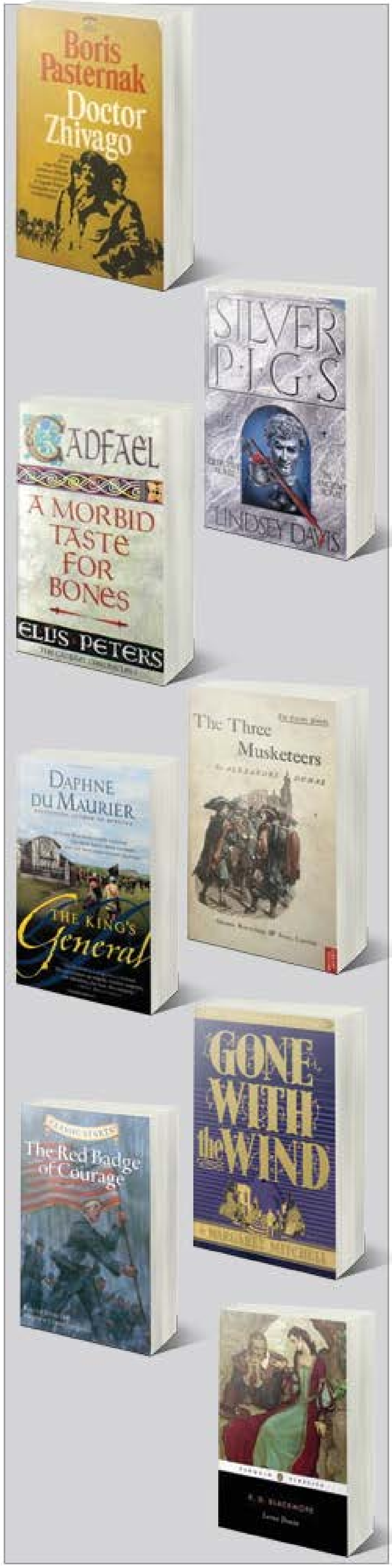
هُربت الرواية خارج الاتحاد السوفيتي، وكانت الرواية سياسية، لا تتلاءم مع الأفكار السائدة في الاتحاد السوفيتي، مما يؤدي إلى مصادرتها ومنع نشرها في البلاد. وقد طبعت رواية (د. جيفاغو) باللغة الإيطالية أولاً ثم في انكلترا بالإنكليزية ثم بالفرنسية قبل أن تظهر الطبعة الروسية منها، وقد منح باسترناك جائزة نوبل عن الرواية عام 1958، وكانت الرواية تتناول الحرب الأهلية الروسية التي بدأت عام 1917 مع أن المغزى كان يهدف إلى أعوام الخمسينيات.

رواية الخنازير الفضية The Silver Pigs

رواية الخنازير الفضية للكاتب ليندسي ديفيز، تدور أحداث هذه الرواية في روما: القتال من أجل السلطة، ودور الفيالق العسكرية كبير، وللسيف فيها دور كبير.، وهي تبدأ من مرحلة محاولة روما استعادة موقعها بعد إنهاء حكم الأباطرة الأربعة.

رواية ميل غريب (للعظام) amorbid taste for bons

هذا العمل الروائي للكاتبة اليزبيترس يتناول الحرب حول عرش إنكلترا، العرش البريطاني ما بين ماتيلدا وابن عمها ستيفن، في 1135، وأدركت الكاتبة أن عدم الثقة والتوتر كانتا أرضًا خصبة للروايات الغامضة، وقد



اشترك الراهب في الحرب الصليبية قبل أن يتحول إلى ناسك، وتجربته في الحياة ومعلوماته عن الأعشاب، والتي تعلمها من المسلمين في الأرض المقدسة تدفعه للتفاعل مع الناس، وتجعله صوتًا عمليًا في خضم الآراء الخرافية، قادرًا على الرؤية بوضوح عبر الجرائم والمؤامرات التي تجلبها الحروب الأهلية.

رواية الفرسان الثلاثة The Three Musketeers

رواية الفرسان الثلاثة للكاتب اليكسندر دوماس، في عام 1948، تحولت رواية الفرسان الثلاثة إلى فيلم سينمائي، وهذه الرواية تناولت القتال بين الكاثوليك والبروتستانت، والمؤامرات التي تدور حول العرش الفرنسي في أوائل القرن السادس عشر، وهذه الرواية تعد من أشهر الروايات الحربية، وهي تجذب الاهتمام، بسبب قوة الشخصيات التي رسمها دوماس وتعامل معها بمقدرة، أما الجزء الثاني من هذه الرواية، فقد صدر بعنوان (بعد عشرين عامًا)، وهي تربط الثائر الأرستقراطي في فرنسا مع الحروب الأهلية في بريطانيا.

رواية جنرال الملك The King general

رواية جنرال الملك لدافني دو موريير، كانت الحرب الأهلية البريطانية بمنتهى القسوة (خاصة إن كنت أيرلنديًا)، ولكن المؤلفين ركزوا على الأوجه الرومانتيكية منها، وخاصة المعارك بين الفرسان وذوي الرؤوس المحدورة، بين عامي (1642 – 1651) في إنكلترا، ودو موريير يتجاوز تلك المعارك للتركيز على كورنوول وطموحاته وغموضه.

رواية ذهب مع الريح Gone with the Wind

رواية ذهب مع الريح للكاتبة مارغريت ميتشيل، بالنسبة لعدد كبير من القراء البريطانيين فإن هذه الرواية التي صدرت عام 1936، وهي الأفضل من بين الروايات التي تناولت الحرب الأهلية الأمريكية (وقد بقيت في الذاكرة طويلاً)، وكانت رواية مارغريت ميتشيل المطبوعة الوحيدة، وقد أطلقت على بطلتها اسم باتسي اوهارا ،فإن الرواية تنجح في تقديم أبعاد الحرب الأهلية ونتائجها.

رواية الشارة الحمراء The Red Badge of Courage

رواية الشارة الحمراء للكاتب ستيفن كرين (عام 1895)، وهي تدور حول جندي شاب ومحاولته للتغلب على جبنه، ويحصل على (الشارة الحمراء) بعد إصابته بجرح في المعركة، ويحصل أيضًا على التقدير في أوساطه.

رواية لورنا دون Lorna Doone

رواية لورنا دون للكاتب ريتشرد بلاكمور كان بلاكمور كاتبًا شهيرًا وعالميًا، وقد عرف بحبه للطبيعة، ولكن إن كان ما يزال شخص ما يتذكره، فيعود ذلك إلى روايته

الصغيرة (لوينادون)، التي كانت مقررة في إنكلترا للطلاب، وهي تتناول تمرد مونماوك، الذي فشل في عام 1906، وانتزع العرش البريطاني من الكاثوليكي جيمس الثاني.

رواية اختطاف kidnapped

رواية اختطاف للكاتب روبرت لويس ستيفنسون، الانقسامات في بريطانيا تواصلت حول الدين وهوية الملك، وفي سكوتلندا، كانت النتائج مرة ومتواصلة، وهي جذبت روائيين إليها، أولهم السير والتر سكوت، الذي كتب رواية جيدة عنها، ورواية سكوتلندا التاريخية هي من أفضل أعماله، ولكنها لم تتواصل مع مرور الأعوام مع القراء، وتفوق عليه في هذا الشأن.

لمن تقرع الأجراس For Whom the Bell Tolls

لمن تقرع الأجراس للكاتب الأمريكي ارنست همنغواي، كان همنغواي في فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، والحرب الأهلية الإسبانية قد جرت (1936 – 1939) وكان القتال شرسًا، وانتشرت أحداثها الشرسة إلى أوروبا، وقد جذبت تلك الحرب التي استهدفت إسقاط الملكية من إسبانيا، كان همنغواي يغطي أخبار الحرب بوصفه صحفي، وبدأ يفكر آنذاك في كتابة رواية عن الحرب الأهلية، وكانت (لمن تقرع الأجراس) هي النتيجة.

رواية حقل الخائن Traitor's Field

رواية حقل الخائن للكاتب روبرت ويلتون، تدور أحداث الرواية في نهاية الحروب الأهلية البريطانية، وقد صدرت مؤخرًا.

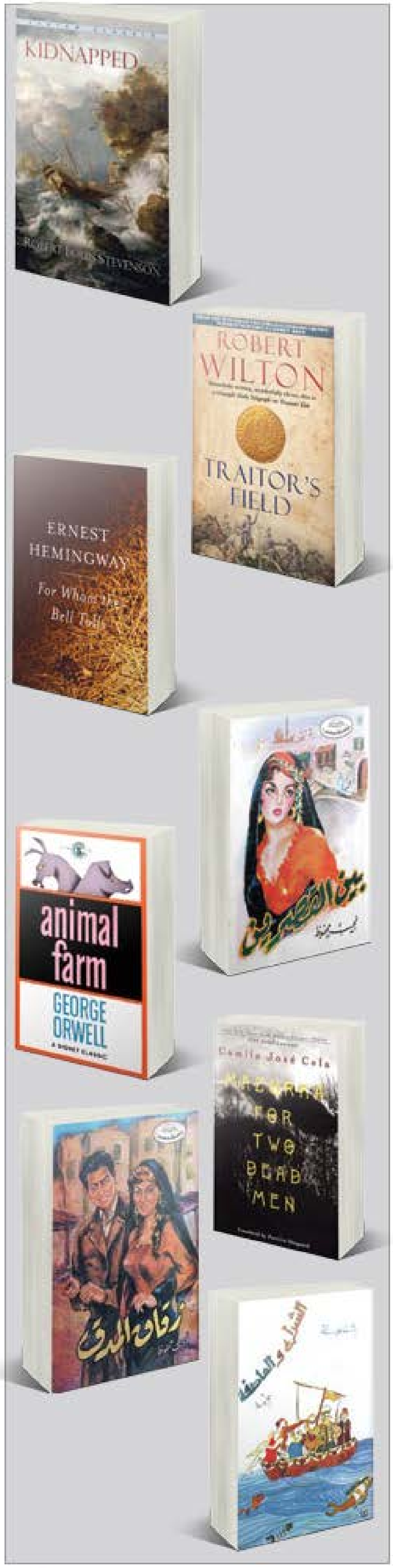
رواية بين القصرين

هو الجزء الأول من ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة، التي تشكل القاهرة ومنطقة الحسين خصيصًا المسرح الأساسي والوحيد لأحداثها. تحكي الرواية قصة أسرة من الطبقة الوسطى، تعيش في حي شعبي من أحياء القاهرة في حقبة ما قبل وفي أثناء ثورة 1919، يحكمها أب متزمت ذو شخصية قوية هو السيد أحمد عبد الجواد (سي السيد)، ويعيش في كنف الأب كل من: زوجته أمينة وابنه البكر ياسين وابنه فهمي وكمال إضافة إلى ابنتيه خديجة وعائشة.

رواية مزرعة الحيوانات Animal Farm

رواية مزرعة الحيوانات للكاتب جورج أورويل قام بكتابتها بعد تجربة مرّ بها في الحرب الأهلية الإسبانية، اشتهر بها أورويل وكذلك برواية "1984"، ولكنّ له عدة أعمال أخرى أيضًا استطاع من خلالها أن يجسد أحد أهم التجارب الثورية في التاريخ الحديث، شارك جورج أورويل في الحرب الأهلية الإسبانية إلى جانب اليسار في مواجهة القوميين بقيادة فرانكو ودعم هتلر وموسوليني.

في هذه الحرب تطوع أورويل ليكون جنديًا في جانب الثوار في كتالونيا، في العام 1938 أصدر روايته "الحنين إلى كتالونيا" ليؤرخ لأحداث الحرب الأهلية الإسبانية تاريخًا روائيًا سياسيًا ثوريًا محكمًا.



رواية لحن ماثوركا على ميتين Mazurka for Two Dead Men

رواية لحن ماثوركا على ميّتين للكاتب كاميلو خوسيه ثيلا، حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1989، ويُعد أحد أهم أدباء إسبانيا، تناولت رواياته موضوعات إنسانية خاصة بالحرب، حيث شارك هو الآخر بوصفه جنديًا في الحرب الأهلية الإسبانية، ولكن في بداية الحرب كان في صف الديكتاتور فرانكو، ولكنه ما لبث أن اختلف معه بعد ذلك، وقام بانتقاده علنًا؛ ولكن ما رآه في هذه الحرب دفعه لكتابة أكثر من رواية أشهرها "لحن ماثوركا على ميّتين".

تأثير الحرب على الأدب العربي:

زقاق المدق

تناولت "زقاق المدق" للروائي الراحل "نجيب محفوظ" أحداث الحرب العالمية الثانية بشكل صريح، وتدور أحداثها في أحد الأزقة المتفرعة من حارة الصنادقية بمنطقة الحسين بحي الأزهر الشريف بالقاهرة، التي أسسها الحاكم الفاطمي (المعز لدين الله) في حقبة الأربعينيات، والحرب العالمية الثانية وتأثيرها على المصريين، والتي تمثلت في البطلة "حميدة" التي انتهت حكايتها بين أحضان الضباط الإنجليزي، ومقتل عباس الحلو "خطيبها"، الذي مات مقتولاً على يد الضباط الإنجليز.

لا أحد ينام في الإسكندرية

أما الكاتب "إبراهيم عبدالمجيد"، فاستحضر مناخ الحرب العالمية الثانية في روايته "لا أحد ينام في الإسكندرية"، حيث استطاع أن يمزج بين وقائعه الموثقة، وطبيعة الصراع الاجتماعي في الرواية، ليرصد من خلالها فكرة الحرب في المدينة نفسها، وتأثيرها على الأشخاص، ورصد تحولات شبكة الصراع، ونظرة الأشخاص لواقعهم، ومصائرهم وسط غبار هذه الحرب.

رواية الشراع والعاصفة

رواية للكاتب حنا مينا صدرت عن دار الآداب سنة 2006، وهذه الرواية تعد من أفضل 105 روايات عربية، وتحديدًا بالمرتبة الـ14، ترجمت الرواية إلى اللغة الروسية بواسطة فلاديمير شاجان.

الشراع والعاصفة، قصة مدينة سورية ساحلية في أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث صور فيها حنا مينا ببراعة مدهشة أثر الحرب وما تركته من عواصف في بلاد يحتلها الفرنسيون، وأبرز التناقضات التي كانت تفترس مجتمعا غير متجانس، ولكنها أولاً قصة رجال البحر، قصة الانتصار على الطبيعة القاسية، قصة الإرادة البشرية والمغامرة.

الكتابة والإيهام



د. أمير تاج السر
كاتب وروائي سوداني

«أعتقد جازمًا الآن أن كتابة رواية قائمة على الإيهام وذكر أنها مخطوط تم العثور عليه - بطريقة أو بأخرى- لن يكون من الطرائق الناجحة مستقبلا لكتابة رواية»

لاحظت في الآونة الأخيرة ازدياد عدد الروايات التي تُحكى بلسان راوٍ، يقول: إنه يتبع حكاية وردت في مخطوط عثر عليه في مكان ما، مثل صندوق لجدّه كان مغبرًا في البيت ولا أحد يلتفت إليه، أو عند بائع تحف قديمة في سوق شعبية، أو هكذا هبط عليه من السماء في أثناء تجواله في الطرق.

هذا المدخل لكتابة رواية قائمة على إيهام القارئ بأن وقائعها صحيحة ومدونة في مخطوطات يمكن الرجوع إليها بالفعل، خاصة حين ترد في الرواية أسماء لشخصيات معروفة في التاريخ الإنساني، مثل شخصية "هيباتيا" عالمة الرياضيات القديمة، أو أحد الملوك والسلاطين ممن حكموا العالم ذات يوم، ليس جديدًا بالقطع في الكتابة الروائية عامة، وإنما استخدم كثيرًا في آداب الغرب من قبل، وعبره حكيت قصص غاية في الجمال، ورصدت أزمنة بعيدة في حكي جديد، لكن يبدو أن استحداثه في الكتابة العربية أدى لاستهلاكه لدرجة أن القارئ لم يعد يرغب في قراءة رواية تقول مقدمتها: إنها نُقلت من مخطوط عثر عليه مصادفة.

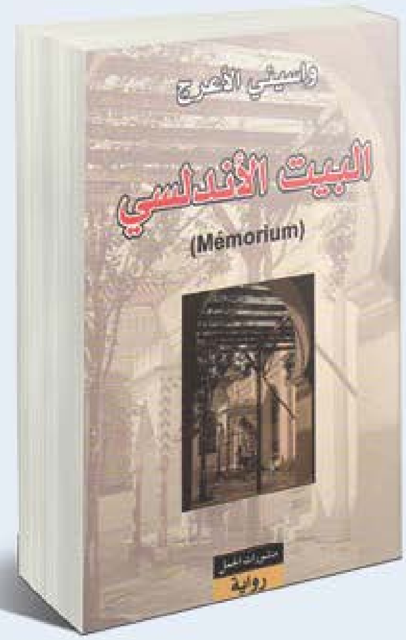
وقد التقيت كاتبًا صديقًا أخبرني بأنه بدأ بكتابة رواية بهذا النهج، وقبل أن يكملها تمامًا، قرأ أكثر من أربع روايات كلها جاءت من مخطوطات كما تقول مقدماتها، فلم يكمل روايته، وألغاها تمامًا من إبداعه.

ولا يفوتني أن أذكر هنا، أن صديقي الراحل خيري عبدالجواد، كان من أوائل الذين كتبوا مثل هذه الروايات في الكتابة العربية بروايته: "العاشق والمعشوق" الصادرة في سبعينيات القرن الماضي.

أولاً، أؤكد أن هذا النوع من الكتابات له سحره الخاص، ذلك السحر القائم على إيهام من يقرؤه بحقيقته، وتجد القارئ المتمكن يلهث خلف تلك الرواية محاولاً أن يصل إلى نهايتها بأي شكل ممكن، وأظن أن هذا حدث معي حين كنت أقرأ رواية "الحياة الجديدة" لأورهان باموق منذ سنوات، التي تقوم فكرتها بالعثور على كتاب وقراءته، وتغير المصائر بعد ذلك.

لا أذكر القصة جيدًا، لكن أذكر لهاثي خلفها، وتلك الساعات التي ألغيت فيها حتى نومي من أجل أن أخرج بنتيجة، ولعل روايات مثل "عزازيل" ليوسف زيدان، و"البيت الأندلسي" لواسيني الأعرج تملك مثل هذا التشويق الكبير.

أيضًا من مميزات هذا النوع من الكتابة ترك المؤلف على راحته، يحكي بترف كل ما يخطر بباله من دون خوف من أن يتتبع أحدهم مخطوطه الوهمي، ليعرف إن كان ما يقوله حقيقة أم لا، لأن المخطوط الوهمي بحوزة الراوي كما يقول، ومن ثم كل المواقف الوهمية والشخصيات والحوارات هي حقائق غير قابلة للدحض، وعلى القارئ





أن يقبل بها، عكس الرواية التاريخية الصرفة التي تحتاج غالبًا لوثائق، وفيها وقائع ثابتة يعرفها الناس ولا يمكن ردمها بأي خيال، أو تغييرها بوقائع زائفة.

ما يمكن ملاحظته، هو أن بعض الكتّاب يجيدون فعلاً هذا النوع من الكتابة، وهم بالمهارة التي يملكونها قادرون على إدخال القارئ في عالم مخطوطهم ذلك، بلا قدرة على الخروج إلا منهزمًا في نهاية الرواية، ورواية "عزازيل" لزيدان، نموذج جيد بلا شك، على عكس آخرين، لا تحس بوهج عملهم الذي يمكن التملص منه في أي لحظة، هم يحاولون الإمساك بالقارئ، والقارئ يحاول الخروج، وينتصر، وأعتقد أن هناك رواية لأورهان باموق أيضًا، غير "الحياة الجديدة"، لعلها من بداياته، لم تكن كتابتها عظيمة، كما أذكر.

هذا النوع من الكتابة، بجانب إيجابياته التي ذكرتها، فيه سلبيات أيضًا، ومنها وضع الكاتب في سياق معين للحكاية، لا يستطيع تجاوزه، هو يملأ الفراغات بالخيال كما ذكرت، ويبتكر الشخصيات والأفعال وربما اللغة، لكن تظل الحكاية أسيرة سياق معين، هو سياق محاكاة التاريخ، والمشي في أثر الرواة السابقين، لأن الحكاية في الأصل من مخطوط كما تذكر المقدمة، ولذلك قد يقود هذا الأمر إلى انفضاح درب الحكايات المختلفة للكتّاب المختلفين، قبل طرقه تمامًا.

القارئ المتمكن حين يدخل في حكاية المخطوط، يستطيع أن يتوقع بعض الأحداث، يستطيع تجميع مهارات النص قبل الكاتب، ويستطيع كتابة تصوره الخاص للنص داخل ذهنه وهو يقرأ، ومن ثم ربما يخف التشويق باستمرار القراءة، وتبدأ مسألة محاولات التملص من النص التي ذكرتها.

أيضًا لأن الإطار محدود للغاية، فأي كتابة جديدة فيه، تُعدُّ تقليدًا لكتابة سابقة، على الرغم من اختلاف الحكاية من مخطوط وهمي لمخطوط وهمي آخر.

شخصيًا، وبعد قراءات متعددة لمثل تلك الروايات، لم تعد تستهويني روايات المخطوطات، إلا إن عثرت على شيء مميز فيها ألمسه عند بداية القراءة، وهذا يحدث أحيانًا بالطبع.

أعتقد جازمًا الآن أن كتابة رواية قائمة على الإيهام، وذكر أنها مخطوط تم العثور عليه - بطريقة أو بأخرى- لن يكون من الطرائق الناجحة مستقبلاً لكتابة رواية، بعد أن كتبه معظم الروائيين، وعلى الكتّاب أن يسعوا لطرق أخرى في الإيهام، وشخصيًا أرى أن كتابة التاريخ المتخيل طريقة جيدة في شد القارئ إلى ما قد يظنه تاريخًا حقيقيًا، وهي طريقة لن تشيخ في رأيي، لأن الكاتب لا يذكر مصادره غالبًا، وإنما يترك الأمر ملتبسًا هكذا.

أخيرًا، وبرغم كل الانفجار الحادث في كتابة الرواية بشتى أساليبها، فإن الرواية هي عالمنا الكبير الذي ينجذب إليه الكتّاب والقراء على حد سواء، وفي اعتقادي، فإن هناك آفاقًا كثيرة لم يتم ارتيادها بعد، وقطعًا هناك من سيأتي ليرتادها ذات يوم.

"أؤكد أن هذا النوع من الكتابات له سحره الخاص، ذلك السحر القائم على إيهام من يقرؤه بحقيقته، وتجد القارئ المتمكن يلهث خلف تلك الرواية محاولاً أن يصل إلى نهايتها بأي شكل ممكن"

"بعض الكتّاب يجيدون فعلاً هذا النوع من الكتابة، وهم بالمهارة التي يملكونها قادرون على إدخال القارئ في عالم مخطوطهم ذلك بلا قدرة على الخروج"

"برغم كل الانفجار الحادث في كتابة الرواية بشتى أساليبها، فإن الرواية هي عالمنا الكبير الذي ينجذب إليه الكتّاب والقراء على حد سواء"



الإدراك خارج الحس



د. وليد فتيحي

جدة

كثيرًا ما نتحدث عن أمور نشعر بها ونعايشها، لكن يصعب علينا تفسيرها على مستوى المادة، هذه الظواهر أطلقت عليها علوم المخ والأعصاب (ظواهر الإدراك خارج الحس) (Extra Sensory Perception) مثل التخاطر أو الرؤية عن بعد والرؤى الصادقة والإحساس بالشيء قبل حدوثه، كالشعور بحدوث مكروه لمن نحب في اللحظة التي يقع فيها المكروه، كقلب الأم.. فهل هناك تفسيرات علمية مادية لهذه الظواهر غير المادية؟ ترى.. هل أودع الخالقُ الإنسانَ وسائل تواصل وتأثير على محيطه غير المادي المرئي المحسوس؟ وماذا يقول العلم الحديث عن هذه الظواهر؟

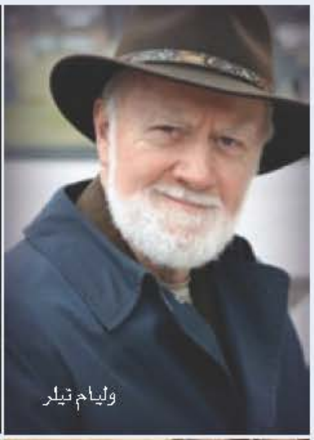
بدأ الاهتمام بهذه الظواهر عام 1963م من قبل علماء القوى الذهنية، وأطلق عليها (التفاعل الذهني المباشر مع الأنظمة الحية) (Direct Mental Interacting Living Systems).

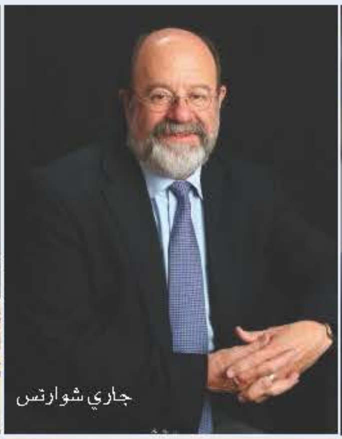
وأولى الدراسات كانت على يد عالم النفس والباحث في الوعي تشارلز تارت، حيث قام بتجربة على نفسه لدراسة تفاعل الأشخاص مع آلام غيرهم، فعرض نفسه لصدمات كهربائية خفيفة، وفي غرفة مجاورة معزولة تمامًا خضع متطوع للمراقبة الطبية لتسجيل إذا ما كان جهازه العصبي المنبه (sympathetic nervous system) سيلتقط رد فعل تارت بأي شكل من الأشكال، وكانت النتيجة مذهلة!! فكلما تعرض تارت لصدمة كهربائية عانى المتطوع من تغيرات فسيولوجية، مثل انخفاض ضغط الدم وزيادة معدلات ضربات القلب، وكأنه هو الذي يتلقى الصدمات الكهربائية.

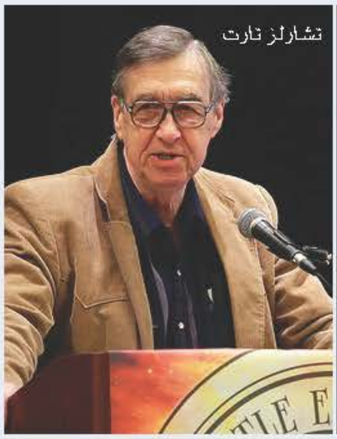
تلت هذه الدراسة دراسات عديدة، كلها بينت نتائج متشابهة، ومن هذه الدراسات المهمة في مجال التأثير الذهني المباشر دراسة أجريت عام 2005م على يد مجموعة من الباحثين في جامعتي واشنطن وباستير على 30 زوجًا ممن يمارسون التأمل وتربط الزوجين علاقة عاطفية ونفسية قوية، وفصلوا كل زوج عن زوجته في غرف تبعد عن بعضها بعشرة أمتار، وأخضع أحد الأفراد لضوء وامض، وطلب منه أن يرسل صورة ذهنية لزوجه، وتم تسجيل النشاط الكهربائي لمخ هذا الشريك، فظهرت لديه زيادة في نشاط القشرة الدماغية البصرية في اللحظة نفسها التي رأى فيها الزوج المرسل الضوء، أي أن دماغ المستقبل يتفاعل، وكأنه يرى الصورة نفسها التي يراها المرسل في الوقت نفسه، بالرغم من أنهما منفصلان تمامًا ومتباعدان جدًا.

هناك دراسة أخرى على شخصين تقابلا لأول مرة وتعارفا، وحدث بينهما توافق روحي، قاموا بفصل الشخصين بعضهما عن بعض على بعد 50 قدمًا في غرفتين معزولتين تمامًا، سلطوا على عين الأول الضوء وتم تسجيل ما أحدثه صورة ضوئية في الدماغ، وفي الوقت نفسه سُجلت الصورة الضوئية نفسها في دماغ الشخص الآخر دون تسليط أي ضوء عليه، وأكدت هذه الدراسة أنه على قدر الوقت الذي يقضيه شخص مع شخص آخر ويتواصل معه، على قدر ما تصبح أدمغتهم متصلة من خلال الطاقة المتبادلة بينهما.

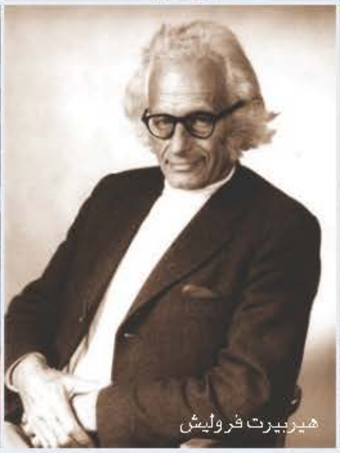
لقد أظهرت أبحاث التفاعل الذهني المباشر مع الأنظمة الحية أن هناك تبادلاً لطاقات نبض القلب، وموجات الدماغ، ونشاط الجهاز العصبي اللاإرادي بين شخصين متحابين، ليؤثرا في بعضهما حتى وإن كانا متباعدين ومنفصلين، ولكن كيف حدث ذلك؟ ما هذه الطاقة؟

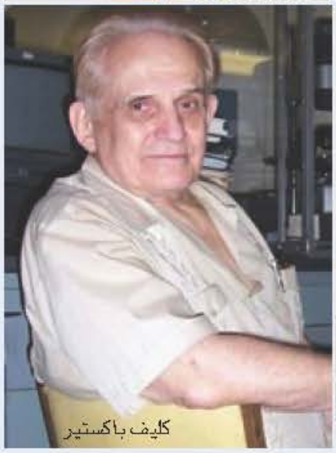

وليام تيلر


جاري شوارتس


تشارلز تارت


وليام براد


هيربيرت فروليش


كليف باكستير

وكيف انتقلت من إنسان إلى آخر؟ وهل يمكن لهذه الطاقة أن تنتقل من إنسان إلى غيره من الكائنات الحية غير الإنسان؟

إن أول من افترض أن النباتات تتأثر بالنشاطات الذهنية للإنسان وأن الكائنات الحية يمكن أن تتجاوب مع أفكار الشخص ونيته هو كليف باكستير (Cleve Backster)، حيث استخدم باكستير جهاز كشف الكذب الذي يقوم بتسجيل الزيادة في التوصيل الكهربائي للجلد على هيئة رسم بياني عندما تُهدد حياة الإنسان، فأوصل الجهاز بإحدى أوراق شجرة الدراسينيا (Dracaena) الطويلة، ثم فكر أن يهدد حياة النبات بأن يحرق طرف الورقة بعود من الثقاب، وفي اللحظة التي فكر فيها باكستير أن يحرق الورقة تأرجح قلم تسجيل الرسم البياني في الجهاز إلى أعلى مستوى، إنه لم يحرق النبات، لم يشعل عود الثقاب، إنما فكر فحسب.. مجرد أنه فكر. أبعد باكستير الفكرة المؤذية للشجرة عن ذهنه، فهدأ الرسم البياني ورسم القلم خطًا مستقيمًا، كرر التجربة عشرات المرات وحصل على النتيجة نفسها، حتى عندما أبعد النبات عنه عشرات الأمتار أو وضعها في غرفة بعيدة.

كرر باكستير التجربة على قشيرات الجمبري الحية، وكل مرة يلقي فيها الجمبري في الماء المغلي كانت النباتات تستجيب على الجهاز وإن كانت في غرفة مجاورة.

خلص باكستير إلى أن أفكار الإنسان السلبية تطلق موجات تلتقطها النباتات وتتفاعل معها، وتحمل العالم باكستير سخرية وسخافات المهاجمين سنوات عديدة، حتى جاء عالم الفيزياء الألماني (فريتز ألبيرت بوب Fritz-Albert Popp) الذي اكتشف أن جميع الكائنات الحية من وحيدة الخلية إلى أكثرها تعقيدًا كالإنسان تبعث تيارًا مستمرًا من وحدات الضوء (الفوتونات) وسميت (الانبعاثات الفوتونية الحيوية) (Biological Photons) وأنها أهم من الكيمياء الحيوية كوسيلة لتنسيق العمليات بين الخلايا الحية، بل واستطاع إثبات وجودها بتسجيل الترددات التي تنبعث من الحمض النووي (DNA).

واستطاع عالم النفس الشهير بجامعة بنسلفانيا جاري شوارتس (Gary E. Schwartz) بمساعدة الدكتورة كاثي كريس (Cathy Creath) أستاذة علم البصريات، ولأول مرة في التاريخ تصوير الضوء المنبعث من النبات بدقة شديدة وتفاصيل مذهلة، بل واستطاع شوارتز أن يصور صورًا واضحة لتيارات الضوء التي تتدفق من أصابع خبراء المعالجة عن بعد، فاستنتج أن نية المعالجة لدى هؤلاء الخبراء تولد موجات من الفوتونات الحيوية. هل هذا يفسر ما كانت تفعله جدتي عندما كانت تتحدث مع النباتات وتحن عليها، وتعتقد أن طرح الثمار يقل في أثناء سفرها، لأن هذه النباتات تفتقدها؟

ومن آليات التواصل الأخرى النشاطات الكهربائية والمغناطيسية التي ترسلها أجسامنا، حيث استطاع جاري شوارتز عام 1994م تسجيل النشاطات الكهربائية، فوجد أن كل حركة نقوم بها ترسل إشارات كهربائية وأنها تتضاعف مئات المرات في أثناء التركيز العقلي والتأمل، واستنتج أنه ليست حركاتنا فقط هي التي تولد الطاقة بل

> ”لقد أظهرت أبحاث التفاعل الذهني المباشر مع الأنظمة الحية أن هناك تبادلا لطاقات نبض القلب، وموجات الدماغ، ونشاط الجهاز العصبي اللاإرادي بين شخصين متحابين ليؤثرا في بعضهما حتى وإن كانا متباعدين ومنفصلين. ولكن كيف حدث ذلك؟“

> ”الدكتور وليام تيلر (William Tiller) رئيس قسم خواص المواد بجامعة ستانفورد ومؤسس علم ما بعد الفيزياء المعاصرة، استطاع تصميم وبناء جهاز عبقري لقياس قوة مجالات الطاقة الكهربائية التي تنتجها أفكارنا، وأنها يمكن أن تتضاعف آلاف المرات بتركيز النية على عمل معين“

> ”أثبت عالم الفيزياء الحيوية الألماني هيربيرت فروليش (Herbert Frolich) أن أنظمة الطاقة البيولوجية في الإنسان تتوالف وتترابط مع أنظمة الطاقة الأخرى في الكون في حالة واحدة متماسكة عملاقة كأنها فرقة مشاة مدربة تسير سيرًا وتنتقل عبر مسافات هائلة بسرعة فائقة وفي زمن ضئيل للغاية مثل ضوء الليزر دون أن تفقد طاقتها.
> هل هذا يفسر معنى قلب الأم؟ قلب الأم الذي يشعر بآلام أبنائها فتحس بمصابهم لحظة وقوعه“

وأفكارنا كذلك. بل واستطاع أحد أعظم علماء الفيزياء المعاصرين الدكتور وليام تيلر (William Tiller) رئيس قسم خواص المواد بجامعة ستانفورد ومؤسس علم ما بعد الفيزياء المعاصرة، استطاع تصميم جهاز عبقري وبناءه لقياس قوة مجالات الطاقة الكهربائية التي تنتجها أفكارنا، وأنها يمكن أن تتضاعف آلاف المرات بتركيز النية على عمل معين، وبذلك أثبت بما لا يقبل الشك أن أفكارنا تنتج طاقة فيزيائية كهربائية، وأنها قابلة للقياس.

وكذلك سُجلت التغيرات في المجال المغناطيسي باستخدام جهاز صُمم لذلك، ووجد تغير كبير في المجال المغناطيسي والقدرة على تمرير الطاقة من شخص إلى آخر.

وبذلك خلص العلم إلى وجود ثلاث آليات على الأقل للتواصل وأشكال من الطاقة:

التيارات الكهربائية.

المجالات المغناطيسية.

الفوتونات البيولوجية المتماسكة.

وكلها يمكن أن تصدر نتيجة لنشاطاتنا الذهنية وقابلة للقياس وبدقة.

بل أثبت عالم الفيزياء الحيوية الألماني هيربيرت فروليش (Herbert Frolich) أن أنظمة الطاقة البيولوجية في الإنسان تتوالف وتترابط مع أنظمة الطاقة الأخرى في الكون في حالة واحدة متماسكة عملاقة، كأنها فرقة مشاة مدربة تسير سيرًا، وتنتقل عبر مسافات هائلة بسرعة فائقة، وفي زمن ضئيل للغاية، مثل ضوء الليزر دون أن تفقد طاقتها.

هل هذا يفسر معنى قلب الأم؟ قلب الأم الذي يشعر بآلام أبنائها فتحس بمصابهم لحظة وقوعه، وهل هذا يفسر التواصل الغريب بين الفاروق عمر بينما كان يقف يخطب الجمعة في المدينة، فتواصل مع أحد قادته في فارس حين قال محذرًا إياه: يا سارية الجبل الجبل. وسمعها سارية من على بعد آلاف الأميال فسلم الجيش بتحذيره.

لقد أثبت العالم الفيزيائي العظيم د. وليام تيلر، تأثير التركيز الذهني على إحداث تغيير ما في الوسط المحيط على بعض العمليات الكيميائية والبيولوجية، أي بمعنى آخر تأثير النية البشرية، وكانت النتائج حقًا مذهلة، فعلى سبيل المثال على المستوى الكيميائي استطاع العلم أن يثبت أنه بالتركيز الذهني (استحضار النية) يمكن تغيير درجة حموضة الماء (PH) بالزيادة أو النقصان بمقدار وحدة كاملة، وهذا مقدار كبير جدًا يستحيل حدوثه تلقائياً. أما على الفئران، فقد استطاع التركيز الذهني للشخص المراقب للفأر، رفع كفاءة أحد أهم أنزيمات الكبد لدى الفأر بمقدار 30 %.

لقد أصبح هذا العلم مجال اهتمام مئات العلماء الباحثين والمرموقين حول العالم، ومن أدق الدراسات والأبحاث تلك التي قام بها الدكتور وليام براد (William Braud) في تكساس، والتي أثبتت أن الأفكار البشرية والنية والتركيز يمكنها التأثير على اتجاه سباحة الأسماك وحركة الحيوانات الأخرى مثل الفئران، بل وأثبتت أبحاثه الدقيقة أن الإنسان قادر على التأثير على الجهاز العصبي اللاإرادي لشخص آخر سلبيًا أو إيجابيًا.

نعم إن الذهن البشري يرتبط ارتباطًا لا ينفصل عما حوله، وهو قادر على التأثير على غيره من البشر والحيوان والنبات بطاقات كهرومغناطيسية وفوتونات حيوية أودعها الله إياها.

بل وكذلك على المواد والأجهزة من حولنا، حيث يثبت العلم أن للأفكار التي تدور في عقولنا تأثيرًا على الأشياء الجامدة من حولنا، وتسمى بتأثير الجريميلين (Gremlin Effect)، وهناك أناس يمتلكون حقل تأثير سلبيًا قويًا، ومنهم العالم الفيزيائي باولي (Pauli)، فكثيرًا ما كانت الآلات تتعطل فور وصوله مختبره، خاصة إن كان مزاجه سيئًا.

وقد قضى د. روبرت جان (Robert Jahn) العميد السابق لكلية الهندسة بجامعة ستانفورد، أكثر من 30 عامًا ليجمع الأدلة مع تحري المنهجية العلمية الدقيقة، وتوصل إلى إثبات تأثير الأفكار على الآلات الإلكترونية.

لقد اكتشف جاك بينفينزت (Jack Benvenist) أن الإشارات الرئيسية بين الجزيئات الحية ليست كيميائية، ولكنها إشارات كهرومغناطيسية، ولذلك فهي أكثر تأثيرًا بما يصدر عن عقولنا وأفكارنا من طاقة، وهذا قد يفسر قدرة النية السيئة الهدامة مثل الحسد على إنزال الضرر بالآخرين، كما يفسر بالطبع التأثير على المعدات والأجهزة من حولنا.

في مقابلة للدكتور تيلر مع د. عمرو شريف في كتابه (أنا تتحدث عن نفسها) يشبه د. تيلر حالنا بإنسان قابع داخل غواصة كروية ذات طبقات ثلاث متتالية، جوهرها الروح محاط بثلاثة مجالات من الطاقة، العقلي ثم الانفعالي وكلاهما غير ماديين، ثم المجال الكهرومغناطيسي، وهو المجال المادي المحيط بنا، ونشاط الروح ينشط المجال العقلي والانفعالي، ويؤدي إلى رفع طاقة المجال الكهرومغناطيسي، ويزيد بذلك من طاقة هذا العالم من حولنا بناء على ما نمارسه من نية وقصد.

وبالبحث والقياس تبين أن الطاقات تبقى في المكان لفترات طويلة قد تصل إلى عام كامل قبل أن تتناقص ببطء وتتلاشى. هل هذا يفسر ما حثنا عليه الإسلام من صلاة النوافل في بيوتنا، حتى لا تصبح قبورًا؟ أو يفسر إحساسنا بالروحانيات عند دخولنا دور العبادة القديمة ولا نشعر به في بعض المساجد ودور العبادة التي بنيت حديثًا؟ هل هذا بسبب تعاقب العباد على مر السنين وبقاء هذه الطاقة محفوظة تحف المكان.

يعتقد د. وليم تيلر أن معاناة إنسان الحضارة المادية التي نحياها تشبه السرطان المستشري، هذا السرطان يتمثل في عدم القدرة على أن يحب بعضنا بعضًا بالقدر الكافي، وأن ننظر للعالم بقلوبنا ومشاعرنا كما ننظر إليه بعقولنا، وأن نهتم بعمارة داخلنا، وأن نعتبر أنفسنا جزءًا من الآخرين ونعتبرهم جزءًا منا، فما نضيفه إليهم هو إضافة لنا، ويدعونا د. تيلر إلى أن نعمق الحب بيننا حتى تشع أرواحنا طاقة نشحن بها الوجود من حولنا، هذا الحب الذي هو امتداد للحب المتبادل بين الرب والروح، فمنه ينبثق الوعي، ومن الوعي تنبثق الطاقة التي تؤثر في المادة، إنه مصدر كل شيء، فالحب يجمع والكره يفرق.

يقول د. تيلر إن مفتاح تغيير العالم كله هو أن تحب خالقك بكل قلبك وعقلك وروحك، وأن تحب جميع المخلوقات، وأن تغمرها بعطائك بصفتها أعمال الرب، وأن تنظر إلى الحياة بصفتها رحلة ممتعة في عالم الزمان والمكان، وأنها سرعان ما تنتهي لنلحق بوجودنا الأبدي المطلق.

لقد استحق د. وليم تلر أعظم علماء الفيزياء المعاصرين أن يوصف بأن البشرية تفخر بأنه أحد أبنائها.. أليس ما دعا إليه تلر هو ما سبق أن دعانا إليه الإسلام وجاء الأنبياء لينشروه.. حب كل المخلوقات لله وبالله وفي الله؟

هنا أفهم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ الأنبياء: 107 و(العالمين) كما يقول المفسرون تشمل كل ما سوى الله سبحانه، فرسالة نبينا وديننا رحمة لكل العالمين.. عالم الإنس وعالم الجن وعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد وكل ما حولنا.

إذا أردت حقًا أن تغير العالم من حولك، فابدأ بنفسك، فقد حباك الله طاقات عظيمة غير مرئية تستطيع بها أن تغير أكثر بكثير مما كنت تعتقد سابقًا على قدر صحة النية وحبك لله ومخلوقاته والإنسانية.

إن الحقائق التي استعرضناها في حلقة اليوم قد تبدو شديدة الغرابة لكثير منا، وإني أشارككم هذا الشعور، ولو لم تكن هناك مئات الدراسات العلمية الصادرة من مؤسسات علمية مرموقة متبعة أدق المعايير العلمية البحثية، وأثبتت ما تحدثنا عنه، لكنت أول من يرفض هذه النتائج، لكني أرى فيها بداية عصر تتجلى فيه أعمق صور تحقيق قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ فصلت: 53.

لمشاهدة ومحياي (الإدراك خارج الحس) اضغط هنا

ميلاد دمعة

عبثتَ
بأوراقِ الخريفِ
مليحتي
وتساقطَ
السَّجمُ الدفينُ
بمُقلتي

والطيرُ
في سربِ
الوداعِ
توقفتْ
لم تلتفتْ
إلا لترمقَ
دهشتي

والغيمةُ الصفراءُ
تعزفُ بوحها
لحنًا حزينًا
أسمعتْه غيمتي

والقهوةُ السمراءُ،
موعدُ رشفةٍ
لم تسعفِ الأوقاتُ
يومًا قهوتي

كل الفراشاتِ
اللواتي
لُمْنَني في حبها
ما ذُقنَ يومًا لوعتي

***

أسدتْ لي الأقمارُ
سرَّ شُحوبِها
فعذرتُها
والصمتُ يغلبُ
سَطوتي

ما بالُ مبسمِها البَهي
كأنه
عشقَ الكآبةَ
يومَ فارقَ
بسمتي

نظراتُها
قدحٌ مليءُ حيرةٍ
تتقارعُ الأقداحُ،
نَخبُكِ حيرتي

والقلبُ
يا للقلبِ
في خفقانه
نبضاتُه
بوحٌ
يحاكي
نبضتي

والأسطرُ الزرقاءُ
ذاب أنينها
فتبعثرتْ
فوق الصحيفةِ
قصتي

ماذا يردُ الدمعُ
إلا أنه
يَحيى شهيدًا
سامقًا
في مُقلتي



عصام بن يحيى بريك

جازان



كم تجيد توظيف المواقف؟



محمد بن عبدالله الفريح

كاتب ومفكر

@malfriah

وُلد "كاسيوس مارسيلوس كلاي جونيور" يوم 17 كانون الثاني/يناير 1942م في مدينة لويفيل بولاية كنتاكي، ثم تحول إلي الإسلام وعرف باسم "محمد" لأسرة مسيحية فقيرة من الزنوج الأمريكان، وعانى مع أسرته من سياسة التفرقة العنصرية التي كانت سائدة في هذه الحقبة.

كان الأب يعمل رسامًا على الجدران، فكان من هذه الحرفة يأتي بلقمة العيش، والأم أوديسا جرادي كلاي كانت تعمل أيضًا منظفة منزل وطباخة.

يُعد محمد علي كلاي واحدًا من أبرز الملاكمين الذين شهدتهم حلبات الملاكمة، فهو وهو صاحب أسرع لكمة في العالم التي وصلت سرعتها 900 كم.

وهو واحد من أعظم الشخصيات الرياضية في القرن العشرين . فقد توّج وقتها "برياضي القرن " .

وكانت بدايته في عالم الملاكمة عام 1954م، في تلك الأثناء لم يكن الصبي كاسيوس مارسيلوس كلاي قد تجاوز الـ12 من عمره عندما سرق أحد الأشخاص دراجته الهوائية، وهو يلعب مع أحد أصدقائه في إحدى صالات الألعاب بالمدينة، وثار الصبي ثورة عارمة عندما اكتشف سرقة دراجته، وتلفظ بألفاظ التهديد والوعيد، قائلاً: إنه سيسحق السارق سحقًا أو يضربه ضربًا مبرحًا عندما يعثر عليه، وتوجه بالكلام إلى رجل شرطة وجده أمامه، فما كان من رجل الشرطة إلا أن سخر من الصبي الطويل النحيف قائلاً له: "من الأفضل لك أن تتعلم الملاكمة أولاً قبل أن تحاول ضرب أحد". ولم يخطر ببال هذا الشرطي أنه – بهذه الجملة الساخرة – كان سببًا في تغيير مسار حياة هذا الصبي، وتوجيهه إلى تعلُم الملاكمة، وبالفعل بعدها ببضعة أيام، بدأ محمد علي كلاي الذهاب إلى صالة جو مارتن الرياضية، ليبدأ تدريب الملاكمة هناك، ليتعلم رياضة الملاكمة محققًا 100 انتصار من أصل 108 مباريات خاضها بصفته ملاكمًا هاويًا قبل مسيرته الاحترافية، ثم كان احترافه لها في عام 1960، وكان عمره 18 عامًا.

وفي عام 1964م صدم العالم عندما استطاع إقصاء الملاكم "سوني ليستون" عن عرش الملاكمة، وهو لا يتجاوز 22 عامًا.

لقد واجه محمد علي كلاي الكثير من التحديات، ويعد أكبر تحدي عند اعتناقه الإسلام، ففي اليوم التالي من بطولته مع ليستون عام 1964، أعلن محمد علي كلاي علي الملأ اعتناقه الإسلام أمام كل الجمهور، مما جعل الجمهور لم يكن سعيدًا بالفعل، فهم يعتقدون إن كل من ينضم إلى الأمة الإسلامية هو عنصري ويكون خيبة أمل على بلاده . فكانوا غاضبون جدًا.

وظلوا ينادونه باسم كاسيوس كلاي، فالكثير من الأشخاص يعتقدون أن الديانة الإسلامية هي السبب في تحرير العبيد السود، إلا أن بدأوا أن يعتادوا على الاسم الجديد له، وهو محمد علي كلاي.

وفي قمة انتصاراته في عالم الملاكمة تم سحب اللقب منه في عام 1967م بسبب رفضه الالتحاق بالخدمة



العسكرية في جيش الولايات المتحدة في أثناء حرب فيتنام اعتراضًا منه على الحرب.

في يونيو عام 1967، حوكم محمد علي، وأدين بالتهرب من الخدمة العسكرية، وتم تغريمه 10.000 دولار، وحُكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات، واستطاع أن يطلق سراحه بكفالة، ولكن كان هناك الكثير من الغضب الشعبي الذي حظر محمد علي كلاي، ومنعه من الملاكمة بل وجرده أيضًا من لقبه في الوزن الثقيل، فقد رأى الكثير من الأشخاص أن محمد علي مراوغًا.

وتعليقًا على رفضه للحرب: "هذه الحرب ضد تعاليم القرآن، وإننا – كمسلمين – ليس من المفترض أن نخوض حروبًا إلا إذا كانت في سبيل الله ورسوله. كما أعلن في عام 1966: "لن أحاربهم – قاصدًا فيت كونج الجيش الشيوعي في فيتنام – فهم لم يلقبونني بالزنجي".

وفي عام 1970، أمرت المحكمة العليا في ولاية نيويورك أن يستعيد محمد علي رخصة الملاكمة من جديد، وفي السنة التالية ألغت المحكمة العليا إدانته من أي شئ نُسب إليه، وهذا كان قرارًا بالإجماع.

هذا الملاكم الشهير حياته مليئة بالإثارة مما جعله واحدًا من الملاكمين الأكثر شهرة في كل العصور، فاعتناقه الإسلام، وقناعته بضرورة رفضه للخدمة العسكرية، ومنعه من الملاكمة مدة تصل إلى ثلاث سنوات، ولكن بالرغم من كل ذلك فإنه لم يتوقف أو يستسلم.

تعجبت كثيرًا وأنا أقرأ قصة هذه الأيقونة العالمية التي أبهرت العالم بإصراره وصبره. على هذه الرياضة العنيفة والمرهقة، إذ تعد الملاكمة من أكثر الرياضات إجهادًا وإيلامًا وأكثر خطورة على حياة ممارسها. وتعجبت أكثر من هذا الشرطي عندما رد عليه بهذه الكلمات الباردة وهو يستشيط غضبًا بسبب سرقة دراجته، ولم يكن يعلم أنه بهذه الكلمات الباردة برغم قساوتها قد أشعلت نارًا لا يخمد أوارها داخل قلب هذا الشاب اليافع، وتعجبت أكثر من طريقة تلقي محمد على لهذه الكلمات ووقعها عليه، وكيف أنها كانت سببًا لأن يفكر بطريقة استثنائية في رياضة الملاكمة ليسجل اسمه بعد ذلك في سجل قل أن ينساه الناس يومًا. ولاينقضي العجب من هذه القصة إذا كيف استثمر هذا الشاب هذه الواقعة المأساوية بالنسبة إليه في حينها، لتكون سببًا في حرف مساره لاتجاه يجيد الخوض فيه.

كم تمر علينا في اليوم والليلة من مواقف مشابهة؟ وربما أقل قسوة من قصة محمد علي وربما أكثر، وكم نستفيد منها، ونوظفها لصالحنا؟

يقول الباحث زاهد بخاري – وهو زميل في مركز التفاهم الإسلامي المسيحي بجامعة جورج تاون –: "إنه إذا طُلب من المسلمين في جميع أنحاء العالم أن يذكروا أسماء أكثر خمس شخصيات إسلامية محبوبة في القرن الـ20، فإنني واثق من أن هناك شخصيتين ستكونان ضمن الخمس: وهما محمد علي، ومالكولم إكس". ومن مفارقات الأقدار أن مالكولم إكس هو الذي أقنع محمد علي بالتعرف على جماعة أمة الإسلام، وحبَّبه في الدين الجديد.

كم نحتاج في كثير من الأحيان لنعيد قراءة المواقف التي تمر علينا كل يوم، ونعيد توظيفها واستخدامها بما يعود علينا بفهم جديد أو توظيف أكثر نفعًا، فمن يدري ربما بهذه الميزة الاستثنائية نصبح أيقونات في هذا العالم!!

خاطرة:

ما أجمل قول المتنبي

وكل امرئ يولي الجميل محبب

وكل مكان ينبت العز طيب

المصادر

1- http://islamstory.com/ar/

2 – الموقع الشخصي للملاكم محمد علي

3 – مقال باسم محمد علي كلاي شخصية القرن الرياضية



مالكولم جلادويل مؤلف كتاب (الاستثنائيون)



ناصر بن محمد الزمل

رئيس التحرير

@nalzumal

هل العبقرية والذكاء متوفرة في أشخاص محددين بشكل عام، أم إذا توفرت ظروف الحياة المعيشية الممتازة، وكذلك البيئة المحفزة للإبداع والاطلاع، هذا ما يحده مالكوم جلادويل المفكر الكندي الشهير في كتابه (الاستثنائيون) الذي عرض فيه العوامل التي تساهم في رفع مستويات النجاح.

ظهر الكتاب أولًا في المركز الأول في قائمة أفضل المبيعات لنيويورك تايمز (The New York Times) والعالم والبريد (The Globe and Mail) مستمسكًا بأعلى الكتب الأكثر مبيعًا لأحد عشر أسبوعًا متتاليًا. تعرض الكتاب للنقد، بأنه ذو طابع شخصي.

يرى مالكوم جلادويل، أنه على الشخص الذي يريد أن يتقن مهارة معينة ويكون خبيرًا بها، عليه أن يمارس تلك المهارة لعشرة آلاف ساعة!

ويؤكد جلادويل أن مكان وتاريخ الميلاد يعدان عاملين فارقين في منظومة النجاح، كذلك ثقافتهن التي ينتمين إليها، وموروثاتهن؛ لذلك فإن معرفتنا المجردة بطبيعة وشخصيات ناجحات لا تكفي، بل يجب معرفة ظروف النشأة، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يرجع النجاح إلى الموهبة أو الذكاء فقط، بل إلى عدة معطيات: كالبيئة المحيطة، والتنشئة الاجتماعية، ودور الموجهين، وعدد ساعات التدريب، وغيرها من المكونات.

في (الاستثنائيون)، يلفت نظرنا جلادويل أن قصص النجاح التي اعتدنا سماعها طوال حياتنا المليئة بالكفاح والعبقرية ليست كما تبدو لنا: إنجازًا فرديًا دون تدخل البيئة والعوامل الخارجية، بل إن العاملين السابقين يوازيان الموهبة الشخصية إن لم تفوقهما، وقابل جلادويل غيتس الذي ينحدر من عائلة غنية؛ حيث قال إن القدرة المتميزة للوصول إلى الكمبيوتر في وقت لم يكن الكمبيوتر فيه منتشر ساعده على النجاح، وكذلك أن بيل غيتس توفرت لديه فرص النجاح فهو عاش في بيئة علمية ممتازة، فوالداه على قدر كبير بمعرفة الكمبيوتر. يقول غيتس: إنه «شخص عالي الذكاء وجذاب ومحترف»، لكن لن تكون قيمته 50 مليون دولار أمريكيًا.

بصرف النظر عن الكتاب والجدل الذي أثارته الأفكار التي طرحها فيه بين مؤيد ومعارض، إلا أن الفكرة تدور عن أثر المثابرة في جعل الفرد متفردًا في تميزه وسابقًا لأقرانه بمراحل، وهذا العنصر واحد من ثلاثة عناصر

كما يذكرها الكاتب، وهي الوراثة، والفرصة، والمثابرة، وبذلك هو يحاول حل شيفرة النجاح من خلال تحليل مكوناته، التي تمازج في خليط عبقري أو خلطة سرية، كما يحلو لبعض أن يصفها.

والملفت أن هذه القاعدة «تواتر» ذكرها على لسان عدد من كبار المدربين العالميين في التنمية البشرية، من أمثال براين تريسي، واستيفن كوفي. فما قصة الـ10000 ساعة؟

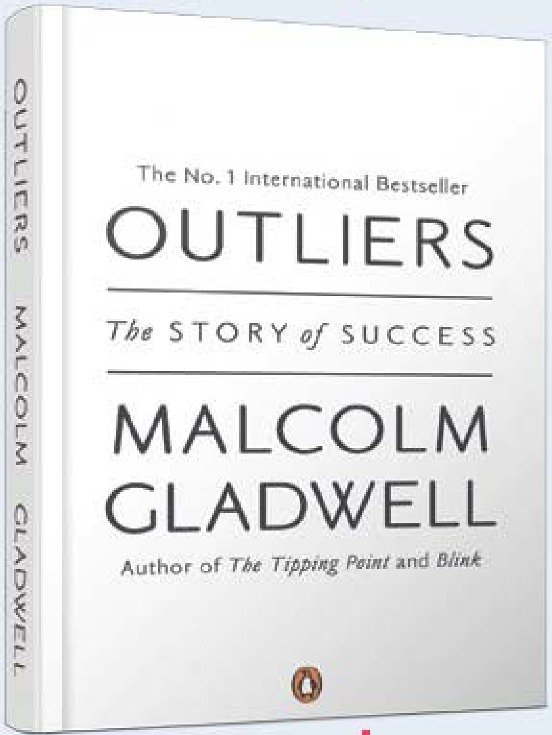
تقول القاعدة: إن كل الأسماء التي لمعت وتميزت بشكل ملفت في مجالها من الرياضيين ورجال الأعمال والتقنيين والفنانين والكتاب وغيرهم، لم يصلوا لتلك المستويات إلا بعد أن أمضوا نحو 10 آلاف ساعة يتعلمون ويمارسون المهارة لساعات ثابتة يوميًّا، وبشكل متواصل حتى تجاوزوا الوقت المشار إليه، وتجاوزوا خلالها كل الأعذار والتبريرات التي عادة ما يتكئ عليها العاديون من البشر حتى يبرروا فشلهم في تحقيق أهدافهم، إن كان لديهم أهداف في الأصل، يؤجل طلب العلم لحين توفر الوقت المناسب.

ويؤكد جلا دويل لقارئيه على أهمية موضوعه باستمرار: أن العبقرية ليست الشيء الوحيد أو الشيء الأهم الذي يحدد نجاح المرء، باستعمال حكايته ليبرر موقفه، فهو يناقش قصة كريستوفر لانغان - وصف بأنه «أذكى رجل في أمريكا»، وكذلك «أذكى رجل في العالم» من قبل وسائل الإعلام -، وهو رجل انتهى به المطاف يعمل في مزرعة أحصنة في منطقة ريفية في ميسسوري برغم أن معدل ذكاءه يعادل (195)، ويدعي جلا دويل أن معدل ذكاء أينشتاين هو (150).

وينوه جلا دويل على أن لانغان لم يصل إلى مستوى عالٍ من النجاح بسبب البيئة التي ترعرع فيها، دون أي شخص في حياة لانغان ودون أي شيء من خلفيته، لتساعده على أخذ الميزة من الهدايا الاستثنائية، وجب عليه أن يجد النجاح بنفسه، يقول جلا دويل في كتابه «لا أحد- ليس المحترفون الرياضيون ولا المبرمجون الأغنياء، ولا حتى العباقرة- قد يستطيعون أبدًا أن يفعلوها لوحدهم».

ويقارن جلا دويل بين لانغان وأوبنهايمر، والد القنبلة الذرية، منوهًا أن كليهما يمتلك القدرات الخارقة اللازمة، ليصلوا إلى النجاح في الحياة، ويناقش جلا دويل أن نمو أوبنهايمر صنع فارقًا كبيرًا في حياته، أوبنهايمر كبر في أحد الأحياء الثرية في مانهاتن، وهو ابن أحد رجال الأعمال الناجح، وقد ارتاد مدرسة فيلدستون للثقافة الأخلاقية (Ethical Culture Fieldston School) في غرب سنترال براك، وقد تلقى طفولة مركزة من التهذيب.

(الاستثنائيون) يناقش أن الفرص أعطت أوبنهايمر الفرصة ليطور الذكاء العملي اللازم للنجاح، ويسوق لنا جلا دويل قصة: لما كان أوبنهايمر طالبًا في جامعة كامبردج، كانت له محاولة فاشلة في تسميم معلمه، وعندما كان على وشك الطرد من الجامعة، استطاع أن يوقف قرار الإدارة، ليكمل دراسته في الجامعة باستعمال مهارات حصل عليها في تربيته التهذيبية.



قبل خاتمة الكتاب، جلا دويل يكتب عن الأصل الفريد لأمه الجاميكية- جويس- سليلة العبيد الأفريقيين، جويس ارتادت كلية جامعية في لندن، حيث قابلت ووقعت في حب غراهام جلا دويل، عالم رياضيات شاب، بعد الانتقال إلى كندا أصبح غراهام بروفيسورًا في الرياضيات وجويس أصبحت كاتبة، مع أن جلا دويل يعترف بطموح وذكاء أمه، لكنه يذكر الفرص التي توفرت لوالديه التي ساعدتهم للحصول على حياة أفضل من الكثير من سلالة الهنود الحمر، ضربة الحظ هذه أدت إلى حصول جلا دويل على منصب ناجح.

وينوه جلا دويل على أن النجاح «ليس فريدًا من نوعه ولا هو غامض، بل هو قاعدة شبكة من الفرص والإرث، بعضهم استحقوها وبعضهم لا، بعضهم كسبوها وبعضهم كانوا محظوظين»، وفي نهاية الكتاب يكتب (الاستثنائيون) لم يكن سيرة ذاتية، لكن يمكنكم أن قرأته كعذر لنجاحي.

مالكولم جلا دويل، مؤلف (الاستثنائيون)، كان صحفيًّا لنشرة واشنطن (The Washington Post) قبل الكتابة لنيويورك (The New Yorker)، وعادة ما تتسم موضوع مقالاته — غير خيالية-، قربه من المواد الأكاديمية مكنته من الكتابة عن التجارب النفسية، والدراسات الاجتماعية.

> في الاستثنائيون، يلفت نظرنا جلادويل أن قصص النجاح التي اعتدنا سماعها طوال حياتنا المليئة بالكفاح والعبقرية ليست كما تبدو لنا، إنجازًا فرديًّا دون تدخل البيئة والعوامل الخارجية

> ينوه جلادويل على أن النجاح «ليس فريدًا من نوعه ولا هو غامض، بل هو قاعدة شبكة من الفرص والإرث، بعضهم استحقوها وبعضهم لا، بعضهم كسبوها وبعضهم كانوا محظوظين»

الأنا المبدعة وتخييل التاريخ



د. شكير فيلالة

باحث وناقد - المغرب

1 - السرد التاريخي داخل النظرية الأدبية

يتأسس الخطاب المتداول حول النوع التاريخي على تأويل الحدود المعيارية المدرجة في التصنيفية الأرسطية، ذلك أن الانتقال المعروف مما هو "شعري"، الذي يقارنه أرسطو بالخطاب الروائي، والذي يطرح التاريخ كمقابل له، يمكن أن نجد له مقارنة في هذا النص المأخوذ من كتاب "فن الشعر" لأرسطو، "واضح... مما قلناه أن مهمة الشاعر الحقيقية ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلاً، بل في رواية ما يمكن أن يقع في الأشياء الممكنة، إما بحسب الاحتمال أو الضرورة، ذلك أن المؤرخ والشاعر لا يختلفان إلا في كون واحد منهما يروي الأحداث شعرًا والآخر يرويها نثرًا، وأن أحدهما يروي الأحداث التي وقعت فعلاً، بينما الآخر يروي الأحداث التي يمكن أن تقع، ولهذا كان الشعر أوفر حظًا من الفلسفة، وأسمى مقامًا من التاريخ، لأن الشعر يروي الكلي بينما التاريخ يروي الجزئي".[1]

لقد تم التمييز في هذا المقطع بين نوعين من الخطاب السردي:

الأول ذو الحقيقة الماضية والمثبتة للموضوع، الثاني ليس حقيقة ما حصل، ولكن ما كان بإمكانه أن يحصل، إنه ليس بالحقيقي لكنه بالممكن، يبقى هذا الإثبات مشوشًا ومبهمًا لو فكرنا في المحاكاة La Mimésis وحدود التقليد أو النسخ، ولو اختزلنا الرواية التاريخية في هاجس التقليد، لسوف نعدُّها ناجمة عن المعادلة المؤسسة لكل ما هو شعري: Poésie= Mimésis، وبصيغة أخرى إنتاج عالم من الكلام والأفعال الممكنة، وليس إعادة إنتاج حالة من الأشياء الحقيقية.(*) فالقصيدة بانتمائها لفعل التشكل لا تستنسخ، بل تخضع لتحليل مختلف عن ذلك الذي يطبق في التاريخ، الذي يشير إلى قضية الحقيقة كمعادل لحقيقة الأفعال.

في حين فإن المسألة ليست نفسها عندما يتعلق الأمر بالقصيدة، فما هو "شعري" يؤسس لنمذجة لازالت تحافظ على تماسكها في التراث الغربي إلى يومنا هذا، ويمكننا أن ندرك ذلك بالرجوع إلى بعض الأفكار التي تم تداولها من طرف بعض المهتمين:

1 - في نسق الحكي: إن الطريقة الوحيدة التي تسمح بعكس الواقع واحتوائه هي القصة، إلا أنه لا وجود لقصص حقيقية فقد نجد الحكاية من جهة، وقد نجد القصص من جهة أخرى، لذلك فـ"سرد" قصص أو روايات أو أساطير، إنما هو خلق للرواية.[3]

2 - في وصف القصة لا يمكن للشاعر أن يتدخل ليغير النهاية السعيدة أو المحزنة، ولكن بإمكانه أن يغير الظروف والخطابات المتعددة (...) كما أن الوصف صفة للقصيدة وهي تناسب الشاعر وليس المؤرخ الذي يحكي الأحداث كما حصلت فعلا في مطابقتها مع الواقع.[4]

3- ما دمنا غير مجبرين على كتابة الأحداث التي تغير حقيقة القصة دون أن تشوهها (....) فإن الأمر يختلف عندما نكتب باعتبارنا شعراء أو مؤرخين، إذ بإمكان الشاعر أن يحكي أو يغني الأشياء ليس كما كانت، ولكن كما كان ينبغي أن تكون، في حين أن المؤرخ يجب أن يكتبها ليس كما يجب أن تكون، ولكن كما حصلت دون إضافة ولا

إزالة أي شيء من الحقيقة المثبتة في الموضوع.[5]

فمن خلال هذه الأفكار يظهر أن القصيدة تحكي عما يجب أن يكون، عبر عرض جيد لتدبير قواعد الخطاب "إن المؤرخ لا يملك الحق في إقصاء هذه النثرية في إنجازه، والمساس بشعريتها. إن عليه أن يحكي ما كان عيانيًّا، دون تأويلات اعتباطية أو تشوهات شعرية، فبعض المجهودات التي يقوم بها المؤرخ ليدرك الحس الباطني لروح العصر والشعب، ولبعض الأحداث التي يصفها ليجعل منها المركز والرابط الذي يصل التفاصيل المحكية ببعضها البعض، لا يكون فيها حرًّا إذ لا يخضع لهذا الهدف الظروف والخاصيات والأحداث، حتى وإن أقصى كل ما هو عرضي وتافه، لكن يتحتم عليه أن يتركها كما وردت، مع كل العرضي الذي فيها، وبكل مظاهرها الاعتباطية (...) لكن المؤرخ حتى وهو يبحث بتوجيه من معارفه الذاتية عن التوصل إلى الدوافع المطلقة للأحداث والذات الإلهية التي يختفي أمامها كل ما هو عرضي ليخرج إلى الوجود الضرورة العميقة والداخلية التي يخضع لها كل شيء، فإنه لا يتوجب عليه التطاول على مجال القصيدة، التي لا تملك وحدها الاختيار والحرية لتحويل المادة الموجودة، وجعلها –ولو ظاهريًّا– مطابقة للحقيقة الداخلية".[6]

من خلال هذا المقطع نسجل وجود معجم آمر وناه، زاجر وحاث يجبر المؤرخ على احترام ظروف الوقائع التاريخية بدقة، دون إهمال ما فيها من محتمل واعتباطي، مما يضع المؤرخ في وضعية مفارقة، مادام أن احترام الأحداث التي يجب أن يلتزم بها كقاعدة قابلة، لأن تعميه عن "الضرورة العميقة" التي توجه موضوعه، وفي المقابل نجد أن هذا الأمر مسموح به للشاعر ليقوم بكتابة متخففة من أعباء التفاصيل المربكة، التي تحجب ذاتيته؛ فالتصنيف الأرسطي صار الإطار القانوني الذي يتم بموجبه التحديد الصارم لحقوق وواجبات كل من الشاعر والمؤرخ.

2 - العلاقة بين التاريخ والأدب

إن العلاقة بين الفن والتاريخ، علاقة قديمة وممتدة في تقاليد الأعمال الإبداعية، خاصة الروائية "ذلك إن كبار المسرحيين الغربيين مثل من القرن السادس عشر والسابع عشر استوحوا موضوعاتهم من روايات الإخباريين. فمن يقرأ اليوم تلك الأعمال، ويقارنها مع أصولها يجدها مادة تاريخية أفرغت في قالب مسرحي حتى عند المسرحيين أنفسهم، (....) فلا تكتسي معنى بشريًّا إلا إذا أفرغت في قوالب فنية شعرية".[7]

فقد ساد الاعتقاد بأن الأحداث في تواليها لا تحمل أي دلالة وقيمة رمزية ما لم يتم إدراجها ضمن نسيج فني شعري يمنحها بعدًا بشريًّا "المؤرخ يستعمل كل الأساليب البلاغية من تقديم وتأخير وإجمال وتفريع وإيجاز وإطناب إلخ... بل يدعوه المقام إلى محاذاة الواقعي بالمحتمل، والقطعي بالظني، إذ يبدو الواقع أحيانًا مستحيلاً أثناء عملية التألفة"[8]، فالوقائع مستحيلة ومعقدة في أثناء عملية التأليف؛ مما يجعل المؤرخ يستعمل أساليب الأديب في انتقاء الكلمة والجملة البليغة بصفته يعمد إلى الاستمالة والتأثير، إلا أن ما يزيد فيه عن الأديب هو الدور التهذيبي." يعتمد الشاعر الممكن، كل الممكن، لأن هدفه الاستمالة والتأثير، أما المؤرخ فإنه يقتصر على الواقع المحقق لأن هدفه هو التهذيب لا يكون باعتماد غير الواقع".[9]

وإذا كان الأدب التاريخي لا تمتاح مواده الأساسية من ظروف وشخصيات التاريخ، ومما هو محدد في السياق التاريخي، فإن اختلاف الأدب مع التاريخ يكون في هيمنة الخواص الإبداعية فيه، أما اختلافه مع الأدب، فيتمثل في كون الأحداث والسمات محددة فيه سلفًا. فالأدب التاريخي يعني الصراع بين "الأنا" التي تطمح إلى التعبير عن ذاتها بحرية، وبين تحديدات مادة التاريخ وإلزاماتها، بحيث تطمح من خلالها "الأنا" المبدعة إلى التعبير عن نشاطها. ومن ثم فالمسألة متصلة بإبراز وجوه اختلاف أنماط تنظيم "الصراع" بين حرية "الأنا" و"إكراهات" التاريخ، لذلك تعد الرواية التاريخية في حد ذاتها وكل ما يرتبط بها عالماً محملاً بتناقض باطني، لهذا فهي شيء آخر غير المحاولة المكررة ألف مرة لإدماج حبكة مبتكرة في إطار صنعة المؤرشف المعني بزخارف التاريخ.

كما أن التعريفات الشائعة للرواية التاريخية بصفتها نوعًا "هجينا" أو"غير شرعي" يكمن مصدرها في تقسيم المعارف الاستدلالية، فهذا النوع الروائي يستمد علة وجوده من إمحاء حده المحفوظ من المزج بين علاقة الأحداث المثبتة والمجدولة، وبين بيانات لا يمكن إحالتها على مرجع ما، من ثم عُدت الرواية التاريخية لوقت طويل نتاج اقتران ضد الطبيعة، "الرواية التاريخية هي نوع "هجين"، يعمل الكاتب والباحث أحيانًا على التدبير السيئ له".[10]

إن هذا التناقض الباطني الذي يحمله الأدب التاريخي يقود إلى نوع فني مبهم يقع بين التاريخ والرواية، يدعي خدمة المعرفة بقدر ما يخدم التجربة المعيشة، ويخدم العلم بقدر ما يخدم الخيال الشعري؛ وهذا يطرح مشكلاً في حد ذاته "إن مشكل الصلات بين الرواية والتاريخ ليس– على مستوى النظرية الشعرية– إلا مظهرًا خاصًّا من مشكل عام، وهو المتعلق بالصلات بين القصيدة والواقع"،[11] وقد تناول "إثيان مزينك Etienne Mazingue "هذا الأمر من خلال دراسة رواية Aramena" Anton ulruch"، إذ خلص إلى أن هذه الرواية تقوم على "التوفيق بين الخيال الأصلي والمعطيات التاريخية".[12] وأعقب ذلك بتحليل مفصل للتقنية الخاصة التي بدأ الروائي بتنفيذها ليتحقق"وجود الخيالي متوافقًا مع التاريخي، عبر البناء المنطقي لجينالوجية روائية تعيد تجميع معطيات التوراتية، وإبداعات روائية في نسق واحد"[13]

ويعد "إثيان مزينك Etienne Mazingue " أن هذه الرواية ترقى إلى أفضل الأعمال، نظرًا لأن "مشكل صلات الرواية بالتاريخ تتلقى فيها الحلول الأكثر إعدادًا والأكثر جرأة في الآن نفسه. وهي حلول تتعلق بالحدث والشخصيات: فبالنسبة للحدث تستوفي الرواية عدة خطاطات منها ما هو خاصة بـ"التماس أو التداخل"، ومنها ما هو متعلق بـ"الدمج"، ومنها ما يهم "التكامل" أيضًا"[14]. إن هذه الخاصية الأخيرة في نظره متلائمة مع رواية Anton ulruch حيث يقول: أن "تداخل الخيال الروائي والأحداث التاريخية في حاضر الرواية بمستويات متعددة".[15]

ويرى أن الإطار الزمني والإحداثيات المكانية في تقنية التكامل هذه لها دور أساسي في التحليل المكرس للشخصيات، ويؤكد على أن هاجس "التماس" و"التكامل" هما اللذان ضمنا للأثر الفني تميزه الاستثنائي وأصالته في الرواية.

وفي كتاب Guy Rosa "Quatre vingt treize ou la critique du roman" historique"[16] استنتجت الناقدة بأن الروائي بدل جهدًا كبيرًا من أجل ألا تظهر الحكاية التاريخية إجراء تقويضيًّا للحبكة، أو استغلالاً للنواقص التي تسم المادة التاريخية في السياق السردي، لذلك ترى بأن الروائي عمل من أجل "أن يكون غرض التاريخ مندرجًا ضمن عوالم الخيال وممكناته".[17] ويمنع حضور سارد وحيد يشغل الوضعية نفسها بالنسبة للسلسلتين الوقائعيتين (التاريخية والابتكارية) والتمييز بين "الأشكال نفسها التي تم تطبيقها في الحقيقتين، بما فيها الوصف، والحوارات، والخطابات، وتوحيد المحتويات، وتناول الشخصيات في تحديداتها التاريخية – السياسية الوحيدة".[18] غير أنها ترى بأن توحيد نسقي الحقيقة ليس كليًّا، إذ "أن العلاقة بين الخيال والتاريخ ليس في اختزال أحدهما للآخر، ولا في التعديل المتبادل، ولا في التناقض الجزئي، وإنما في التقارب المتقطع الذي عليه إقامة تفاوت بين مستويي الرواية: الواحد متعلق بالتاريخ والآخر بالحبكة".[19]

وتضيف أيضًا بأن هذا "التفاوت" يعني "التقارب والتفاوت الملاحظين بين تصوير التاريخ وسرد التخييل اللذين يشهدان على استحالة تموقع موضوع التاريخ في مكان واحد، وإصدار حكم وحيد عليه".[20]

أماJean Mesnard فقد عدّ أن موهبة Mme de Lafayette الروائية وفضلها، يكمنان في كون عملها الروائي قام برتق الصدع بين الخيال الخالص والتاريخ الخالص، على الرغم من أن عمل الترصيع الذي كان يجب أن تنكب عليه لم يكن دون بعض التفاوتات، مما خلف بعض المساوئ في وصل العنصرين باستمرار. لقد كان مبدؤها أن تلج خيال التاريخ ما أمكن وذلك عبر تأويل المعطيات التاريخية إلى المعنى الأكثر ملائمة

لمتطلبات الخيال، فانهمكت في استخراج قياس وحدات الزمن من التاريخ في مسار السرد، ثم ربط اللحظات المتوالية للحبكة العاطفية بأحداث التاريخ الذي يأتي كل مرة ليزودها بطابع الحقيقي. "إذا كان المعطى الروائي لا يصطبغ بصبغة تاريخية، فبالمقابل يصطبغ المعطى التاريخي بصبغة روائية، وليس هنا أي تلوين سياسي كي لا يكون الموضوع مفارقًا بالنسبة للأسلوب الروائي (...) إنها لا تحتفظ من الماضي إلا بما يناسب روايتها (...) من هنا تأتي وحدة أسلوب العمل الأدبي الذي تدخل فيه عناصر متعددة". [21]

إذن، تصبح الرواية هي التاريخ، لكن شريطة أن تهمل ما يجعلها رواية، إنه شكل من أشكال التمثيل، لكن هذا الإجراء في الاستخلاص يثير الحيرة، حيث لن يكون ملائمًا لتعميق الصلة بالموضوع، وإنما فقط عملية الشرح هي التي تظهر منطوق التاريخ أو منطوق الرواية بمظهر أو بآخر، خاصة إذا اعتبرنا أن المحتويات منفصلة عن الأشكال التي تتمظهر فيها، وهذه العملية هي تطبيق مدرسي للدراسات التي تفصل الشكل عن المحتوى.

إن المفارقة في علاقة التاريخ بالأدب تبقى قائمة، "هناك تناقض واضح بين التاريخ والشعر: إما أن يتطفل الأول على الثاني، ويستعير منه ما يكتسب به مغزى دائمًا وقيمة أبدية، وإما يفقد الثاني كل دور تربوي وتهذيبي بعد ظهور الأول". [22] إذًا، لقد خصص للشاعر الغاية الموضوعية التي للمؤرخ، وذلك من خلال التصوير الشعري للتاريخ؛ ولبلوغ الشاعر هذه الغاية عليه أن يستسلم لمقتضى الصدق التاريخي، إذ لابد أن يضع كل اهتمامه في خدمة تقصي الحقيقة التاريخية وتصويرها والانعكاس الصادق للأشياء التي وقعت حقًا.(*)

كما يكمن الفرق بين المؤرخ والأديب، في كون الأول يصف سلسلة من الوقائع تمتلك خطابًا فعليًا، والثاني ينتج خطابًا خياليًا، والمؤرخ مأخوذ بالوقائع المتغيرة، ولا يلتفت إلى صياغتها بشكل أساسي، على خلاف الأديب المأسور ببديع اللغة في المقام الأول، تليها عملية النظر في الوقائع؛ إلا أنهما يلتقيان في استقراء وضع الإنسان من الوقائع. "تختلط الرواية بالتاريخ إلى حدود التماهي، فكلاهما يقصد السببية الاجتماعية، التي أنتجت وقائع معينة ومنعت وقائع أخرى من الظهور، وكلاهما يقرأ وضع الإنسان والوقائع التي ولدت من الوقائع التي جاءت مجهضة". [23]

فهذه ليست دعوة إلى تقليص الفروق بين التاريخي والروائي، ولكن هو تقريب إلى ما هو متماثل بوصفه: "أن كل رواية هي رواية تاريخية لأنها أثر لإنسان عاش أو يعيش في حقبة زمنية معينة، لأنه يتوجه بها إلى أشخاص يوجدون في وضع تاريخي. لكن كل الروايات ليست تاريخية بالشكل نفسه". [24]

لكن برغم هذا التماهي في المقصدية يبقى الاختلاف قائمًا، ذلك أن قصدية التاريخ هي بحثه عن الواقعي، بوصفه الأشياء التي سبق أن حدثت، في حين أن قصدية الأدب تكمن في إعادة وصفه للواقعي من حيث إمكانية وجود الأشياء التي قد تحدث أو كان بالإمكان أن تحدث، لأن عوالم النص الأدبي وخواصه التشكيلية تطرح مسألة "الأدبية" كخاصية مميزة للنص الأدبي عن غيره، خاصة، وأن الأعمال المندرجة ضمن الحركة الظاهراتية، وبالضبط مع "رومان انجاردن R. Ingarden" وآخرين من أمثال" ميللر Muller G." و"هيجل F.Hedel " و"ستنزال F.Stanzel " و"لامرت E.Lammert" إلخ... قد أفرزت مقاربات من قبيل العلاقات بين الزمن والتاريخ المروي، وزمن القص أو أشكال تدخل السارد في الرواية وغيرها... فأسهمت دراساتهم في بلورة مقاربة أكثر عقلانية للموضوع الأدبي، إذ عينت جهازًا منهجيًا جديدًا ومنتجًا، وفي الآن نفسه حجمت مسألة عبقرية المفسر الذي كان المصدر الأوحد للمعنى والدلالة.(*)

3 - السرد التاريخي والسرد الأدبي أوجه التلاقي والافتراق

يقترن التاريخ مع السرد في وحدة لا انفصام فيها، حتى كأن التاريخ مهما اكتسب خاصية "العلمية" لا يبقى إلا سردية خاصة أو مميزة يمكننا تسميتها بالسردية التاريخية، وتلعب اللغة دورًا حاسمًا في هذه السردية، إذ من البديهي القول: إننا لم نستطع ولن نستطيع أن نكتب أو نروي أي تاريخ ما دون اللغة، لتغدو المدونات أو المتون التاريخية برمتها سرديات تتحول في عملية معقدة عبر الزمن إلى حقائق يعتقد الوعي الجماعي العام أنها تمت بالفعل؛ ويشكل التخييل في هذا المقام عنصرًا أساسيًا مهيمنًا على أي سردية تاريخية مهما كان جنسها: مكتوبة أو شفهية.

وإذا كانت السردية تنطوي بطبيعتها على العنصر التخييلي، بحكم أنها تتم بواسطة اللغة، فإن هذا العنصر يحتل منزلة العنصر "الحاسم" في مجمل العناصر الأخرى من السردية التاريخية، ويعرف "بول ريكور Paul Ricœur " في هذا الإطار السرد التاريخي "نوعًا من الأمثولة على الزمانية، لكنها أمثولة من نوع خاص، هو تحديدًا، الأمثولة الحقيقية"[25] وتكتسي الأحداث في هذه الأمثولة مظهر عناصر القصص المعيشة ذات البداية والوسط والنهاية، في حين أن التاريخ (الزمن) مجرد تسلسل. كما أن الخطاب السردي لا يعكس فقط أو يدون تدوينًا سلبيًا عالمًا مصنوعًا سلفًا، بل ينشئ المادة المعطاة في الإدراك والتأمل ويطوعها ليخلق منها شيئًا جديدًا.

من ثم فالخطاب السردي خطاب أدائي أكثر مما هو يقيني، مما يخول له إعادة تصوير الزمن، وقول الواقع لكن باستهداف قصدي لأفق واقع جديد يمكن أن نسميه عالمًا، يتخلل النص، وهو عالم الفعل الواقعي اليقيني، لكن مع إضفاء تصور جديد عليه فيحول صورته. بذلك، ينطوي السرد سواء أكان أسطورة أم قصة أو رواية على أفقين: أفق التجربة الماثلة في حاضر النص بفعل الإمكانات الإنجازية للروائي، وأفق يتجه نحو الماضي في محاولة لفهمه وإعادة ترتيبه وتنظيمه، ولا بد أن يكتسب هذا الأخير الصياغة التصويرية التي تنقل الأحداث إلى نظام زمني فعلي وأفق توقع المستقبلي يحقق به النص السردي، بمقتضى تقاليد النوع نفسه، أحلامه وتصوراته، ويوكل للمتلقي أو القارئ مهمة تأويله "إن النص لا ينقل الواقع مباشرة، بل ينقله بحسب مقتضيات سردية توجهها أعراف النوع "النص إذن، يقول الواقع الماضي ولكن عن طريق تصريحه بعالم آخر ممكن". [26]

إن ما يعارض السرد التاريخي بالنص الأدبي لا نعثر عليه في البنيات السردية كما هي، ولكن يمكن أن نحدده من خلال مسألة الحقيقة، ذلك أن السرد التاريخي ليس حقيقيًا بالمعنى الذي يتم فيه استرجاع الأشياء كما وقعت في الماضي، لأن هذا الفعل محكوم بإكراهات الذاكرة التي تفقد في صيرورة التذكر تفاصيل ووقائع عشناها، خاصة أن عملية الاستدعاء تتم بشكل يمكن أن تحكى معه الوقائع بأكثر من طريقة؛ فالتاريخ لا يكتب مرة واحدة، بل هو مادة قد تكتب مئات المرات، لأنه ليس مادة مغلقة لها مقدمات ولها نتائج ثابتة لا تختلف من شخص إلى آخر. أو بمعنى آخر إنها تقوم على حادث حدث، وكاتب كتب، بل هي مادة منفتحة ومتحركة لا يدخل في تركيبها الحدث في حد ذاته، بل ونظرة السارد أيضًا لهذا التاريخ، فالسارد ليس بآلة تصوير تلتقط الصورة كما وقعت بكل دقائقها، إنه ينقل الحدث ممزوجًا بشعوره وإحساسه ورأيه، وهو مخلص فيما يفعل، إلا أن إخلاصه يبقى من وجهة نظره الذاتية للوقائع، لا من وجهة نظر الحقيقة والواقع الموضوعي. كما أن سرد واقعة يفرض شد الماضي إلى الحاضر، مما يجعل التاريخ علاقة بحدين: سرد الأشياء بحسب خطط وأشكال مختلفة ولا نهائية، خاصة أن التاريخ حكاية ماض لم يكن حاضرًا يومًا ما، إنه محتمل أن يكون معروفًا بسيناريوهات كثيرة ومتنوعة لا تتطابق مع أي سيناريو آخر، و مماثلة السرد التاريخي "بالحقيقة" هو نوع من الوقوع ضحية وهم المعنى المشترك، وهو بالتأكيد معنى ملتبس.

من هنا يتساءل بارث Barthes "هل من المشروع دائمًا مناظرة الحكي التخييلي بالحكي التاريخي (...) فسرد الأحداث الماضية خاضع بشكل عام في ثقافتنا منذ الإغريق إلى التصديق الإجباري بـ"الواقع" المبرر بمبادئ الاستعراض "العقلي"، فهذا السرد يختلف حقًا ببعض الملامح الخاصة، والوثيقة الصلة بالسرد الخيالي مثلما نجده في الملحمة أو الرواية أو الدراما". [27] ليخلص إلى أن السرد التاريخي "مثل أي خطاب يدعي "الواقعية" يعرف خطاطة دلالية بحدين: المرجع والدلالة (...) بمعنى آخر، في التاريخ لا يكون "الموضوعي" و"الواقعي"

دالاً غير مصوغ، إذ إن الخطاب التاريخي لا يتبع الواقع، بل يدل عليه فقط".[28] وهذه الدلالة تتم عن طريق مرجع ثانوي "الأدب والتاريخ يتحدثان بطريقة غير مباشرة عن التجارب المنفلتة للزمانية من خلال وبواسطة دول تنتمي إلى أنظمة وجود مختلفة، وتكشف من جهة عن أحداث واقعية ومن جهة ثانية عن أحداث متخيلة".[29] لذلك فالسرد التاريخي يتسم بجرأة اقتحام عالم التخييل مما دعا "مارو Marrou" إلى القول بأن "الرواية التاريخية في تقديمها للماضي لا ترتكز على معرفة صحيحة، بل يمتزج فيها الطوباوي بالخيالي".[30]

وتقديم هذا الماضي يتم فيه إعادة تشكيل التاريخ بمعمارية معينة، تتداخل فيها عناصر كثيرة وحيل أسلوبية وتنميقات بلاغية، هي فن للإقناع يتم بخطاب يصوغه سارد التاريخ، لأن "أسلوب واستيهامات الكاتب هي فن للإقناع بخطابه، وجعل القارئ ينسى ما لم يقله الكاتب (...) وجعله يصدق بأن ما يقوله هو سيناريو ما وقع مستعملاً في ذلك كل حيل الحكي".[31]

ويحدد "ميشال سارتو Michel Certeau" في فصل معنون بـ"العملية الأيسطوغرافية" ضمن كتابه "الكتابة والتاريخ"[32] بعض هذه الحيل: إن السرد يقلب الصيرورة الواقعية للبحث والتقصي، فيمحي المساحات المحفورة من جراء البحث ويعوضها بصيرورات دون انكسارات أو غيابات، إنه يمثل المسيرات التاريخية تحت مظاهر سلسلة متتالية من الوحدات التصويرية واضعًا زمن الأشياء ضمن خطية مشتركة محافظة على المعنى نفسه في مختلف أشكاله. فعن طريق التقنيات الخاصة بالكتابة يمكن وضع التاريخ خارج مجال الخطاب العلمي، لموضعته في مجال التخييل، الشيء الذي سيتم معه الدخول في جدل مع التاريخانية الجديدة المابعد حداثية، والتي يعد "هايدن وايت Hayden White" أحد أبرز أقطابها، الذي يعد السرود بقدر ما هي تاريخية فهي "تخيلات فعلية بمحتويات مختلفة موجودة سلفا في أشكال مشتركة مع نظيراتها الأدبية أكثر منها مع العلمية".[33]

كما أن السرد التأريخي يقوم باصطحاب التاريخ المنسي والمكبوت إلى منطقة الأسرة الأدبية، وذلك بوضعه ضمن حبكة. فالمؤرخون يحكون حبكات، وهذه الحبكات لا تحاكي تسلسل الواقع التاريخي، لكن تقيم علاقة مجازية مع النماذج الأدبية الأصيلة، وتؤدي وظيفة الوساطة بين الأحداث المتعددة والقصة التي توحدها الحبكات التي تعطي الأولوية للتوافق على التضارب، والأولوية للتنافس بين التعاقب والصياغة التصويرية "الحبكة بوصفها المكون السردي المركزي ليست سوى تأليف إبداعي للزمن، يستخرج من التشعب العشوائي للتجارب كلا زمنيًا موحدًا".[34]

لأجل ذلك يشتمل التفسير التاريخي من طرف المؤرخ على ترجمة هذا التوفيق بين التضاربات، وعلى تفهم القارئ للتداخل بين السرد التاريخي والسرد الأدبي، وكون المؤرخ لا ينتج معرفة جديدة، بل يقوم بإعادة الإنتاج والتعرف على أشكال قديمة يطلق عليها بلا تمييز (تخيلات أو أساطير). لذلك فان ما يتم هو "تخييل التاريخ Fictionaliser l'histoire".

لكن يبقى المؤرخ في عملية بناء تخييل تاريخي متأرجحًا بين الذات والموضوع، بين "ادعاء الواقع" و"التخييل الأدبي". فادعاء الواقع تضطلع به ذات واقعية، وهي الذات التي تنفذه، وخصوصية هذا الواقع المدعى خصوصية كونية، لأنه يبني من مادة الألفاظ، مادة موضوعة في (الهنا والآن)، واقع يقوم على موضوع وفعل وحكم.

إن البنية ذات/موضوع هي نفسها البنية التي تحدد الخطاب العلمي كما تحدد التواصل العادي، وفي الحالتين تقدم مادة الادعاء مثل مصدر وفعل الادعاء، كمن عليه ضمان صدقها، وللالتزام بهذه الضمانة يتم الاعتماد على تجربة المدعي، وعلى معرفته بالعالم لتأكيد هذا الشيء أو ذاك، في حين نجد أنه في الخطاب التخييلي لا توجد أي ضمانات نظرًا لكون الكاتب يمحي أمام أنا أصل- واقعي، Je-Origine- كما هو وارد مع "Hambourger kate"- المتموضعة في النص، ذلك أن الشخوص حيث تكمن أهمية التخييل، تظهر شاعرة ومفكرة وفاعلة ومنفعلة.

كما أنه بالإمكان تلمس التخييل الأدبي في خطابات الحقيقة كما هو موجود عليه الأمر في التاريخ، ذلك أن السرد التاريخي المحمل بالحقيقي -تجاوزًا- والمزود بمجموعة من المعلومات التي يضمنها متلق حقيقي بإمكانه أن يتقاطع مع العالم الممكن للنص الخيالي. بهذا المعنى ينتمي السرد التاريخي إلى الأسرة الأدبية التخيلية، والتي ليست مجرد نتاج للوهم "إن الأخيلة لا تقل واقعية، بل لعلها أكثر واقعية من الأشياء التي تتمثلها، إذ يتضمن العمل الخيالي عالمًا كاملاً معروضًا أمامنا. يكتف الواقع ويجمع ملامحه الجوهرية في بنية مركزة (....) تقول الأخيلة الواقع الإنساني باشتراعها عالمًا ممكنًا يستطيع أن يتقاطع مع عالم القارئ ويحوله".[35]

إذن، فالسرد التاريخي كما السرد الأدبي يقول الواقع، لكن مع التصريح بعالم آخر ممكن ادعاؤه أو افتعاله، وضمانته الوحيدة هي الارتباك الذي قد يحدثه في مدونة القارئ ومرجعه الثقافي من خلال تقنيات الكتابة الروائية وأساليب تشكلها المتنوعة، التي تخلق عالمًا مماثلاً لعالم التجربة الثقافية التي عند القارئ، وذلك باقتطاعها عناصر من الحقيقة والزج بها بشكل فني في عالم التخييل ليحصل التماهي المنتج لفعل التصديق.

هوامش وإحالات:

1 - أرسطو طاليس: فن الشعر، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة 2 ،1973، ص:26.
× -لقد تم تناول هذا الموضوع بخاصة في الفصل الأول من كتاب: 59-Temps et récit. ed Seuil.p58
.9-George Blin : Stendal et les problèmes du roman. José corti Paris. P. 82-
3-G. PH. Harsdörfer: vurnberg. 1650. cité par Etienne Mazingue. Anton Ulrich. un prince
.romancier du XVIIIe siècle. II. P : 616
.Servantes : Don Quichotte. Partie II Ch. III. P 544 - 4
.Hegel: Esthétique. La poésie. 1. Aubier. Montaigne. 1965. PP : 55 – 57 - 5
6 - عبد الله العروي: مفهوم التاريخ - ج. 1، الألفاظ والمذاهب. ط3، 1997 المركز الثقافي العربي ص: 49.
-7 المصدر نفسه: ص 50
8 - المصدر نفسه :ص50.
.Florence Mothe : citée par Jacques Cellard. le monde. 25 Novembre 1983 - 9
G. PH. Harsdörfer: vurnberg. 1650. cité par Etienne Mazingue. Anton Ulrich. un prince - 10
.romancier du XVIIIe siècle. II(Op. Cit.P: 616
G. PH. Harsdörfer: vurnberg. 1650. cité par Etienne Mazingue. Anton Ulrich. un prince - 11
.romancier du XVIIIe siècle. I(op. Cit)I P : 630
G. PH. Harsdörfer: vurnberg. 1650. cité par Etienne Mazingue. Anton Ulrich. un prince - 12
.romancier du XVIIIe siècle. II(Op Cit) P: 636
G. PH. Harsdörfer: vurnberg. 1650. cité par Etienne Mazingue. Anton Ulrich. un prince - 13
romancier du XVIIIe siècle. II(Op Cit) P: 658
.Op Cit) P: 643) - 14
.En revue d'histoire littéraire de la France ; Mars- juin 1975 voire Introduction - 15
G. PH. Harsdörfer: vurnberg. 1650. cité par Etienne Mazingue. Anton Ulrich. un prince - 16
.romancier du XVIIIe siède. II(Op Cit) P: 329
17 - En revue d'histoire littéraire de la France. Mars- juin 1975 (op. Cit). P : 333
18- (op. Cit) P : 337
19 - (op. Cit) P : 341.
.Jean Mesnard: Introduction à la Princesse de Clèves. colle de l'imprimerie nationale. Paris - 20
P :9 -57 – 1980
21 - عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب ج1، ط3، 1997 المركز الثقافي العربي، ص: 48.
× - ما يستنتج من مذهب أصحاب هذا الطرح هو أنه لابد من إعادة النظر في التعامل مع حرية الشاعر بوصفها حقًا طبيعيًا غير قابل للتقادم، وذلك بمنحه الغاية الموضوعية التي للمؤرخ.
22 - فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى1999ص: 179.
23 - فيصل دراج: المصدر نفسه، ص: 179.
× - إن هذا المسعى يدعونا إلى التفكير في الاتجاهات النظرية التي ظهرت في فرنسا بتأثير من الشكلانيين الروس، والمنتظمة حول البنيوية والسيميائيات، التي ارتبطت بازدهار علوم اللغة.
24 - ديفيد وود: الوجود والزمان والسرد. فلسفة بول ريكور ترجمة وتقديم سعيد الغانمي الطبعة الأولى، 1999 المركز الثقافي العربي ص: 188.
25 - المصدر نفسه، ص: 31.
26 - R. Barthes : le Discours de l'histoire. In informations sur les sciences sociales. Unesco VI – 4 août. p. 69 P 67.
27 - (op. Cit) p. 69 73 – 74.
هايدن وايت: "ميتافيزيقا السردية". الزمان والرمز وفلسفة التاريخ عند ريكور، نقلاً عن الوجود والزمان والسرد مرجع سابق ص: 196 -28
29 - Marrou H.I : De la connaissance historique. Seuil; P : 87
30 - Magazine littéraire La nouvelle histoire N°123 avril 1997 P : 28
31 - Michel de certeau : L'écriture de l'histoire – Gallimard 1975.
32 - Hayden White: "The Historical text as literary artifact.. Clio III/3. 1974. P 102.
33 - ديفيد وود: الوجود والزمن والسرد، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1999، ص 69.
34 - المصدر نفسه ص: 30-31.
35 - المصدر نفسه ص: 30-31.



التعريب للمعارف... والتقدم الحضاري



لواء أ.د. عبد المقصود حجو

أستاذ زائر بالجامعات المصرية والعربية - مصر

1- مقدمة

أتى على العالم بأسره حينًا - من الدهر - كانت اللغة العربية هي أم اللغات وعمدة الحديث، لما لها من تميز وازدهار بما تشمله من العديد من العلوم والثقافة في شتى ميادين المعرفة والمعلومات، مثل علوم الدين والإنسانيات والعلوم النظرية والأساسية والتطبيقية وغيرها.

ونبغ العلماء العرب - بفضل العربية - في الكثير من العلوم مثل ابن سينا فى الطب وابن حيان في الكيمياء وابن الهيثم في الفيزياء والخوارزمي فى الرياضيات.

بل امتد الازدهار العلمي لعلوم الثقافة والفن والآداب مثل الموسيقى فبرع الفارابي، والجغرافيا فكانت أول خريطة ترسم للعالم آنذاك بواسطة الإدريسي.

وكانت اللغة هي الدرع الواقي والحافظ لمختلف العلوم والثقافات.

فكيف تأتي - اليوم - الدعوات بتركها واللجوء للغات الأجنبية، بل والتقليل من شأنها وتعليم النشء اللغات الأخرى.

وتمتاز - العربية - دون سواها بغزارة معانيها وغنى ألفاظها ودلالاتها والجمل المكونة من حروفها وقدرتها الفائقة التي لا تدانيها لغة أخرى على التعبير الوجيز حروفًا والغزير معنى وإيضاحًا.

ونقطة أخرى وهي التشكيل (فتحة، كسرة، ضمة، سكون) فتنفرد العربية دون غيرها من اللغات بهذه الميزة، فتعطي الكلمة الواحدة أكثر من معان متعددة وكثيرة مما يثري اللغة إثراء عظيمًا.

وحري بالعرب وهم على أبواب الألفية الثالثة أن يهتموا بلغتهم العربية، ليعيدوا لها مجدها الغابر، ويصلوا بها للتقدم المنشود.

إن العالم بدخوله الألفية الثالثة سوف يشهد قفزات علمية هائلة لم تكن في الحسبان، والدارس للاكتشافات العلمية يرى أن البحوث والابتكارات خلال القرن الماضي فقط تبلغ مئات أو آلاف المرات البحوث والاكتشافات في القرون الماضية مجتمعة، منذ نشأة الخليقة على الأرض.

وتلعب اللغة - دورًا محوريًا ومتعاظمًا - في حركة التقدم التكنولوجي، لأنها المنوط بها التدريس والتعليم ونقل العلوم والمعرفة وحفظها.

ولقد ازدهرت في العصور الإسلامية الأولى - الدولة الأموية والعباسية - وكانت التراجم والتأليف من الحضارات الأخرى مثل اليونانية والمصرية القديمة والفارسية في أزهى أوج عهودها.

ولقد أمر الخليفة العباسي - المأمون - بأن من يترجم كتابًا تكون مكافأته قدر وزنه ذهبًا، ويغدق عليه الأموال

والعطايا.

وإنشاء المكتبات الزاهرة والزاخرة بالعلوم النظرية والتطبيقية فى بغداد ودمشق والقاهرة، كانت خير شاهد على الحضارة الإسلامية.

بل إن الرشيد – الخليفة العباسي – أهدى لأحد ملوك الفرنجة ساعة، فكم كانت دهشة واستغراب وتعجب الغرب آنذاك من دقة صناعة الساعة.

ولذا أفرزت هذه الحضارة العلماء الأفذاذ مثل ابن سينا في الطب، وابن حيان فى الكيمياء، وابن الهيثم في الفيزياء، والخوارزمي في الرياضيات، وغيرهم كثير .

ويعترف المؤرخ البريطاني – جوستاف لوبون – أنه لولا الحضارة الإسلامية ما كانت الحضارة الأوربية الحديثة، وإن فضل العرب على أوروبا لا ينكره منصف وعادل.

2 - التعريب ضرورة حتمية

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى – كتابه الكريم – باللغة العربية، وهل هناك تشريف للغة أكبر وأسمى من هذا التكريم.

وكيف لا يكون – للعربية – هذا القدر الكبير، وهى تزخر بالكثير من المفردات والمصطلحات والترادفات التي لا تملكها سواها من اللغات.

ومثال ذلك لفظ (ولد، صبي، غلام، فتى، شاب)، فهذا يطلق على الذكر من بني الإنسان في المراحل العمرية والطبيعية، وتلك من مزايا العربية وتتفرد به.

ولقد قدمت العربية العلم والعلماء الأفذاذ للحضارة الإنسانية في مختلف العلوم الأساسية والطبيعية والتطبيقية والهندسية والطبية والإنسانية.

وكانت وما زالت كتب العلماء العرب فى الهندسة والطب خير رافد للحضارة الأوربية المعاصرة والحديثة.

وكان أسلوب التعليم الطبيعي، أن يدرس – طالبو العلم – اللغة العربية أولاً، ثم يحفظوا القرآن الكريم، ثم يتخصصوا بعد ذلك في أي من فروع العلم، وينبغوا فيه، ويؤلفوا المؤلفات العلمية والبحوث العملية قبل أن تطبق في مناحي الحياة المختلفة.

ولما كان للغة مثل هذه الأهمية أنشئ لها علمًا مستقلاً بها سُمّي بعلم اللغويات – النحو لضبط اللغة وعدم اللحن فيها وقد كان العيب – كل العيب – أن يخطئ العربي فى نطق كلمة، فيرفع المنصوب فيعاد تعليمه من جديد، وتلك لا تتاح إلا للغة العربية.

وفى هذا يقول شاعر النيل –حافظ إبراهيم:

وسعت كتاب الله لفظًا وآية
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف تضيق اليوم عن وصف
آلة وتصنيف أسماء لمخترعات

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة الآية 31.

بالقطع كانت هذه الأسماء عربية خالصة، كما يوحي ظاهر الآية الكريمة.

وتحارب العربية الآن في عقر دارها حربًا ضروسًا لا هوادة فيها، والعجيب أن الحرب ليست من الغرباء بل من أهلها.

فالناظر لنشاطاتنا الحياتية يجد العجب العجاب من أسماء بالعربية تكتب باللغات الأجنبية الخالصة، بل إن لغة التخاطب بين أفراد المجتمع أصبح يلوكها الكثير من الألفاظ الأجنبية الدخيلة، حتى ليتهيأ إليك أنك تمشي فى شوارع ومدن أجنبية لا عربية.

أهو الغزو الثقافي ؟

لا بل هو التقليد الأعمى.

وأذكر هل يستطيع أي إنسان إنجليزي أن يتفوه داخل بلده بلغة غير الإنجليزية.

لا.. بل قد يحاسب حسابًا عسيرًا..

وحسنًا فعلت الإمارات العربية، حينما أصدرت مرسومًا بتغيير الكلمات الأجنبية لكلمات عربية بحتة.

ولقد حاول أحد الوزراء السابقين فى مصر منذ عهد قريب أن يعرب جميع الكلمات الأجنبية فى وزارته، إلا أن هذه الجهود – للأسف – لم تستمر، وانتهت بخروجه من الوزارة بل إن دولة صغيرة بجوارنا لا يعدو تعدادها على حي من أحياء القاهرة تتمسك بالتكلم بلغتها برغم تعدادهم المحدود ولا توجد دول أخرى تتكلم بهذه اللغة سواها.

فكيف بالعرب من المحيط إلى الخليج، وهناك أيضًا أقوام آخرون يتكلمون العربية، حيث إن دينهم الإسلامي يتعدى تعدادهم المليار نسمة.

إن الاهتمام بقضية التعريب أمر جد خطير، ليس على المستوى الفردي، بل على المستوى القومي العربي، وكان من ضمن عوامل التضامن العربي هو وحدة اللغة.

والدارس لمدى استيعاب – طلبة الجامعات – يجد أن قدراتهم على التحصيل بالعربية أكبر بكثير من اللغات الأخرى، حيث إنهم يملكون أدوات التعبير بالعربية عن مثيلها باللغات الأخرى.

3 - التعريب والتقدم

لا شك أن دراسة العلوم بالعربية يتيح المزايا الآتية :

- الفهم والاستيعاب الكامل لجوانب فروع العلم المختلفة.
- إذكاء وتنمية الشعور الوطني القومي لدى الطلاب والباحثين.
- ازدهار حركة التأليف والتراجم والنشر.
- تطور العلوم الأساسية والتطبيقية والنظرية.
- إمكانية تأليف موسوعات علمية متخصصة.

وقد يتبادر سؤال ..

إن الجامعات ومراكز البحث تعلم وتدرس العلوم بلغات أخرى غير العربية، ويوجد الكثير من المصطلحات الأجنبية، وهناك مخاوف ومحاذير من استخدام العربية.

بل إني وبتجربة شخصية أكاد أقول: إن الاستيعاب والتحصيل بالعربية أكثر من التحصيل بلغات أخرى.

فتجد المهندسين الجدد يعانون معاناة بالغة فى فهم الرسومات والكتب الفنية الهندسية خاصة في أثناء تنفيذ المشروعات الكبرى، بيد أنه لو كانت هذه الوثائق بالعربية لكانت الفائدة المرجوة كبيرة ونافعة ومفيدة، وقد يضيف أو يعدل عليها المهندس نظرًا لاستيعابه وإلمامه الكامل للنواحي التقنية.

والرأي – أن العربية – غنية بكلماتها ومترادفاتها، فقد يكون للمعنى الواحد أكثر من مترادف

لذا يجب أن تعرب جميع العلوم دون استثناء، وليكن ذلك من خلال مراحل متعددة، حتى نصل لدرجة التعريب الكامل.

وهناك تجربة في هذا المضمار، فإن الحضارتين اليابانية والصينية قد وصلتا إلى هذا التقدم والازدهار باللغة الأصلية للبلد.

ويقوم مجمع اللغة العربية منذ حقبة ليست بالقصيرة بإصدار مجلدات للمصطلحات الفنية (حتى الآن 36 مجلدًا) تحوى تعريبًا لمختلف العلوم الأساسية والتطبيقية والنظرية مثل الفيزياء والكيمياء والأحياء الهندسة والصيدلة والطب والآثار والسياحة والزخرفة وغيرها بيد أن الإمكانيات المتاحة للمجمع ليقوم بهذه المهمة محدودة، فيا حبذا لو أعطى المجمع الدعم الكافي لكي يستمر فى أداء تلك الرسالة السامية.

4 - الخلاصة

إن قضية التعريب قد أخذت الكثير من الوقت والجهد بلا نتيجة حقيقية.

والرأي هو صدور قرار من المجلس الأعلى للجامعات بضرورة تعريب العلوم كلية، وليكن ذلك وفق خطة – خمسية مثلاً – ليدخل بها العرب الألفية الثالثة معتمدين على الثروات اللغوية من العربية.

ويجب أن تلتزم الجامعات ومراكز البحث بأساليب التعريب كمنهاج وسياسة على المدى البعيد والقريب، لكي يعود للعربية مجدها الزاهر فى عالم الغد المرتقب. إن اتساع الفجوة الرقمية بين العرب ودول العالم الأول تتسع يومًا بعد يوم، وأخشى أن يتسع الخرق على الراتق ويصبح العالم العربي فى مؤخرة القائمة وذيل الكتاب- كتاب العلوم العلمية والإنسانية- مع إنهم كانوا ملء السمع والبصر، وتصدروا المشهد العلمى لقرون طوال، فهل يفيق العرب من هذه الغفوة......؟



الاستعمار الغربي ..
والصور النمطية عن الشرق

د. حياة المتدين

المغرب

لا شك أن صورة العرب والمسلمين اليوم مشوهة نمطية ومسبقة، هذه الصورة التي نسجتها المخيلة الغربية كانت نتيجة تراكم تاريخي في سياق مواجهة حضارية اختلط فيها السياسي بالديني، وصراع حول السيادة على الأمكنة والرموز.
فإلى أي حد شكل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي منبعًا خصبًا لصياغة هذه الصور وتنميطها؟

يطرح موضوع صورة العرب والمسلمين في الغرب الكثير من التساؤلات حول حجم هذا التشويه، وآليات حدوثه ومسؤوليتنا تجاه تزايده، فقد تجاوز الأمر حدود الصورة، ليلامس الكثير من ملامح وجودنا في هذا العالم.

إننا إذا أردنا أن نعرف سبب هذا التصور السلبي عن الإسلام لدى الغرب اليوم، علينا أن نبحث، ليس في الظواهر السطحية التي نراها اليوم هنا وهناك ضد أو مع الإسلام، بل فيما رسخته القرون السابقة من مواقف تجاه الإسلام والمسلمين، التي على ما يبدو لا زالت في أعماق الغربيين، تظهر في المناسبات بوعي أو بغير وعي، فالصور الراهنة للإسلام هي نتاج تراكمات ثقافية وحضارية، تكونت عبر قرون، أنتج الغرب خلالها قاموسًا كاملاً من الصور النمطية.

إن دراسة مرجعيات هذه الصور هي بحث في الخلفيات التي تستند عليها، وهي كذلك بحث في المحركات التي تتأسس عليها، والمنطلقات القبلية التي سمحت لها بالظهور في ثقافة معينة، وفي حقبة تاريخية معينة.

وقد شكل الاستعمار الغربي للدول الإسلامية مرحلة حاسمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ومحددًا حاسم لطبيعة هذه العلاقات، ومنبعًا خصبًا لصياغة صور نمطية عن الآخر الشرقي، وفي إطار استجلاء وتفسير الخلفيات التاريخية والمعرفية الغربية المتصلة بالسياقات الثقافية والسياسية، التي شكلت وعي وموقف الغرب تجاه الآخر، وانعكست على صورة الشرق والإسلام في الإعلام والأدب، يرى عبدالوهاب المسيري أن الرؤية المعرفية الغربية ذات طبيعة إمبريالية كامنة في نظرتها للإنسان والطبيعة والمقدس، هذه الرؤية الإمبريالية ظهرت نتيجة لمجموعة من العوامل التاريخية والفكرية، فمنذ عصر النهضة هيمنت الفلسفات العلمانية المادية على العقل الغربي، فأعلن الإنسان الغربي موت الإله أو تنحيته عن عمليات المعرفة والأخلاق، ترسخ ذلك مع هيمنة الفلسفات العقلية النفعية في القرن الثامن عشر، ومع علمنة الفكر السياسي الغربي، لم تعد هناك غايات مطلقة للوجود الإنساني، فالخير هو مصلحة الدولة العليا وخدمتها هي هدف الوجود الجماعي.[1]

وقد عمق الاقتصاد الرأسمالي فكرة أن توسيع الإنتاج هو الخير المطلق، فأصبحت جزءًا من التصور الأوروبي النهم عن الطبيعة البشرية، كما ظهرت عقيدة التقدم اللانهائي الصادرة عن اعتقاد بلا نهائية مصادر الطبيعة وقدرة الإنسان على السيطرة عليها وتسخيرها.

أدت هذه العوامل إلى ظهور رؤية معرفية إمبريالية تنطلق من تصور مادي للطبيعة والإنسان، وتتجه نحو السيطرة

على العالم، وإخضاعه للإنسان الغربي بصفته مركزًا للكون. وقد أفرزت هذه الإمبريالية حسب المسيري" رؤية عنصرية قامت بتصنيف البشر على أساس صفات مادية كامنة فيهم: حجم الجمجمة، لون الجلد، شكل الشعر... إلخ، وأكدت التفاوت بين الشعوب، ونظرت إلى الشعوب غير الغربية وأراضيها ومواردها بصفتها مادة استعمالية، يمكن للسوبرمان الغربي أن يوظفها لحسابه، بوصفه أقوى الشعوب وأكثرها رقيًا.[2]

ومع زيادة حركة الاستعمار الغربي في أنحاء العالم، صيغت نظريات التبرير للحركة الاستعمارية وتغطية استمرارها[3]، فظهر ما يسمى بالنظرية البيولوجية السياسية ومضمونها أن للدول الكبرى الحق في التهام الدول الصغرى، وهو ما أكده أرنست رينان عندما أعلن: "أن الأوروبي خلق للقيادة كما خلق الصيني للعمل في ورشة العبيد، وكل ميسر لما خلق له". ويكتب انطوان مون كريتيان الملقب برائد الاقتصاد السياسي في نهاية عصر النهضة الأوروبية: "إن الإنسان ولد ليعيش للعمل المستمر والاحتلال"، وراحت هذه الإسقاطات الاستيهامية تتناسل خلال القرن الثامن عشر، وتنتقل من إطارها التاريخي إلى خطاب كوني تبناه العديد من مفكري الغرب ومنظريه، حتى صار تقسيم العمل بين الغرب والشرق أمرًا طبيعيًا.

"بموجب هذا التقسيم العالمي للعمل، صار نظام الآخر الغربي يتأسس على قاعدة تنصيب نفسه كحامل لرسالة حضارية لشعوب مصنفة بالمتوحشة والكسولة، أي العاجزة عن الإنتاج واستغلال الثروات الطبيعية، المسار الذي أثار، ولا يزال يثير، شبقية التوسع والهيمنة عند الغزاة."[4]

ولم تتردد العلوم الإنسانية في توظيف أسطورة الإنسان المتوحش بما يخدم مصالح دولها، وقد كان الغرض من تكريس صفة الوحشية على إنسان ما وراء البحار بمثابة تأسيس لخطاب علمي يتم من خلاله تبرير المركزية العرقية الأوروبية، ويخدم توسعاتها وأطماعها الإمبريالية. "لقد ترسخت هذه الاستيهامات الغرائبية في الأذهان إلى حد بات الاستعمار يعد عملاً إنسانيًا يسوغ غزو الشعوب المسماة بالمتوحشة."[5]

إن التأكيد على الهمجية كان أمرًا حيويًا عند المؤسسات الاستعمارية، ففي أمريكا تم تصوير الهندي قاتلاً للأطفال، وخاطفًا للنساء، وجامعًا للرؤوس البشرية، وذلك من أجل تبرير وحشية الرجل الأبيض ضد هذا الهندي، ومن هنا كتب ثيودور روزفلت سنة 1896 م "كان المستعمرون والرواد الأوائل يشعرون في أعماقهم أن الحق هو إلى جانبهم، وأن هذه القارة العظيمة لا يمكن أن تترك لعبث الهنود المتوحشين."[6]

وقد كانت الحكومة الأمريكية - حتى منتصف القرن التاسع عشر - تدفع مبلغًا من المال لمن يأتي بفروة رأس هندي. "وخلال ثلاثة قرون من الزمن، استمرت الشائنة في العبيد السود عبر الأطلنطي، جنبًا إلى جنب مع نمو الحضارة الأوروبية الأمريكية، وكجزء لا يتجزأ من هذه الحضارة. ولم تنته هذه التجارة قبل سنة 1865م، وقدر عدد الذين وقعوا في الأسر فريسة للصيد البشري (بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة) خلال هذه الحقبة بين 13 إلى 15 مليون إنسان حر (علمًا بأن العدد الحقيقي لن يعرف أبدًا)."[7]

ويحاول" برتراند راسل" تفسير مثل هذه الجرائم الإنسانية بقوله: "ففي الطبيعة البشرية ميل نحو الانفعالات الوحشية، بلغ حدًا جعل أولئك الذين يعارضونه معرضين دائمًا تقريبًا للحقد، كما أدى إلى ابتكار أنظمة أخلاقية ودينية كاملة، تجعل الناس يحسون أن الوحشية شيء نبيل.. إن الانفعالات المدمرة لم تجلب على البشرية سعادة حقيقية، فأولئك الذين كانوا يملكون العبيد، عاشوا في رعب من ثورات العبيد (..) والشعوب المسلحة المتخاصمة تعيش في ظل الخوف من الهزيمة في الحرب."[8]

ومن أجل التغطية على مثل هذه الجرائم البشعة، وبهدف إضفاء الشرعية على عملية الاستعمار، يرى جوكينشلو في كتابه "التربية الخاطئة للغرب" أن هذه التبريرات التاريخية والأخلاقية، كانت مطلوبة لفرض الثقافة الأوروبية، كونها النموذج المهيمن الواجب اتباعه. وهكذا ابتكرت الأسطورة الهدامة "تمدين غير المتمدنين."[9]

وقد قامت الفوارق الثقافية بين المجموعات على فوارق بيولوجية تعكس الفوقية والدونية، وقد شكلت الانتصارات العسكرية، التي حققها الغرب أساسًا لاستعراق الغربيين، واعتقادهم بأنهم العرق الأسمى بين سائر الأعراق. "كما ساهم النهب الاستعماري في زيادة ثقة الإنسان الغربي في نفسه، وفي رؤيته لنفسه، لا كإنسان، وإنما كإرادة قوة لغزو العالم ونهبه وإخضاعه والتحكم فيه."[10]

وقد انكبت العلوم الإنسانية على دراسة المجتمعات المستعمرة لإعانة الإدارة الاستعمارية على السيطرة على المستعمر، فـ"رينيه مونيي" صاحب المشروع الكبير لعلم الاجتماع الجزائري مثلا يقول: "إن لنا مصلحة نظرية وتطبيقية لنتعرف على حياة الشعوب الجزائرية، نظرية أولاً، لأنه من حقنا ومن واجبنا نحن الفرنسيين أن نعرف ونفهم جميع الشعوب، التي نحميها وندير شؤونها، ولا نتوقف أبدًا عن القيام بالواجب نحوها، ولما في تنظيم هذه الدراسات من غايات مادية تطبيقية، باعتبار أن العلم مصدر للنفوذ والحكم."[11]

كما يعد عالم الاجتماع" مارتان" أن علم الاجتماع الشمال الإفريقي، له وظيفة أساسية في تقديم المشورة للاستعمار الفرنسي، عبر دراسة الأطر التربوية، والحركات الاجتماعية، وخصائص الشخصية المحلية، من أجل التحكم في المنطقة وإنجاح المشروع الاستعماري.[12]

> **وهو ما أكده أرنست رينان عندما أعلن: "أن الأوروبي خلق للقيادة كما خلق الصيني للعمل في ورشة العبيد، وكل ميسر لما خلق له". ويكتب انطوان مون كريتيان الملقب برائد الاقتصاد السياسي في نهاية عصر النهضة الأوروبية: "إن الإنسان ولد ليعيش للعمل المستمر والاحتلال"**

> **وقد ركزت الروايات الأوروبية عن الشرق على تلك الصفات التي تجعل من هذا الشرق، ذلك الآخر المختلف عن الغرب، و"الغير" الذي لا صلاح له. " فقد أنتج الاستعمار عن الشرق المتوسطي، ما لا ينضب من كتب الحماقات التي لا تزال حتى اليوم، تستخدم كسجل مرجعي لكثير من الغربيين كلما تعلق الأمر بوصف العالم العربي الإسلامي**

> **كان للرحالة والعلماء والمبشرين والوكلاء تأثير كبير، فاستغلت وسائل الاتصال والإعلام الصور القديمة التي يحملها البريطانيون عن العرب وروجتها، وكان من أكثر الكتابات تأثير في مصادر الإعلام كتابات توماس إدوارد لورنس الملقب بلورنس العرب**

ويوضح إدوارد سعيد ذلك بقوله: "ارتبطت الأطروحات حول التخلف والانحطاط الشرقيين، والتفاوت بين الشرق والغرب في أوائل القرن التاسع عشر بالأفكار السائدة حول الأسس الحيوية (علم الحياتية) للتفاوت العرقي، وهكذا وجدت التصنيفات العرقية القائمة في كتاب كوفييه "مملكة الحيوان" وكتاب غوبينو "مقالة في التفاوت بين العروق الإنسانية" وكتاب روبرت نوكس "عروق الإنسان السوداء" شريكا رغوبا في الإستشراق الكامن، وإلى هذه الأفكار أضيفت أفكار داروينية من الدرجة الثانية، بدا أنها تؤكد السريان العلمي لتقسيم العروق إلى متقدمة ومتخلفة، أو أوروبية ـ آرية، وشرقية أفريقية"[13]. وبهذا التقسيم أمكن للغرب استهداف الأمم المستضعفة، "وضمن هذا المنظور العام ستغدو كل المسوغات العقلانية ناجزة لشن الحملات والحروب على هذه الأمم الموسومة "بغير المتحضرة"، وقد أصبحت لاحقًا، حقًّا قانونيًّا ومطلبًا حيويًّا للدولة ـ الأمة الغربية[14]- لقد وجدت الإمبريالية الأوروبية ضالتها في النظريات العنصرية العرقية عندما تحولت إلى استعمار ثلاثة أرباع العالم، ومع هذه التبريرات، لم تكن تجد حرجًا في عمليات القهر والاستبداد والتطهير العرقي والقتل الجماعي للملايين من البشر، كونهم أدنى مرتبة من البشر. وفي أحسن الأحوال تعامل الإستعمار مع الشعوب بصفتهم متخلفين ثقافيًّا، امتدادًا لتخلفهم البيولوجي" لقد صارت هذه المذاهب الإيديولوجية على اختلاف تلاوينها العرقية، التي تضمنت الخطاب العلمي المسيطر والمؤسس في القرن التاسع عشر، تعني تحديدًا، خطاب الإنسان الأبيض الحضاري والراشد، وريث عصر الأنوار وصانع المستقبل، وحامل رسالة التقدم والتطور شرعًا. وتحت قيادة هذا الخطاب تم تحالف الدولة المركزية الدستورية والعلم والجيش والصناعة والكنيسة لتوزيع الأدوار، وتقاسم المهمات ضمن إستراتيجية منظمة."[15]

إن إلصاق صفة مشوهة بفئة مستضعفة، أو قليلة ضمن مجتمع ما، كان دائمًا طريقة مناسبة لإيجاد كبش فداء. وقد ركزت الروايات الأوروبية عن الشرق على تلك الصفات التي تجعل من هذا الشرق، ذلك الآخر المختلف عن الغرب، و"الغير" الذي لا صلاح له. " فقد أنتج الاستعمار عن الشرق المتوسطي، ما لا ينضب من كتب الحماقات التي لا تزال حتى اليوم، تستخدم بصفتها سجلاً مرجعيًّا لكثير من الغربيين كلما تعلق الأمر بوصف العالم العربي الإسلامي، ذلك أن أوروبا القرنين التاسع عشر والعشرين صنعت أسوأ سلسلة لصور الشرق التي لا نظير لها أبدًا."[16]

ولقد اعتبرت منطقة الشرق الأوسط شريان الحياة الرئيسي بالنسبة للعالم الغربي، ولذا فقد لعبت دورًا بارزًا في الإستراتيجية الدولية عبر السنين[17]. وقد بدأ الاهتمام بالشرق بداية، بصفته موقعًا استراتيجيًّا، لما يتميز به من طرق مواصلات برية وبحرية، أهمها البحر الأحمر الذي يعد ملتقى ثلاث قارات، ويستمد أهميته أيضًا كونه يوفر للقوى الدولية إمكانية الوصول إلى المحيطين الهندي والأطلسي والبحر المتوسط. وبحكم موقعه الجغرافي السياسي، فقد شكل عنصرًا مهمًّا ومؤثرًا في مسار تاريخ هذه المناطق ومستقبلها، وما من ممر مائي كان سببًا في الصراعات بين الأمم أكثر مما كان ولا يزال عليه البحر الأحمر، ذلك أن الخواص الاستراتيجية لهذا البحر ظلت تجذب اهتمام قوى مختلفة ومتصارعة.

وقد حاول البرتغاليون كما الرومان بسط سيطرتهم على البحر الأحمر، وكان من دوافعهم الواضحة "بسط احتكارهم على تجارة العالم بين الهند والغرب، عن طريق البحر الأحمر"[18] بعد 1520م كانت شمس البرتغال تميل إلى المغيب، بسبب المشكلات الداخلية والحروب، ثم كان ارتفاع نجم انجلترا وهولندا بصفتها قوتين بحريتين جديدتين، مع ما رافق ذلك من طرد البرتغال من الخليج العربي على يد الإنجليز عام 1622م، فقد دخلت بريطانيا المحيط الهندي بين عامي 1577م و1580م وهمها الأساسي التجارة، ثم أرسلت الحملات البريطانية إلى عدن والبحر الأحمر في محاولة للنيل من المقاومة البرتغالية والهولندية.[19]

وجاء غزو نابليون لمصر في القرن الثامن عشر بمثابة تهديد للمواصلات البريطانية مع الهند، "فعندما احتلت فرنسا مصر عام 1798م، أراد نابوليون وقتئذ تنشيط تجارة البحر الأحمر في غمار منافسته مع بريطانيا، التي كانت تتاجر مع الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، بيد أن بريطانيا عملت بالتعاون مع العثمانيين على هزيمة فرنسا في مصر عام 1801م."[20]

ظلت المنافسة محتدمة بين فرنسا وبريطانيا حول الوجود والنفوذ في البحر الأحمر، وفي عام 1862م استطاعت فرنسا شراء وجودها في اوبوك (جيبوتي حاليًّا) من رؤساء القبائل الصوماليين.

وخلال القرن الثامن عشر، قاتلت فرنسا وبريطانيا إحداهما الأخرى للسيطرة على الهند، من 1744م إلى 1769م، "تلك الحرب التي انتهت بسيطرة بريطانيا على شبه الجزيرة الهندية اقتصاديًّا وسياسيًّا، وقد كان قرنا أثر بالعلاقات البريطانية الشرقية، وشهد نقطة تحول في صورة العرب، فكون بريطانيا مدفوعة بحماية طرقها إلى الهند من جهة، ولمواجهة المضايقة والنفوذ المتزايدين من فرنسا أو محاولة إيقافه من جهة أخرى، أخذت بريطانيا تظهر مزيدًا من الاهتمام بالمشرق ولا سيما بمصر."[21]

وكان لغزو نابليون مصر سنة 1798م وحملته في سوريا أكبر النتائج في التاريخ الحديث للمشرق، فقد أدرك البريطانيون في الهند، ونابليون في مصر، أهمية استخدام المستشرقين، والاستفادة منهم لبناء الإمبراطورية، فربطوا بين المعرفة الإستشراقية وبين التسلط السياسي الصريح، وهي ما عبر عنها إدوارد سعيد بربط المعرفة بالسلطة. "وفي عام 1882م، احتلت بريطانيا مصر مخالفة بذلك معاهدتها معها في عام 1877م، كما احتلت أيضًا مينائي الصومال، زيلع وبربرة في عام 1884م ثم السودان في عام 1899م." [22]. أما فرنسا، فقد رسخت أقدامها على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر وخليج عدن قرب باب المندب، بغية موازنة الوجود البريطاني في عدن. وفي عام 1925م أكملت إيطاليا احتلال الصومال، ووقعت معاهدة مع بريطانيا في شأن الصومال البريطاني، والصومال الإيطالي، وقامت القوات البريطانية باحتلال إريتريا (1941م). "وإذ خسر الإيطاليون إريتريا غادروا منطقة البحر الأحمر الذي قال عنه موسوليني يومًا: إذا كان البحر الأحمر هو مجرد طريق لبريطانيا، فهو شريان الحياة لإيطاليا."[23] وظل البحر الأحمر تاريخيًّا بؤرة صراع.

"إن قصة العلاقة بين القوى الاستعمارية الغربية وأمم الشرق ليست فقط قصة استكشاف ثقافي وفكري تنويري، بل كثيرًا ما كانت قصة تثير الخزي، استهدفت استغلال شعوب آسيا، وتجريدهم من ممتلكاتهم، والنظر إليهم بوصفهم العنصر الأحط شأنًا قياسًا إلى الغرب، وأنهم "الآخر" النقيض وحامل الخصال السلبية"[24].

وقد استمرت هذه القوالب الذهنية بالتراكم حتى القرن العشرين، القرن الذي انصبت فيه أطماع بريطانيا على الوطن العربي، فكان للرحالة والعلماء والمبشرين والوكلاء تأثير كبير، فاستغلت وسائل الاتصال والإعلام الصور القديمة التي يحملها البريطانيون عن العرب وروجتها، وكان من أكثر الكتابات تأثير في مصادر الإعلام كتابات توماس إدوارد لورنس الملقب بلورنس العرب (1888م ـ 1935م)، الذي يعد من أشهر شخصيات الربع الأول من القرن العشرين، أمضى سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى متجولاً في الوطن العربي، ليتعرف على عادات العرب ولغتهم وأعرافهم، وهو يرتدي ملابسهم ويدرس تاريخهم، ويتجسس على الأتراك والألمان في المنطقة. وقد تحدثت العديد من الأدبيات العربية والغربية على حد سواء عن إنجازاته وبطولاته ودوره في توحيد العرب وقيام الثورة العربية ضد السيطرة العثمانية، "على أن لورنس الذي بدا وكأنه يرمز إلى العلاقة المثالية بين بريطانيا والعرب لا يمكن أن يفهم أو يقوم بمعزل عن دوره بصفته وكيلاً إمبرياليًّا."[25]، فقد كشف في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" عن حقد وكراهية للعرب والمسلمين ولتاريخهم، ونظر إليهم بوصفهم متخلفين كسالى، فضلاً عن مقالاته المتعددة، وأخطائه التاريخية، وأبرز ما يؤكد ذلك قوله بالنص: "إنهم أناس ضيقوا ومحدودو التفكير، حيث إن ذكاءهم الجامد يرتاح باستسلام غير مبال وأن خيالاتهم نشيطة لكنها غير مبدعة."[26] كما ظهر دوره بصفته وكيلاً إمبرياليًّا في قوله: "الحكومة البريطانية التي حثت

العرب على القتال من أجلنا، كانت مقابل وعود محدودة لإنشاء دولة عربية مستقلة بعد انتهاء الحرب، والعرب يثقون بالأشخاص، وليس بالمؤسسات، فهم رأوا فيَّ عميلاً حرًّا للحكومة البريطانية، وطلبوا مني العمل على تطبيق تلك الوعود المكتوبة من قبل الحكومة، لذلك فقد كان عليَّ أن أنضم للمؤامرة، وأن أقوم بإعطاء تأكيدات كلامية للرجال بأنهم يستحقون مكافئتهم، وخلال سنتين من العمل المشترك في ظل المعارك المستمرة، فقد اعتادوا تصديقي (..) كان واضحًا منذ البداية أنه في حال كسبنا للحرب، فإن هذه الوعود ستكون عبارة عن ورقة ميتة (..) وأنه كان من الأفضل أن نكسب الحرب، وننقض تعهداتنا، بدلاً من أن نخسرها."27

مع بداية القرن العشرين بدأ التحول إلى استخدام النفط بدل الفحم، وأصبح النفط سلعة إستراتيجية للبريطانيين، واحتاجوا إليه لقوتهم البحرية، ولم يكن لديهم مصدر آخر، فالأمريكيون والروس كان لديهم مصادر النفط الخاصة بهم، لذا أصبح النفط للبريطانيين ومن بعدهم الفرنسيين موردًا إستراتيجيًّا يجب الوصول إليه وحمايته.

خلال الحرب العالمية الأولى شكلت آبار النفط القوة الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية، كانت هي المنتج الأكبر للنفط في تلك الأثناء، مثل إنتاجها عونًا كبيرًا للحلفاء، في مقابل منعهم ألمانيا من الوصول إلى حقول النفط الرومانية، فبدأت الصناعة الألمانية تعاني نقصًا في الوقود وزيوت التشحيم.

في 11 نوفمبر تشرين الثاني 1918م، استسلمت ألمانيا عندما لم يعد لدى جيشها من الوقود ما يكفيهم ليوم واحد فقد "أدت الحرب العالمية الأولى إلى التركيز على أهمية النفط في العصر الجديد لوسائل المواصلات الآلية، وكثفت البحث عن المخزونات النفطية في الشرق الأوسط."28

عندما اكتشف نفط الخليج عقب الحرب العالمية الأولى، عملت الحكومة البريطانية على توقيع اتفاقيات مع حكام الخليج بإعطاء حق امتياز التنقيب عن النفط في أراضيهم إلى شركة بريطانية، وهكذا أعطي للبريطانيين القدرة على التحكم في نفط الخليج" وكان لديهم امتياز التنقيب لستين عامًا. وفي عام 1909م كانوا يحفرون وينتجون ويصدرون، كما بدؤوا بعض عمليات التكرير."29

سيطر الفزع على الأمريكيين عام 1919 م بسبب تقديرات حكومية أفادت بأن الاحتياطات النفطية الأمريكية قابلة للنضوب خلال عشر سنوات، واجهت إدارة الرئيس ويلسون الاتهام بأنها لم تضع أي سياسة نفطية قومية، هكذا بدأت مشاحنات من نوع جديد. لم تهتم الشركة البريطانية كثيرًا بالتنقيب عن النفط في البحرين، لذلك سمحوا للأمريكيين بالدخول إلى البحرين، ثم الكويت وأخيرًا السعودية، وبذلك بدأ توطيد الأمريكيين في الشرق، "لقد كان النفط ولعقود من الزمن، وراء السياسة الخارجية والأمنية، لقد كان الباعث من وراء فكرة تقسيم الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، والمحفز الذي دفع ألمانيا واليابان إلى التفكير بالتوسع خارج حدودهما، والدافع وراء حظر النفط العربي، ووراء الحرب العراقية الإيرانية ،وحرب الخليج، هذا كله واضح." 30

ويعكس الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في كتابه "اقتناص اللحظة "صورة بشعة عن العالم الإسلامي عندما يقول: "إن معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، وسخين، برابرة، غير عقلانيين، لا يستوعبون انتباهنا إلا لأن الحظ حالف بعض قادتهم، وأصبحوا حكامًا على مناطق تحتوي على ثلثي الاحتياطي العالمي المعروف من النفط."31

وفي كتاب "تاريخ فارس" أحد مؤلفات سير جون مالكولم الضابط البريطاني، وضع السير جون خطة لاستعمار منطقة الخليج العربي، تتلخص المبادئ الأساسية لهذه الخطة في النظر إلى إمارات الخليج، الدولة العثمانية، وجزيرة العرب، لا بصفتها حكومات حقيقية، بل بصفتها بلدانًا يمكن لأي أمة أن تتعامل معها بما يخدم مصالحها وأهدافها.

وفي ذلك يرى المسيري أن الغرب "عرف مصلحته الإستراتيجية منذ بداية القرن التاسع عشر بطريقة تجعله ينظر للمنطقة العربية بصفتها مصدرًا هائلاً للمواد الخام (الرخيصة)، ومجالاً خصبًا للاستثمارات الهائلة (التي تعود عليه وحده بالربح)، وسوقًا عظيمة لسلعه (التي ينتجها ويصرفها فيزداد هو ثراء)، أو قاعدة إستراتيجية شديدة الخطورة والأهمية (بالنسبة لأمنه هو)، إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية (مثل الاتحاد السوفييتي في الماضي) باستخدامها ضده."(32)

إن الخطاب الذي يجعل من الأخذ بيد الأمم المحرومة أو إسعافها واجبًا أخلاقيًّا، ويقوم بتصنيف البشر وتأكيد التفاوت بين الشعوب، لم يتبلور إلا انطلاقًا من أطماع اقتصادية ومصالح سياسية بحتة، بحثًا عن أسواق جديدة، وثروات طبيعية ومواقع إستراتيجية. وسواء كان الغرض تبرير الدوافع الدينية، أو تسويغ الأطماع والمصالح السياسية، فقد اختزلت جميع العلاقات المعقدة في العالم العربي الإسلامي، وكل ما في حضارته من ثراء، إلى مجموعة جاهزة من القوالب الذهنية الثابتة.

هوامش البحث:

(1) انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، ط1، 2002م، ج. 1، ص308

(2) عبد الوهاب المسيري، العلمانية تحت المجهر، حوارات لقرن جديد، دار الفكر، سورية، ط 1، 2000 م، ص 140.

(3) وهناك دراسات عديدة تحدثت بتفصيل عن الغربيين، الذين كرسوا بكتاباتهم للعنصرية، وبرروا عن طريق تسخير العلم وافتراض نظريات، مصالحهم وتحركاتهم الاستعمارية انظر مثلا:

- غريغوار منصور مرشو.، مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغير لا بذاته، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م.
- أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر..
- عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري.

(4) غريغوار منصور مرشو، نحن والآخر، دار الفكر المعاصر، ط1، 2001م، ص22.

(5) غريغوار منصور مرشو، مقدمات الاستتباع، الشرق موجود بغيره لا بذاته، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.1996م، ص 84.

- Theodore Roosevelt, the wining of the west, New York, 1896, p :906[1]

(7) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت ومؤسسة بافاريا للنشر، ط 1، 1994م، ص 223.

(8) برتراند راسل، المجتمع البشري في الأخلاق السياسية، ترجمة عبد الكريم أحمد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص 139.

(9) جوكينشلو وشيرلي شتاينبرغ: التربية الخاطئة للغرب، كيف يشوه الإعلام الغربي صورة الإسلام، ترجمة حسان بستاني، دار الساقي، ط1، 2005م، ص 258.

(10) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مرجع سابق، ص 210.

(11) عبد الوهاب بوحديبة، الحياة الاجتماعية الإسلامية كما صورها بعض المستشرقين، في: مناهج المستشرقين والدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1985م، ج2 ،ص145.

(12) محمد نجيب بوطالب، العلوم الاجتماعية والاستشراق، في: صورة الآخر العربي ناظر ومنظور إليه، مركز دراسات الوحدة العربية.ط.1.1999. م.،ص 438

(13) إدوارد سعيد: الاستشراق، المعرفة الإنشاء السلطة. ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت 1981م، ص 217 .218.

(14) غريغوار منصور مرشو، مقدمات الاستتباع، الشرق موجود بغير لا بذاته، مرجع سابق، ص 81.

(15) نفسه، ص110

(16) تييري هنتش ، الشرق المتخيل، رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي. ترجمة غازي برو.خليل أحمد خليل.المجلس الأعلى للثقافة ودار الفارابي.القاهرة.ط1.2005م، ص 284 . 285.

(17) يسري الجوهري، الجغرافيا السياسية والمشكلات العالمية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993م، ص 361.

(18) عبد الله عبد المحسن السلطان، البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، 1988م، ص 49.

(19) المرجع السابق ،ص50.

(20) أجيه يونان جرجس، البحر الأحمر ومضايقة بين الحق العربي والصراع العالمي، مكتبة غريب، القاهرة ، 1979، ص 51.

(21) حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية ، دراسة اجتماعية للثابت والمتحول في مجمل الصورة، ترجمة عطا عبد الوهاب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 1988 ،ص 32.

(22) عبد الله عبد المحسن السلطان، البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي ، مركز دراسات الوحدة العربية. ط3.1988م.، ص 54.

(23) أجيه يونان جرجس، البحر الأحمر ومضايقة بين الحق العربي والصراع العالمي، مكتبة غريب، القاهرة ، 1979، ص 51.

(24) جي جي كلارك، التنوير الآتي من الشرق، ترجمة شوقي جلال ، عالم المعرفة، عدد 346، ديسمبر 2007م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،ص 18.

(25) حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، في صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه. مركز دراسات الوحدة العربية. ط1. 1999م.ص 56.

(26) توماس إدوارد لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة محمد نجار الأهلية للنشر والتوزيع ، ط 1، 1998 ،ص 29.

(27) المرجع السابق، ص 13.

(28) هاري سانت جون فيلبي، مغامرات النفط العربي، ترجمة عرض البادي، مكتبة العبيكان، ط 1، 2001 م، ص 15.

(29) ما يكل بالمر، برنامج أرشيفهم وتاريخنا، قناة الجزيرة 2010/10/21.

(30) ريتشارد هاينبرغ، سراب النفط، النفط والحرب ومصير المجتمعات الصناعية ، ترجمة انطوان عبد الله، الدار العربية للعلوم، ط. 1، 2005م، ص 75.

(31) Richard Nixon : Zeize th Moment . American challenge in a one super power world (simon/Schuster.Newyork. 1992-p : 194.

(32) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية،الموسوعة الموجزة ، دار الشروق، ط2، 2005م، م2 ،ص 323.

نشوء العامية وانتشارها

د. ريمة الخاني

سوريا

تعد قضية انتشار العامية قضية قديمة حديثة بذات الوقت ومهمة بقدر ما هي تداول إبعاد الفصيح عن الاستعمال بدعوة السهولة والسرعة، وهذا ليس بأمر صحيح برغم عالميته، لانه يبعد عن الأصول ويضعف من قوام اللغة الأصل واقتصارها على لغة علمية أدبية صرفة، بقدر ما يجب أن تكون متداولة بقوة في كل المجالات، وبقدر ما هي لغة القرآن بقدر ما هي الأساس في التراث وداعم لأهمية ابعادها عن الضعف وغلبة الروح الغربية عليها استعمالاً.

ويجب ألا يغيب عنا، أمر انتشار العامية بقوة حولنا منذ مدة غير قليلة، حيث كان يمكن استثمار ذلك بطريقة إيجابية لو كانت النوايا سليمة، وقد صدرت كتب وموسوعات أمسكت العصا من منتصفها بحيث قدمت تاريخ العامية وكيف وصلتنا، وكيف كانت جذورها تاريخيًا، وقد أتت من طرفين أساسيين حسب رؤيانا:

1 - الأصول اللغوية قديمًا وقبل أن تتبلور العربية التي وصلتنا، ونعني بتبلورها لغة القرآن، وتتمثل في اللغات القديمة مثل الآرامية واللاتينية والهنود واليونانية والفارسية وغيرها[1]، والتي وصلت للمغرب بعد زمن عن طريق البرابرة العرب، الذين يسمون بالأمازيغ، (فهل نعني العامية هنا في المغرب الأمازيغية أم العامية الحديثة؟) هذا أولاً[2].

2 - والطرف الثاني هو فن الزجل أو الموشح والشعر الإباحي الذي انتشر في الأندلس، وسبب انتشار تجاوزات لغوية فادحة. (أطلقه القتبري ومن بعده ابن قزمان)[3]

ونعود لعلاج الموضوع، يكون بوضع قواسم مشتركة ما بين العامية وتواصلها بالفصيح، وهذا يجعلنا نتفوه بكلمات ظاهرًا عامية وباطنًا ذات أصول فصيحة، وأكرر لو كانت النوايا سليمة، ومن هذه الكتب المهمة (موسوعة العامية السورية) لياسين عبد الرحيم وهو 4 مجلدات[4].

ويبين في مقدمته تفريق العرب في الجزيرة العربية بين لهجاتهم بين نجدية أصيلة وغيرها من اللهجات، ويخص بالذكر: عمرو بن العلاء" الذي مرر الانزياح اللغوي فيما صدر عنه، والانزياح العامي الآخر دخول من غير العرب لعالم لغتنا، وهو بحث تاريخي طويل قمت ببعض جهود متواضعة فيه وفي جمعه ولم تتم بعد، ويعد كتاب "أحمد رضا" في رد العامي للفصيح كتاب مهم[5].

ويبقى السؤال: بعدما استشرت العامية في الزجل والغناء ووو ... هل ما قدمناه من مفاتيح مع جهود مؤسساتية تكفي؟

***

وقد ورد في موسوعة الأستاذ ياسين أن سيبويه كان يستشهد بكل من التزم العربية النجدية وغيرها، كشعر أمية بن أبي الصلت، فقد كان يحكي شعره قصص الأنبياء، ويقرأ الكتب المتقدمة، وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب، كتسمية السماء: صاقورة وحاقورة والقمر ساهورا.

وقد أباح ابن جني الاحتجاج بالمولدين في المعاني دون الألفاظ، وقد استشهد ببيت للمتنبي.

أما الأصمعي فلم يجيز ذلك أبدًا، وكانت حجة البقية أمثال ابن جني هي: أن المعاني التي كان يتناقلها المولدون المتقدمون، وكان أبو العباس، قد احتج من شعر حبيب بن أوس الطائي في كتبه الاشتقاق.

فأنشد بمعنى دون اللفظ:

لو رأينا التوكيد خطة عجز   ما شفعنا الأذان بالتثويب.

فهل دخول ألفاظ غريبة عن العربية في القرآن مسوغ؟ أم ماذا يعني هذا هنا؟[6]

وبالنسبة للقدماء يبقى العربي القح الصريح من شوائب الدم والاختلاط بالأعاجم محل ثقة واحتكام، حتى لقد أخذوا من العراب دون اشتراط العدالة والبلوغ، فهل من هنا بدأ الانزياح والتفلت؟.

ولم تخل أيام العرب الأولى وخاصة ما قبل الإسلام، من مصطلح العامية فقد كانت عبارة عن لهجات القبائل وقد وضحها شعرهم، وبرغم هذا كانوا يحاولون عند الحضور لمكة أن يتكلموا بلهجة قريش العدنانية، يقول هنا الدكتور إحسان النص[7]:

لدى استعراض قصائد العرب نتساءل كيف كان لكل قبيلة لهجتها ومفرداتها، وبرغم هذا كل شعرهم يظهر علاقتها القوية بلهجة مضر.

لقد كان العرب يفدون على سوق عكاظ مما يجعلهم يحاولون جعل شعرهم مفهومًا من قريش، وقد كان لكل قبيلة مفرداتها وأدواتها الشعرية.

ما النافية تعمل عمل ليس، في لغة أهل الحجاز، وهي لغة القرآن الكريم لغة أهل تهامة ونجد، ولا تعمل عمل ليس في لغة قبيلة تميم.

قال شاعر:

و مهفهف الأطراف قلت له: انتسب

فأجاب: ما قتل المحب حرامُ

فلم تعمل هنا ما عمل ليس فعرف أن صاحبها تميمي.

وقد ذيل المؤلف فقرته بقوله:

لقد صنف اللغويين العرب معاجمهم، وشعرهم، ولم يصنفوا ويرجعوا الألفاظ لقبيلتها، لذا وجب إخراج معجمًا خاصًا لاستقراء واسع دقيق.

يقول الباحث محمود المختار الشنقيطي:

في كتاب ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد، وهو من تأليف الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري .. ومن منشورات دار العلوم بالرياض سنة 1402هـ = 1982م. وأكتفي منه .. بقول الشيخ : (ولا نعرف زجلاً عاميًا وصل إلينا تجاوز القرن الثالث، فقد روي أن الخليفة المعتصم ابن الرشد (هكذا) في أول القرن الثالث للهجرة طلب كلب صيد من قائده التركي "أشناس" فأرسل إليه كلبًا أعرج فرده المعتصم إليه. وكان أشناس لا يعلم أن الكلب أعرج، وظن أن العرج أصابه عند المعتصم، فكتب أشناس هذا الشعر العامي :

الكلب أخذتُ جيد   مكسور رجل جبتُ

رد جـيـد   كلب   كما كنت أخذتُ

فأجاب الخليفة بقوله :

الكلب كان يعرج   يوم الذي به بعثتُ

لو كان جاء مجبر   أجبر رجل كلب أنت

قال أبو عبدالرحمن: إن صحت هذه الحادثة فهي دليل على أن ظروف نشأة الشعر العامي وجدت في وقت مبكر..) ص 23 – 24. والكتاب يقع في 215 صفحة[8].

هل يثبت هذا أن العامية بدأت قبل الموشحات؟

جاء في موسوعة العامية السورية لياسين عبدالرحيم وهي 4 مجلدات مقدمة ثمينة اخترنا منها ما يفيد (المجلد الأول) إن حب اللغة، وهو الأمر الطبيعي لا ينبغي أن يرقى باللغة، لأن تكون صنمًا يعبد، فهي وسيلة وليست غاية في ذاتها، وقد أجمع القدماء على أن شعراء الطبقتين الأولى والثانية يصح الاحتجاج بشعرهم على اللغة، والنحو والصرف، ولكن في شيء من تحفظ حجب هذا الاجماع عن بعض الشعراء: كأبي دؤاد الإيادي وعدي بن زيد، فقد كان أبو عمرو بن العلاء (وهو من فقهاء اللغة عربي الأصل الأقحاح) يرى أن العرب لا تروي شعر عدي لأن ألفاظه ليست بنجدية، وكان وابنه زيد يكتبون لكسرى بالعربية والفارسية، وعاب عليه الأصمعي عدم استحسانه وصف الخيل والخمر. حيث كان يدخل في الأرياف فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جدًا.

نقدم بعض كلمات قد توضح التحولات فيها:

قل أن يسلم الباحث في العامية من اتهامه بالشعوبية، فإذا كان مستشرقًا لحقته كل السهام التي تنال من نزاهة الاستشراق والمستشرقين، ويرجع ذلك لعدة عوامل منها: تمايز العاميات في البلدان العربية، بينما الفصحى واحدة تحرسها المعاجم والمجامع اللغوية. وينطق بها القرآن. ولن ننسى أن لسان أهل الجنة هي العربية.

من جملة ما استبعد شعر أمية بن الصلت فقد كان يحكي شعره قصص الأنبياء ويقرأ الكتب المتقدمة وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب كتسمية السماء: صاقورة وحاقورة والقمر ساهورا (راجع الشعر والشعراء 1-459)

كان سيبويه يستهجن بها جميعًا على خلاف الأصمعي، وقد كان دافع الأصمعي كأمثاله: صفاء النسب وربك الفصاحة بالبداوة، ومن تكديس لهجات القبائل والتواء ألسنتها شكلت بلبلة وتدميرًا للسان العربي الجميل، فبات لكل كلمة مثلاً 21 جمعًا مثال:

عبدون وعبيد وأعبد وعباد وعُبدان وعِبدان وعِبّدان ومَعبدة ومعابد وعِبداء وعِبدى وعُبد وعِبدى وعَبد، ومعبوداء وعباد وعُبود وعبيدون وعَبدة وعِبدة وأعبدة، وعَبدة وأعابد.

ومثال آخر:

منجنيق: اختلف القدامى اللغويين حول وزنها:

جاء في المحيط : قال الفراء وزنها مفعليل لقولهم نجنق مرة ونرشق أخرى، يريد أن الميم والنون الأولى والياء زوائد، وقال سيبويه: هو فعليل والميم من نفس الكلمة لقولهم في الجمع مجانيق، وفي التصغير مجينيق ولأنها (أي الميم) لو كانت زائدة والنون زائدة لاجتمعت زيادتان في أول الاسم، وهذا لا يكون في الأسماء ولا الصفات التي ليست على الأفعال المزيدة، ولو جعلت النون من نفس الكلمة صار الاسم رباعيًا والزيادات لا تلحق بنات

"بالنسبة للقدماء يبقى العربي القح الصريح من شوائب الدم والاختلاط بالأعاجم محل ثقة واحتكام"

"وقد أجمع القدماء على أن شعراء الطبقتين الأولى والثانية يصح الاحتجاج بشعرهم على اللغة، والنحو والصرف، ولكن في شيء من تحفظ حجب هذا الإجماع عن بعض الشعراء"

"وفي الشعر لا بأس بالأخذ من كلمات أصلها أعجمي لكنها عربت أو ترجمت، والتعريب لا يكون إلا لكلمات لا يوجد لها أصل في العربية، ويكون تعريبها من أجل ضبط وزنها"

الأربعة أولا إلا الأسماء الجارية على أفعالها نحو مدحرج.

وقبل الميم أصلية والنون زائدة، فهذه ثلاثة مذاهب في المنجنيق، وعندي أن الصحيح ما ذهب إليه الفرّاء، لأن الميم والنون موجودتان في الأصل الفارسي[9].

يقول الدكتور ضياء الدين الجماس حول استخدام بعض كلمات نافرة عن الفصحى: وفي الشعر لا بأس بالأخذ من كلمات أصلها أعجمي لكنها عربت أو ترجمت، والتعريب لا يكون إلا لكلمات لا يوجد لها أصل في العربية، ويكون تعريبها من أجل ضبط وزنها، فالتلفزيون لم يكن موجودًا في العربية، لكنه عرب بكلمة "تلفاز"، وأكثر التعريب الحديث طال الكلمات العلمية، لأنها جديدة على العربية، ومن هنا تبرز أهمية المجامع اللغوية وضرورة استنهاضها لإيجاد الأوزان، لعربية للكلمات الأعجمية الجديدة.

ملاحظة:

"في أحد المنتديات استعمل شاعر في قصيدة كلمة "أدوزن" فقلت له لمَ لم تستخدم كلمة "أوازن" بدلها؟!، فقال: صحيح أنها كلمة فرنسية لكن كلمة أوازن لا تعطي معنى أدوزن..."

من هنا تأتي أخطاء الاستخدام، على الأقل نعربها بوزن عربي إذا لم توجد في معاجمنا تلك الكلمة، وكيف لمن لا يعرف معناها أن يعرفه دون الرجوع للمعاجم.

وضبط الوزن لا يضبطه إلا نحوي صرفي متمكن[10].

ويقول الشاعر والناقد عبدالرحيم محمود: «لو اتبعنا منهج القدماء تموت اللغة، فاللغات تقتبس من بعضها بعضًا، فالإنجليزية أخذت منها، الأرز والسكر والأرض وكثير من الألفاظ العربية، اللغات تتلاقح، ولا داعي للرجوع للوراء والأصمعي حتى لا تموت اللغة العربية»[11].

نكمل من خلال المعجم المذكور لمعرفة أصول ولوج العامية عالمنا الفصيح:

القاعدة العامة التي يضعها لنا في آخر المقدمة للمعجم والتي فيها يحقق بعض معجمات كانت مائلة عن الحقيقة التاريخية لصالح قوم على حساب آخرين:

وكان الحكم في الأمر عنده: أن هناك تقاربًا كبيرًا بين السريانية والآرامية والعربية جعلت هناك تبادلاً بين ألفاظها برغم تقاربها، وقد أعطى مثالاً عن كتاب نخلة ومؤلفه: غرائب اللهجة اللبنانية السورية:

1 – فهناك أوزان جديدة مشتقة بزيادة حرف قبل فاء الكلمة، مثل زفعل: زلغط

2 – أوزان مشتقة بزيادة حرف بين فاء الفعل وعينه: فجعل: بحلق

3 – أوزان مشتقة بزيادة حرف بين عين الأصل ولامه: فعحل: شرشح

4 – أوزان مشتقة بزيادة حرف بعد لام الفعل: فعلح: شلحف

وإذن فالزجل الأندلسي لم يبدأ من فراغ أبدًا، وله جذور حقيقية، نحسبها كما وردت هنا[12].

يقول الدكتور ضياء الدين الجماس حول ذلك:

من الموشحات العامية:

متّعت قلبي عشقًا لحظات بابلية

لائمي منه موقى ولي ثغر مفلج

سكن مثواه قلبي بأبي لو قلبه

أو يرى روعة سرب قلما يأمن سربه

فأنا قد ضاع حسبي حسب عذالي وحسبه

من سمات الوجد حقًّا هذه يا عاذليه

وهي في دمعي غرقى زفرات تتوهج

فنلاحظ وجود الأقفال وأسماط البيوت، وتقابل أحرف الروي بين أشطار الأقفال ... فالنموذج مختلف عن المرويع...

كما أن عدد الأقفال والأبيات غير محدد بعدد معين (راجع موضوع بناء الموشحات تطبيقيًا)[13].

***

من جهة أخرى كثرت جهود الباحثين في رد العامي للفصيح، ليس كله بقدر ما حللوها ليتبين أصلها، وكيف انحرفت، ومنهم: أحمد رضا في كتابه: "الغريب الفصيح في العامي"، وهي بحوث نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، وقد رد فيها كمًّا لا بأس به من العامي للفصيح 1946م.

وياسين عبدالرحيم في موسوعته المسماة: موسوعة العامية السورية، ولا نظن أن هناك الكثير من الجهود الكثيرة والتي تعد جسرًا وأصلاً تصويبًا لرد العامي للفصيح بمنطقية مهمة[14].

يهمنا هنا تعريف رضا للفصحى والعامية، ومن ثم نحاول لاحقًا نقل بعض مجهوده للتوضيح:

قال ابن درستوية، وحكاه في المزهر:

ليس كل ما ترك الفصحاء استعماله بخطأ، فقد يتركون استعمال الفصيح لاستغنائهم عنه بفصيح آخر أو غير ذلك، وقال أيضًا: إنما الفصيح ما أفصح عن المعنى، واستقام لفظه على القياس لا ما كثر استعماله.

وقال السبكي: في عروس الأفراح: ينبغي أن تحمل الغرابة بالنسبة إلى العرب العرباء لا بالنسبة إلى استعمال الناس.

ويعرف العامية:

العاميّ منسوب إلى العامة، وهم عامة الناس ويقابلهم الخاصة، وقد بدأت بدخول غير العرب على دولة المسلمين.

لم يتحدث عن الفصيح والعامي من حيث الاستعمال، فيقول: لم تخرج العامية مع تحريفها وعدم ضبط قواعدها، عن كونها لغة عربية، والتحريف كان معروفًا باختلاف لغات العرب، وإن كان بين الفصيح والعامي أشدّ، وهو في العامي أظهر وأكثر وبه ألصق.

مثال:

أَرَم فلان اللقمة: إذا قطع رأسها بأسنانه، وهي فصيحة، ففي قاموس المحيط: أرمت ألسنة القوم، قطعتها، وأرم ما على المائدة: أكلها..

ومن هذا كثير[14].

وأخيرًا: سيكون لنا جولات جديدة بإذن الله عبر معطيات جديدة، توضح كيف وصلنا، وكيف حصل هذا الانزياح؟، والأهم أن نضع قاسمًا مشتركًا بين العامية والفصيح تجب عنا الأخطاء الفادحة التي تحصل حولنا، وبهذا نكون قد قمنا بمفيد ومهم.

ولنا عودة.

الهوامش:

للمزيد:

http://www.al-najaf.org/resalah/611-/dakhil.htm

روابط داعمة:

http://www.omferas.com/vb/t45568/
http://www.omferas.com/vb/t46506/

.يمكن مراجعة الروابط السابقة

للتحميل: http://www.omferas.com/vb/showthread.php?t=47916&p=193142#post193142

للتحميل:

http://www.omferas.com/vb/t47826/

راجع الرابط:

http://www.omferas.com/vb/t444902-/

اما عن الدخيل في القرآن:

http://www.maqalaty.com/%D8%A7%D984%%D985%%D8%B9%D8%B1%D8%A8-%D988%%D8%A7%D984%%D8%AF%D8%AE%D98%A%D984-%%D981%%D98%A-%D984%%D8%BA%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%B1%D8%A8-%D988%%D8%A7%D984%%D982%%D8%B1%D8%A7%D986-%%D8%A7%D984%%D983%%D8%B1%D98%A%D92768-85%

وهذا رابط آخر داعم:

http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=227146

.انظر كتابه: قضايا ومواقف ص 55-56 بتصرف

للمزيد:

http://www.omferas.com/vb/t47009/

المزيد: http://www.omferas.com/vb/showthread.php?t=47254&p=190431#post190431

.المصدر السابق ذاته

.المصدر السابق ذاته

راجع الرابط: http://www.omferas.com/vb/showthread.php?t=45568&p=190423#post190423

فن المرويع: http://www.omferas.com/vb/showthread.php?t=45567&p=182843#post182843

وللمزيد حول ما قاله الدكتور: http://www.omferas.com/vb/showthread.php?t=45568&p=190423#post190423

للتحميل:

http://www.omferas.com/vb/t47916/

بيت شعري

بيت شعري زفرة تجتاح زفرة
حسرة كبرى!! تراءت خلف حسرة!
وجراحات تغذي مهجتي
ودموعٌ من سويدائي وجمرة
عبرة حرى! تحيي أختها
عبرة حرى!! على آثار عبرة!
والفؤاد الحر يهدي عمره
ويرى في الظلمة الخرساء عمره!

×××××

بيت شعري نغمة مبحوحة
وأهازيجُ! وأشواقٌ! وحبرة
وشعورٌ طافح لا ينثني
وشعور طافح يعطي ويكره
وزهورٌ في بساتين المنى
والمنى في خافقي فكرٌ وفكره!
كلما أصغي إليه وحده
بث في ذاتي مع الأيام فجره!

* * *

لون الدرب الذي أمشي به
وأذاع الفن في فني وشعره!
يرسم السحر على أنغامه
وعلى أنغامه أقتات سحره
يفعم النفس جمالاً سائلاً
وجمالاً أرتدي في الله شكره
يكتب الحب! ويعلي شأنه
ومن الحب ضراعاتٌ وزفرة!

* * *

الورى في هذه الدنيا الورى
منظرٌ عذبٌ!! وشيطانٌ ونعرة
وهدوءٌ ماثلٌ لا ينتهي
وعراكٌ ومواويلٌ وسكرة
ونفورٌ نافرٌ من ذاته
وجموعٌ في الميادين ونبرة
جنة الدنيا تغني هاهنا
وأنا أشكو إلى الأيام كفره!

* * *



سالم بن رزيق بن عوض

جدة

اللوحة للفنان التشكيلي: موريس سابيرو



الفيتوري...شاعر الإنسانية المفقودة

حاز الشاعر الراحل محمد مفتاح الفيتوري مكانة متميزة في الأدب والشعر العربي، إذ يعد من أوائل مجددي المفردة والصورة والشكل في الشعر، فقد برز صوتًا شعريًا متفردا ومختلفًا منذ خمسينيات القرن الماضي وحتى رحيله، وشكلت الهويات التي ينتمي إليها أصواتًا متباينة داخل قصيدته، فهو ممجد لإفريقيا، ومغن بصوت العروبة وأحلامها وانكساراتها، وكان منفتحًا على الثقافات الإنسانية، ومناديًا بالتمرد.

منذ بدايته الشعرية أظهر محمد الفيتوري انتماءه الثقافي والعرقي والمصيري لإفريقيا السوداء كما تعبر هذه القصيدة من ديوانه الأول "أغاني إفريقيا" بوضوح.

بدأ الفيتوري رحلته مع الشعر في مطلع خمسينيات القرن الماضي حين ظهرت حركات النهوض التحرري في الوطن العربي وأمريكا اللاتينية، وانطلقت مجموعة من رواد "الشعر الحديث" بدر شاكر السياب – نازك الملائكة- عبد الوهاب البياتي- صلاح عبدالصبور – أدونيس – نزار قباني – خليل حاوي، تعبر عن أحلام ونضال الوطن العربي، فظهر بينهم صوت متفرد ليضيف بعدًا آخر للمشهد الشعري العربي، حيث راح الشاعر السوداني يستنهض – بحرارة – إفريقيا ويجسد همومها وقضاياها. ويصور في أشعاره محنة الإنسان الإفريقي وصراعه ضد العبودية والاستعمار وتوقه إلى التحرر، ويصبح هو "صوت إفريقيا" وشاعرها.

ولا غرو أن بشرته السوداء كانت الدافع لبلورة الهوية الإفريقية كردة فعل على بعض المواقف العنصرية تجاهه خاصة في مدينة الإسكندرية، المدينة الساحلية التي كان يعيش فيها زنوج يعملون خدمًا فقط.

شُغل الشاعر بإفريقيا في دواوينه الأولى، لكن شجون الوطن العربي لم تغب عن قصائده، ليشكل الفيتوري مع عدد من المجايلين له في السودان (محيي الدين فارس وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن) حالة فريدة من الانتماء للونين مختلفين وتاريخين يصعب المزج بينهما، النزعة الزنجية والولاء العربي.

تلك مأساة قرون غبرت
لم أعد أقبلها لم أعد
كيف يستعبد أرضي أبيض
كيف يستعبد أمسي وغدي
كيف يخبو عمري في سجنه
وجبال السجن من صنع يدي
أنا فلاح ولي الأرض التي
شربت تربتها من جسدي

وأصبح الفيتوري صاحب حضور قوي في الساحة الأدبية العربية والإفريقية بقصائده التي تتغنى بالإنسانية والحرية والكرامة والعدالة والحب أيضًا.

ولد محمد الفيتوري في 24 تشرين الثاني/نوفمبر عام

1936م في مدينة الجنينة بولاية غرب دارفور الحالية بالسودان. كانت جدته زنجية، ووالده من ليبيا. أما أمه فتعود أصولها إلى تاجر إفريقي كان يتاجر في الرقيق والعاج. وقد أثرت فيه هذه الجدة الزنجية تأثيرًا كبيرًا، إذ كانت تروي له القصص والأساطير الإفريقية. وانتقلت عائلته إلى الإسكندرية، التي نشأ وحفظ القرآن فيها، ثم انتقل إلى القاهرة حيث تخرج من كلية العلوم بجامعة الأزهر.

منذ طفولته كان هاجس القلق يرافقه. يومًا ما قال له والده: "ستقضي حياتك غريبًا عن وطنك"، وهو ما عايشه الفيتوري حتى وفاته. شغله الهم الإفريقي خاصة في الستينيات من القرن الماضي، في نهاية الحقبة الاستعمارية لإفريقيا.

كان الفيتوري أول شاعر عربي يعالج في شعره قضية الصراع بين الأبيض والأسود، متصديًا للفوارق العنصرية والاجتماعية في المجتمعات العربية. ففي دواوينه الثلاثة الأولى "أغاني إفريقيا" 1956 و"عاشق من إفريقيا" 1964، "اذكريني يا إفريقيا"، 1965، ومسرحيته الشعرية و"أحزان إفريقيا" 1966 التي أثارت اهتمامًا واسعًا في الوسط الأدبي والثقافي العربي، خاصة مواضيعها الجديدة، كانت القارة السوداء حاضرة بشكل كبير.

عندما بدأ الفيتوري النشر كان الهم القومي العربي هو السائد في الأدب العربي والمهيمن على الوعي الجماعي. لكن قصائده كانت خارجة عن المألوف كونه أراد فضح "واقعنا اللاإنساني الأسود". وبالطبع وجه له النقد من قبل القوى اليسارية والقومية، لأنه، وفق رأيهم، أهمل الصراع الطبقي الذي يجمع السود والبيض، لأن العنصرية في العالم العربي كانت وما زالت من التابوهات، من الموضوعات المحرمة، التي لا أحد يريد تسميتها باسمها وإثارة نقاش عام حولها. الفيتوري لفت النظر إلى هذه المسألة المهمة، لذلك كانت هذه القصائد جديدة على الأدب العربي.

انقطع الفيتوري عن الشعر في المدة بين 1955 إلى 1964، حيث عمل في الصحافة في السودان ومصر ولبنان. وعاش حياة صاخبة لم تعرف الهدوء، إذ كان في صراع دائم مع الحياة السياسية، حيث اهتم في شعره بالقضايا الوطنية العربية، فكتب قصائد سياسية عن السودان وفلسطين ولبنان وليبيا.

وكما كان متوقعًا جلبت له هذه القصائد المصاعب، فسحب منه الرئيس النميري جنسيته السودانية عام 1974 بسبب معارضته لنظامه، ثم منحه القذافي الجنسية الليبية وجواز سفر دبلوماسيًا وبسقوط نظام القذافي سحبت منه السلطات الليبية الجديدة جواز السفر الليبي فأقام بالمغرب. لكن الحكومة السودانية أعادت له جنسيته ومنحته جواز سفر دبلوماسيًا عام



2014.

عمل الفيتوري في الصحافة محررًا صحافيًا لمجلة "آخر ساعة"، وترأس مجلات منها: "مجلة الإذاعة والتلفزيون"، ومجلة "الأسبوع الأدبية"، وشارك في إصدار مجلة "الديار"، وأسس دارًا للنشر في بيروت عام 1981.

تقلد الفيتوري مناصب دبلوماسية وسياسية متعددة، فعمل مستشارًا إعلاميًا بجامعة الدول العربية في ستينيات القرن الماضي، ثم مستشارًا ثقافيًا في سفارة ليبيا بإيطاليا، وسفيرًا بالسفارة الليبية في بيروت بلبنان، ومستشارًا للشؤون السياسية والإعلامية بسفارة ليبيا في المغرب.

ولا شك أن مهنته بصفته دبلوماسيًا سهلت له السفر الدائم، ومكنته من العيش في العديد من المدن العربية مثل الإسكندرية والقاهرة والخرطوم ودمشق وبنغازي وطرابلس والرباط. لكن بيروت هي المحطة الأساسية في حياته، فقد عشقها وكتب فيها أروع قصائده، وربطته صداقة مع العديد من الشعراء هناك، وخاصة مع الرحابنة وفيروز.

أنت في لبنان...
والشعر له في ربى لبنان
عرش ومقام
شاده الأخطل قصرًا عاليًا
يزلق الضوء عليه والغمام
وتبيت الشمس في ذروته
كلما داعب عينيها المنام
أنت في لبنان...
والخلد هنا
والرجال العبقريون أقاموا
حملوا الكون على أكتافهم
ورعوا غربته وهو غلام

وللمفارقة لم يحول ذلك من اختطافه في أثناء الحرب الأهلية من قبل الميليشيات في بيروت.

يقول الفيتوري: «عندما أكون في مصر أصبح مصريًا وفي ليبيا أكون ليبيًا، وهكذا... لذلك لم تكن قصيدتي «منفى»، فأنا دائمًا أشعر بالانتماء إلى كل أرض عربية أعيش عليها».

وتشابهت تجربة الفيتوري إلى حد بعيد مع تجربة الروائي السوداني الطيب صالح، واحتل في قلوب السودانيين المكانة نفسها، وقد قُدّر لكل منها أن يعبّر عن بلاده، ويصبح صوتها، برغم الابتعاد الجغرافي عنها، ومع ذلك فقد تسنى لهما اللقاء في ثمانينيات القرن الماضي في مدينة أصيلة، وكان يُروى بين الأدباء أن السودان تعرف بأنها بلد الطيب صالح، والفيتوري.

تنقله الدائم بين البلدان العربية ولّدت لديه إحساسًا بالغربة، التي شكّلت أبرز ملامح شخصيته ومنحته لونًا مميزًا في أدبه وشعره. كما كان له حضور قوي في الحركة الشعرية العربية الحديثة، الذي يعد أحد روادها المجددين في بنية الإيقاع الشعري. فالشعر بالنسبة للفيتوري شعر، والروح الشعرية برأيه هي التي تحدد قيمة القصيدة.

وفي استجواب جرى مع المجلة العراقية «ألف باء» صرح الفيتوري بأنه، ومنذ سنوات، يقيم بروما حيث ترجمت بعض مختاراته الشعرية إلى الإيطالية على يد المستشرق الإيطالي جبريالي»

يُعد الفيتوري الشاعر السوداني الوحيد الذي اشتهر في كل العالم العربي. لغته العربية تميزت بمتانتها وعمقها وهذا ساعد في أن يكون شعره غنائيًا.

لقب الفيتوري بشاعر إفريقيا والعروبة، وطالما ارتبط شعره بالكفاح ضد الاستعمار في الدول العربية وخصوصًا الإفريقية منها، وخصص لهذا الجانب عدة مجموعات شعرية، وهو الشاعر العربي الوحيد الذي كان له هذا الارتباط القوي والراسخ بهموم القارة السمراء.

الفجر يدك جدار الظلمة
فاسمع ألحان النصر
ها هي ذي الظلمة تداعى
تساقط.. تهوي في ذعر
ها هو ذا شعبي ينهض من إغمائه
عاري الصدر

كتب عنه الناقد الماركسي المصري محمود أمين العالم: «لقد أخذ الشاعر (إفريقيا) بلون مشاعره، ويوحد تاريخه بتاريخها، ويخلع عليها مأساته الخاصة، ويبصر من خلالها خلاصه المنشود... ويتخلص من أزماته الباطنية ويخلع عليها صراعه النفسي المرير...».

تُعد قصيدته، "أصبح الصبح" واحدة من أجمل قصائده، وقد أدرجت في مناهج دراسية لبعض الدول العربية، حيث يقول:

أصبح الصبح
ولا السجن ولا السجان باقي
وإذا الفجر جناحان يرفان عليك
وإذا الحزن الذي كحل تلك المآقي
والذي شد وثاقًا لوثاق
والذي بعثرنا في كل وادي
فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي
أصبح الصبح
وها نحن مع النور التقينا
التقى جيل البطولات
بجيل التضحيات
التقى كل شهيد
قهر الظلم ومات
بشهيد لم يزل يبذر في الأرض
بذور الذكريات
أبدًا ما هنت يا سوداننا يومًا علينا
بالذي أصبح شمسًا في يدينا
وغناءً عاطرًا تعدو به الريح
فتختال الهوينى
من كل قلب يا بلادي
فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي

ويُعد الفيتوري جزءًا من الحركة الأدبية العربية المعاصرة، ومن رواد الشعر الحر الحديث، ففي قصيدة



«تحت الأمطار» نجده يتحرر من الأغراض القديمة للشعر كالوصف والغزل، ويهجر الأوزان والقافية، ليعبر عن وجدان وتجربة ذاتية يشعر بها، وغالبًا ما يركّز شعره على الجوانب التأملية، ليعكس رؤيته الخاصة المجردة تجاه الأشياء من حوله مستخدمًا أدوات البلاغة والفصاحة التقليدية والإبداعية.

تنوّعت التجربة الشعرية للفيتوري تنوّعًا لافتًا للنظر، لا على المستوى الكمّي فحسب؛ إذ هو شاعر مخضرم عاصر أجيالاً شعرية متنوعة ما بين قصيدة التفعيلة والشعر الحر وقصيدة النثر، بل على المستوى النّوعي أيضًا، حيث استطاعت قصيدته أن تبدع لنفسها مسارًا خاصًا، جمعت فيه بين طاقة التفعيلة وبراءة الشعر الحر وتمرّد القصيدة النثرية، وهذا أمر واضح للعيان في تنوّع دواوينه التي بدأت من: "أغاني إفريقيا (1955)"، "عاشق من إفريقيا (1964)"، "اذكريني يا إفريقيا (1965)"، "أحزان إفريقيا (1966)"، "البطل والثورة والمشنقة (1968)"، "سقوط دبشليم (1969)"، "سولارا (مسرحية شعرية) (1970)"، "معزوفة درويش متجول (1971)"، "ثورة عمر المختار (1973)"، "أقوال شاهد إثبات"، "ابتسمي حتى تمر الخيل (1975)"، "عصفورة الدم (1983)"، "شرق الشمس... غرب القمر (1985)"، "يأتي العاشقون إليك (1989)"، "قوس الليل... قوس النهار (1994)"، "أغصان الليل عليك"، "يوسف بن تاشفين (مسرحية) (1997)"، "الشاعر واللعبة (مسرحية) (1997)"، "نار في رماد الأشياء"، "عريان يرقص في الشمس (2005)".

لم يكتب الفيتوري الذي أصدر أكثر من عشرين ديوانًا شعريًا قصائد سياسية فقط، بل كتب أشعارًا صوفية وعاطفية ورومانسية، ففي قصيدة «معزوفة درويش متجول» يقول الفيتوري:

"في حضرة من أهوى عبثت بي الأشواق
حدقت بلا وجه ورقصت بلا ساق
وزحمت براياتي وطبولي الآفاق
عشقي يفني عشقي وفنائي استغراق
مملوكك لكني سلطان العشاق"

هرب الفيتوري من بعض الحكام العرب خاصة من القذافي وصدام حسين ومن قبل السادات، ومنح بعض الأوسمة، ولكنه من بعد كتب:

"إن صوتي مشنقة للطغاة جميعًا ولا نادمًا
إن روحي مثقلة بالغضب
كل طاغية هو صنم
دمية من خشب."

وبين أوقات التألق والأوقات التي غاب فيها عن المشهد بسبب الإحباطات، التي عانى منها أيضًا أدباء وشعراء جيله في التسعينيات خاصة، ظل الفيتوري يكتب شعره عن هموم الوطن العربي حتى آخر دواوينه «عريانًا يرقص تحت الشمس» الصادر في بيروت العام 2005، الذي توقف بعده عن التدفق شعرًا، وتمكّن منه المرض، وانزوى في منزله في مدينة تمارة المغربية قرب الرباط حتى وافته المنية ليرقد وكتب في إحدى قصائده كرثاء لنفسه:

"سأرقد في كل شبر من الأرض
أرقد كالماء في جسد النيل
أرقد كالشمس فوق
حقول بلادي
مثلي أنا ليس يسكن قبرًا..."

توفي محمد الفيتوري في يوم الجمعة 24 نيسان/ أبريل 2015م، في المغرب التي كان يعيش فيها مع زوجته المغربية عن عمر ناهز 85 عامًا بعد صراع طويل ومرير مع المرض.

حصل الفيتوري على جوائز متعددة منها: "وسام الفاتح الليبي" و"الوسام الذهبي للعلوم والفنون والآداب" بالسودان.

قصص قصيرة جداً

عمران عز الدين

قاص من سوريا

اكتشاف

سيكتشف أحفادي، في حياة قادمة، أن جدهم الأكبر، لم يكن إلا ظلاً لفأس. أحفادي، سيجتمعون في الحديقة، وهم يندبون حظهم، متمنين، لو كان جدهم الأكبر، ظلاً لشجرة.

صرخة رأل

. ما بال هذه الهياكل البشريّة وقد طمرَت رؤوسها في الرّمال؟

يتساءلُ رألٌ فتح عينيه للتو وهو يصفق جناحيه بتمرد لم يعتده أجداده.

فصول هدية الملك

إلى ريجيس توبريه

رسم فنانٌ موهوبٌ على لوحته سماء مُلبدة بالغيوم. ثمّ أهداها في أحد أسفاره لملك اتصلَ به في اليوم الثّاني، مُعنفًا إياه، وقائلاً: تعال، وخذ لوحتك التي لم تجعلني أهنأ بالنوم ليلة البارحة، لأنها كانت تبرق وترعد !.

ذعر

كان نُباحًا
لا ...كان عواءً
لا لا... بل كان زئيرًا
وهجعَتْ مذعورة كلّ الكائنات.
وقبل أنْ يتوارى ثانيةً
ابتسمَ الشّرغوف الصّغير:
. كنتُ أتدربُ على التقيق !.
جدتي لا تقل شأنًا عن ماركيز
هسسسسسسسسسسس
جدتي تشاهد نشرة الأخبار على قناة العربية

***

تنتهي النشرة، فتتنهد وتقول:

. (إن سوريا رجعت لورا شي خمسين سنة).

تشعل جدتي التي أشبهها بـ "أورسولا" ماركيز، ثمّ تسحب سيجارة من علبة دخاني، أشعلها لها، وتضيف من بين تلك السعلات، وهي ترتشف قهوتها الصباحيّة:

. (العصملي فل وبقت سوريا ، الفرنساوي فل وبقت سوريا ، أبوك اللي كان يشتغل في السياسة مات وبقت سوريا).

أبتسم، وأقول لها:

. أنت تاريخ يا جدتي، وتذكريتني بماركيز.

تعض بتحدٍّ على عقب سيجارتها، وتنفث دخانها يمينًا وشمالاً، ثم تقول:

. فشر بالتاريخ وكاريز تبعك.

التباس

بينما كان عبد الستار يسير في الشّارع، متأبطًا كتابًا يحمل عنوان: "الفرق الجوهريّ بين الحيوانيّ والآدميّ".

أوقفته مذيعة حسناء، مصبوغة من رأسها حتى أخمص قدميها، وتعمل في برنامجٍ تلفزيونيٍّ بعنوان: "أمنية لكلّ مواطن". وسألته:

. ما هي الأمنيّة التي تتوق لتحقيقها أيها المواطن؟

. أتمنى من العاملين في جمعيات حقوق الإنسان عندنا، أن يجتمعوا لمرّةٍ واحدةٍ مع العاملين في جمعيات حقوق الحيوان عندهم.

. هذا طلبٌ غريبٌ حقًّا، لكن لا عليك. لمَ هذه الأمنيّة تحديدًا؟!

. لأنهم، لو اجتمعوا بهم لمرّةٍ واحدةٍ فقط، لتغيرت الحال كثيرًا.

. ثق أيها المواطن أنّنا سنسعى في برنامجنا التلفزيونيّ لتحقيق أمنيتك، ولكن ما هي الجمعيّة التي تدافع عن حقوق أمثالك؟

. ماذا تقصدين؟

. أقصد جمعيّة لحقوق الإنسان أم لحقوق ......؟!

فانصرفَ عبد الستار بسرعةٍ، لا يلوي على شيء، وقد التبسَ الأمر عليه، ما إذا كانَ يسير على رجلين، أم على قوائم أربعة.

طفل الطابور

الطفل الذي يتفقد ألعابه قبل أن ينام
الطفل الذي ألِفَ الدمار
الطفل الذي يحكم إغلاق باب البيت كلّ مساء
الطفل الذي يستيقظ مذعورًا في جوف الليل
هذا الطفل دون غيره
سينتظر بكلّ وسامته
على طابور الحتف
بين غارةٍ وأخرى.



خط النجمة البيضاء في رواية الشوك يزهر للروائي هاري مارتينسون

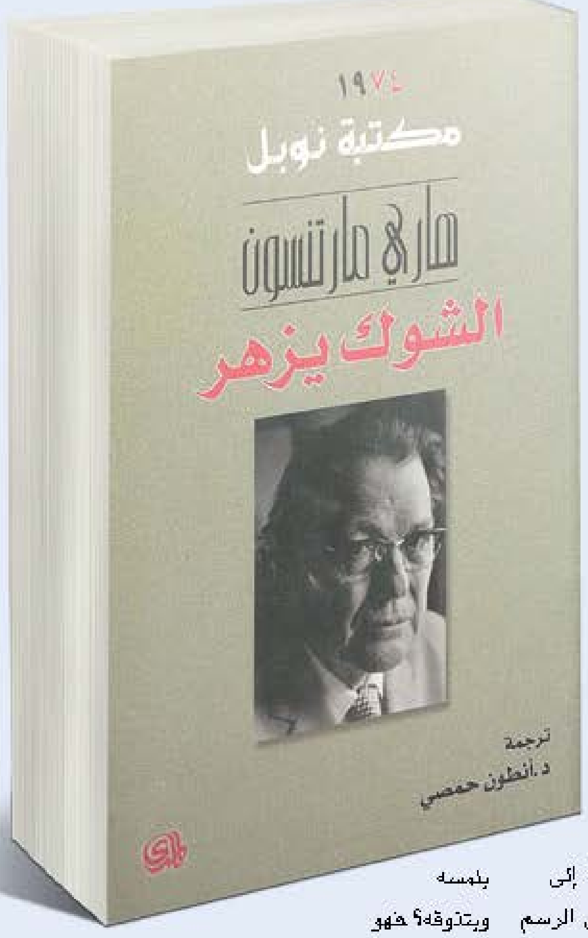
بقلم: ضحى عبد الرؤوف المل

لبنان

نتجول في عوالم أنفسنا بحثًا عن الطفولة الفارقة في أحضان نفتقد فيها لطعم الحنان الأسري. هذا ما يحاول اختصاره الروائي "هاري مارتينسون" في روايته "الشوك يزهر"، التي ترجمها إلى العربية دكتور "أنطوان حمصي" ساعيًا لمنح الرواية لغة هي بمثابة جسر معنوي ينقل إلينا بنية النص الروائي المملوء بالصور التخيلية القادرة على توضيح أبعاد المضمون الروائي أو ما يرمي إليه "هاري مارتينسون" من أن للطفولة حقها في تكوين شخصية الإنسان. فهي التي ترسم له خطوط النهاية التي بدأ بها الحياة منذ صرخته الأولى. كما هي الحال مع "تزايد ارتفاع صراخ سفن الصغير" وفي المقابل الآخر صياغة للأضداد حبكها بفن روائي يميل إلى الانطباعات التي يكتشف من خلالها القارىء عالمه الطفولي بالتزامن مع مارتان الذي أصبح "أكثر هدوءًا وتيقظًا" حاملاً مع مارتان القلق الجديد الذي استسلم لمخاوف تسكن نبضه وأفكاره وروحه وكل وجوده.

يستشف مارتان من ثنايا ذاكرته تفاصيل طفولة لم تكن سوى متاهة دكة بتكرر النوم عليها في أزمنة وأمكنة تركت أثرها في نفسه. ولم تترك أثرًا في نفوس الآخرين لأنه "عندما كان وحده كان يحمل معه شيئًا من الآخرين" فهل حاول "هاري مارتينسون" كتابة مذكراته الطفولية كريبب بلدية بأسلوب روائي. حيث إن الطفل الواعي في داخله تأثر بقوة فقدانه تيرًا. وفي لحظة سمع فيها كلامًا بصيغة الماضي؟..

أبعاد اجتماعية تناول فيها "هاري مارتينسون" جوانب حياة طفل تنقل من رعاية إلى رعاية بعد أن ولد في أسرة تعاني من الفقر. فالصدمات المتتالية في حياته لم تترك له حرية الاختيارات. لبيئة اجتماعية أحب العيش فيها.



فالواقع المعيشي يتأزم تبعًا للتسلسل الروائي المحبوك اجتماعيًّا بقدرات روائي أظهر أسلوبًا واقعيًّا لم يخلو من بعض الصور السريالية، حيث مخيلة الطفل التي تخاف من الأوهام أو من التصورات التي تسبب إيجاد كائنات شبحية قد تزداد أو تنقص، لأنها تتعلق بطريقة معالجتها حيث تفهم الأخت هذه الحالة، ليكشف في الرواية هذا الجانب النفسي أو بالأحرى ما يدور داخل نفس الطفل من مخاوف وهواجس تزول بزوال غياب الحنان، الإحساس بالأمن حيث إن الأخت الكبرى كانت ترافق الرؤية الشبحية، لتقول له دائمًا هذه ستائر أو هذا صوتي. وفي هذا تخيلات منطقية مقنعة للقارئ، حيث لكل منا في مراحل طفولته هواجسه التي يحتفظ بها، والبعض ما زال يحمل فوبيا معينة من شيء ما. فالصورة السريالية تنقلت في فصول الرواية بأسلوب تفاعلي مرهف الإحساس، وكلمات تصويرية حبكها بفن جمع الواقع بالخيال والروائي بالطفل المتغلغل فيه، حيث "سجادات تعيش، أقمشة تتحول إلى أقاع، لم يكونا يعلمان أنه كان على أنيز أن تدافع عنه ضد التخيلات التي كانت تزحف قرب ساقيه لدى أدنى بقعة نور ترقص على الأرض."

تتجسد المفارقات منذ البداية حيث وفاة الأب المؤثرة، ومرض الأخت بالسل، وهروب الأم إلى كاليفورنيا، ومن ثم رعاية البلدية له، وكل هذا حدث بعد سقوطه على غطاء تابوت أبوه، وكأن ما توقعه أهل البلدة بشأن هذه الحادثة كان بمثابة نذير شؤم قد حدث بالفعل، ليحيل الخرافات إلى حقائق قد تحدث في ذاكرة الطفل التي تلتقط أي حدث زمني وقع له في مكان ما بمثابة ومضة لا ينساها، بل، وكأن الذاكرة تعج بتفاصيل تحاصره في أمكنة متعددة انتقل منها وإليها في رواية رسم فيها "هاري مارتينسون" مشاهد فنية مؤثرة تخيليًّا "فبقي هذا المشهد والتصنع الأخرق الذي ميزه إحدى أشق الذكريات في حياته".

تحولات اجتماعية ومفاهيم موضوعية تعلمها في مدرسة الحياة القاسية، وفي بيت طفولة أحس فيه بالبرد بل؛ وحتى التشبيه لسرير البارد الذي يصعب بث الحرارة فيه، وهو يرمز إلى فقدان حضن الأم الدافئ في مرحلة يحتاجها كل طفل لينمو نموًّا سليمًا. وهنا وصف في كلمات تشتعل بحزن الأم، وهي تتوجه لبيت الخياطة بعد وفاة الوالد لخياطة ثياب الحداد فالأم كانت "تحميهم تحت السقوف السوداء الخمسة كما لو كانوا تحت جناحي غراب" وفي الوصف دلالات ابهامية توحي بالمعنى المتعلق بالأم حيث المظلة تشبه السقوف. والأم تضم كل هذا في رؤيته الخرافية المقيدة بمشهد حزين في رواية تخيلية اجتماعية.

يرصد "هاري مارتينسون" في سياقات بنية نصه الروائي، صدمات تكررت في أكثر من مشهد ارتبط بالصغير مارتان، المولود بين شقيقات اختلفت طباعهن من حيث الحنان والرعاية له، وبين أم وأب لكل منهما سلبيات بدأت منذ معرفتهم الأولى ببعضهم، حيث المواقف العصبية التي كان يشعر بها أبوه، وهجرانه لزوجته، فهو لم يكتشف الحياة إلا عند اقتراب الموت منه، وهنا تكلم بلسان والده الذي لم يستسلم للموت إلا جالسًا على كرسيه "فاكتشافه الأخير: الإنسان وحيد وحتى لو عاش المرء في صحبة أو في أسرة، فإن قدره وحيد متجمد".

لغة سردية وصفية تتخللها شاعرية مزجها بمستويات تصويرية مختلفة، سعى من خلالها إلى تبسيط أفكاره من خلال التشبيه والمجاز، وحتى الرسم بالكلمات التي تمنح الذهن عصفًا مثيرًا للوجدان، حيث تشبع حواس القارئ جماليًّا في تعابير هي بمثابة فضاءات تخيلية، تتوهج فيها المعاني المتحررة من قيود لغة ترجمها دكتور حمصي، وربما فقد فيها المعنى بعض الأجزاء من توهجاته، إلا أن كل ذلك لم يؤثر على الصياغة الروائية بل منحها مميزات مهمة من حيث التنوع في تركيب بنية النص الروائي، والحوارات الداخلية الفنية بتفاصيل اجتماعية وأسرية اعتمد فيها على تبسيط الحبكة، لتؤدي ليونة تخيلية قادرة على الإمساك بالقارئ المتوسط والقارئ الجيد على السواء " كانت دائرة النور تتحول إلى هالة واقعة على الأرض كعين سطحية وعذبة تتأمل السقف "ليثير تصويرات تطغى على روتين المفارقات التي سارت ضمن وضع اجتماعي نمطي لأسرة عكر صفوها الفقر والقدر المشاكس حتى لطفل لم يتجاوز سنته الثالثة.

أسلوب خاص يجذبك إلى عمق المضمون الروائي حيث العنصر الأساسي هو مارتان، وكأنه يمارس لعبة الحياة على "طفل ظل طفلاً أكثر مما ينبغي" مستمدًا من النص الروائي تماسكه في تخيلات لم تمح تفاصيل واقع برز كمؤدب أو مهذب حتى لحواس طفولية، عاشت في أمكنة تسببت له بتلوث سمعي أعاد الزمن بعدها تهذيب أذنه تدريجيًّا، وشحذ انتباهه وأصبح أكثر عنادًا، فهل يتأثر الطفل في مراحله الأولى بكل ما يسمعه أو يراه، وحتى ما يلمسه ويتذوقه؟ فهو هنا سرعان ما اكتشف وهو يمشي بصورة غريبة "إن في الطفولة شيئًا مرنًا، إنها تستطيع أن تمتد إلى ما وراء حدودها الخاصة، وتشمل أيضًا أعمار الناس الأكبر سنًّا، وهنا إيحاءات بأن مارتان ستشمل مراحله الروائية كل تفاصيل عمره، ليمتد الزمن الروائي إلى ما بعد الروائية، لأننا هنا نستكمل نمو مارتان حتى يتكون كما في مراحل تنقلاته من مزرعة الى مزرعة.

رواية اجتماعية سردية حكائية تفتش في دهاليزها عن اجتماعيات تكتمل فيها كل عناصر الحياة، وعن كل ما هو مخبوء في خلايا الحياة التي عايشها طفل لم تكتمل فيه ملامح الرجولة، فنسيج الرواية هو بمثابة مساحة زمنية افترشها "هاري مارتينسون" وترك أبطاله يعيشون عليها الواقع الروائي المتخيل، والمستمد من تفاصيل طفولية "كان هو نفسه بين الحياة والحياة، وبين الولادة والتضج في نصف حياة الطفولة الممنوع "قبل أن ينتزع في آخر الرواية ما لم يرغب في سماعه كي لا يستبقيه في سمع تلوث أكثر من مرة، فهل عاشت هذه الرواية خارج الزمن أم إنها " تمثل الدراما الخاصة بها في مجرى الزمن".



بين حضارتين:
مفارقات بين الشرق والغرب
(شهادة طبيب عربي في الغرب)

بين فلسفتين:
بين تأليه الله وتأليه الإنسان 1



البروفيسور: مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشرف على:
معهد تاريخ الطب والعلوم
عند العرب والمسلمين
(www.ihams.org)
لندن

للشرق العربي الإسلامي فضل كبير على الغرب الأوروبي النصراني (المُلحد حاليًّا): فضل في العلوم جميعها (كالطب والفلك)، بل وفي فلسفة الحياة أيضًا.

وفي الشرق كان (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وكانت (الحكمة ضالّة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها)، وكان (رأس الحكمة مخافة الله)، كان شعار التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) مهيمنًا معنىً وروحًا وتطبيقًا على أصقاع العالم الإسلامي كلها من تخوم الصين (شرق آسيا) وحتى جبال أطلس في المغرب (غرب أفريقيا)، ومن بلاد البلغار والفايكنغ والروس وبلاد الأندلس (قلب وشمال أوروبا) وحتى رأس الرجاء الصالح (جنوب أفريقيا). كانت العبودية لله تشكّل حرية الإنسان الحقيقية في مجالات الفكر والحياة (لا ديمقراطية العصر المزيّفة). فالذي يُطأطئ رأسه لله الخالق المبدع لا يُمرّغ جبينَه للمخلوق الضعيف أبدًا.

وكان الأُنسُ كلّ الأنس بمعرفة أسماء الله الحسنى يبعث في القلب راحة وطمأنينة بالقرب من الله القوي العزيز خالق الأكوان، جبار السموات والأرض؛ بل كانت معرفة الله تشكّل تناغمًا وتجانسًا مع الوجود ومع الطبيعة ومع خالق الوجود والطبيعة. (في المفهوم العربي الإسلامي الطبيعة هي الخليقة، كما عرّفها الفيروزآبادي صاحب «القاموس المحيط»: فالطبيعة في فلسفة المسلمين العرب هي مرادف لخلق الله). وكان هذا التآلف والقرب من الله فالق الأصباح، مكوّر الليل على النهار، وفالق الحبّ والنوى، وفاطر الإنسان، هو الذي يستحثّ العلماء والفلكيين والأطباء والفلاسفة ألاّ يكتموا علمهم، وأن يكتبوا نتاجاتهم العلمية دومًا فـ (زكاة العلم التعليم) و (العلمُ رَحِمٌ بين أهله، ملعونٌ من قطعه). ثم إن هذه الدنيا الفانية هي دار امتحان وعمل، ولا بد من التزود منها للآخرة: الدار الباقية دار الجزاء في جنات النعيم التي أعدّ الله فيها لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعَت، ولا خطرَ على قلب بشر.

كان علماء الإسلام قاطبةً، أطباءً كانوا أو فلكيين أو فلاسفة يبتدئون نتاجاتهم العلمية دومًا (بسم الله الرحمن الرحيم) ومن بعد حمد الله والصلاة على رسول الله، يبتدئون حديثهم التفصيلي عن مضمون كتبهم العلمية، ولا ينتهي كتاب أحدٍ منهم إلاّ بخاتمة الحمد لله تعالى والصلوات المباركات على المصطفى.

كانت العربية هي الوسط اللغوي للتعبير في 32 حقلاً من حقول المعرفة والعلوم أيام العباسيين:

يقول العلامة الشيخ محمد بن الطاهر عاشور رحمه الله (عن الدور العلمي والعالمي للغة العربية): «ومهما تقدم إلى هنا: تعلم أن العلوم التي كانت تدرس وتدون يومئذ تنتهي إلى اثنين وثلاثين علماً (تُدَرّسُ بالعربيّة) هي: التفسير، والحديث، والسيرة، واللغة، والنحو، والصرف، والتصوف، والعروض، والفقه وأصوله، والتاريخ، والطب، وآداب العرب، والبلاغة، والفلك، والمنطق، والفلسفة، والهندسة، والحساب، والهيئة، والجغرافيا، والموسيقى،

وعلم الحيوان، والطبيعة، والرواية والقصص، والكلام، والصيدلة، والكيمياء، والفلاحة، والمساحة، والجبر، وجرّ الأثقال والتحرك. وتتبعها علوم تتفرع عن بعضها مثل: مصطلح الحديث، والجدل، وآداب البحث، ونقد الشعر.

وعلم الهيئة المشار إليه آنفًا، كان علمًا عربيًا صرفًا ابتكره المسلمون، وهو يختلف عن علم الفلك في أنه يبحث أحوال الأجرام السماوية من أجل معرفة الجهات، من أجل تحديد موقع مكة (جهة القبلة) لإقامة الصلاة في تلك البلاد، ومن أجل تعيين مواقيت الصلاة اليومية، مع تقدير الأيام والشهور والسنوات واستخراج التقاويم السنوية، إضافةً إلى رصد هلال رمضان من أجل الصيام، وتعيين الأهلة وأحوال الشمس والقمر والنجوم، ومعرفة الكسوف والخسوف.

كان العرب والمسلمون بحقّ قادةً وسادة العالم في العلوم كلها ومرشّديها ومطوّريها؛ وكانت حضارة الشرق الإسلامية تقوم على دعامتي العلم والإيمان. (للاستزادة يُراجع: معجم الفردوس، الجزء الأول، الفصل الأول).

وحتى حين انحرفت بوصلة العقيدة الإسلامية بعض الشئ بلوثة التراجم اليونانية (إذ كان لا بد من الاستفادة من علوم اليونان البحتة)، ظل الإسلام الجامع مهيمنًا بشموليته وسماحته وبساطة مبادئه (وهي سرّ قوته)، لكن تأثير هذه التراجم على أصحاب الكلام والفلسفة المسلمين (أمثال الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا) في مسائل مثل: أزلية العالم (من القِدَم)؛ وأبدية العالم؛ وإنكارهم البعث؛ وحشر الأجساد؛ والتلذذ والتألم بالجنة والنار، حدا بالعالم أبو الحامد الغزالي البغدادي (1058–1111م) للتصدي بكل حزم للفلاسفة آنذاك، فشنّ عليهم حملةً شعواء في كتابه الماتع (تهافت الفلاسفة – Incoherence of philosophers)، والذي شكّل مَعلمًا فيصليًا في تاريخ الفلسفة العالمية. ولم يستطع الردّ على الغزالي أحدٌ من عصره: لا من الشرق ولا من الغرب، سوى عالِمٌ آخر من عصر متأخر هو الطبيب الفقيه الفيلسوف ابن رشد الأندلسي (1126–1198م) بعد 200 سنة تقريبًا في كتابه الرائع (تهافت التهافت – Incoherence of incoherence). حيث اعتبر أنّ الفلاسفة قد أُسيء فهمهم، لأنّ الفلسفةَ هي الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن، ورأس الحكمة مخافة الله. فلا بد إذن من توافق الفلسفة مع الإسلام.

وهذا يؤكد هيمنة العالم الإسلامي وإحكامه واستحواذه، بل واحتكاره الكامل لعلوم الفلسفة آنذاك.

وبسبب دفاع ابن رشد عن فلاسفة اليونان، رسم فنّان النهضة الأوروبية: الإيطالي رافائيل صورةً ابن رشد ضمن حشد الفلاسفة في لوحة "مدرسة أثينا" (أكملها بين عامي 1509 – 1511 م) في الفاتيكان.

كان العلماء والأطباء في العالم الإسلامي (وأغلبهم فلاسفةٌ أيضًا كابن سينا وابن رشد وابن طفيل الأندلسي)



مدرسة أثينا أو The School of Athens (Scuola di Atene) رائعة الفنان الإيطالي رافائيل التي تمثل الفلسفة وتجسيد روح النهضة الأوروبية. ويُرى (في اليسار) ابن رشد لابسًا العمامة يتطلع بفضول من خلف فيثاغورس (الأصلع) وهو يكتب كتابه.

موضع احترام وتقدير الخليفة شخصيًا، وكان هناك توافق وانسجام بين الخليفة والعلماء ذوي الاختصاص الذين يقومون بجهد البحث العلمي الصحيح للوصول لنتائج صحيحة، يقدمونها للخليفة ليوظفها في خدمة البلاد والعباد. كان الخليفة هو الراعي للعلماء، والمحتضن لهم بوفر مناخ العمل العلمي ومتطلباته. فهذا الخليفة المأمون كان هو الذي رعى علماء الرياضيات لحساب قطر الأرض (لأنها كروية). بل إن الخليفة العباسي وأمير المؤمنين (المعتصم بالله) بجلال قدره وعظيم سلطانه، كان يأتي بالقردة من بلاد النوبة لطبيبه الخاص (يوحنا ابن ماسويه) ليشرّحها في قاعة التشريح على ضفاف دجلة، ليكتب له كتابًا في التشريح يفوق ما كتبه جالينوس! (لاحظ التسامح الديني الفريد، حيث أن الخليفة المسلم هو الذي يزود طبيبه النصراني بما يريد).

وببزوغ نجم الطبيب البارع أبي بكر الرازي (860–932م) في بغداد (عاصمة العالم الإسلامي آنذاك) وتألقه وانتشار شهرته في الأصقاع، صار الرازي مهيمنًا على حقول الطب وعلى المستوى العالمي آنذاك: حيث كتب كتابه الناقد: "شكوك على جالينوس" (فاستحقّ بذلك ان يكون أول أبٍ للنقد الطبي في العالم) (The First Father of Medical Critique in the World).

كما أنه كان أول من استحدث طريقة تدريس طلبة الطب سريريًا على المرضى في المستشفى (فاستحقّ أن يكون حقًا أبو الطب والتعليم السريري Father of Clinical Medicine and Clinical Education). وهو أول من اكتشف الكحول وصنّعه في مختبره الملحق بالمستشفى في بغداد واستخدمه في العلاج (فاستحقّ أن يكون حقًا أبو الطب التجريبي Father of Experimental Medicine).

وكتب: (مقالة في العلة التي من أجلها يعرض الزكام لأبي زيد البلخي في فصل الربيع عند شمه الورد). فكان أول من اكتشف حساسية الأنف لحبوب الطلع والورود في فصل الربيع (Allergic Rhinitis) فاستحقّ أن يكون أبو الحساسية وطب المناعة Father of Allergies and immunology).

وكتب: (رسالة في محنة الطبيب، وكيف ينبغي أن يكون حاله في نفسه وبدنه وسيرته وأدبه)، فكان بذلك أول من فنّ "أخلاقيات الطبيب" (Father of Medical Ethics).

وكتب أيضًا (من لا يحضره الطبيب) فاستحقّ أن يكون أول من فنّ "طب الأسرة" Father of Domiciliary Medicine).

وفي بغداد (وهو رئيس الأطباء)، عالج الرازي مرضاه عمليًا، وكان أول من فرّق سريريًا في توصيف الجدري عن الحصبة؛ وكتابه (الجدري والحصبة) يُعدّ أول ما كُتب في وصف الجدري في العالم. وله (كتابُ ما الفارق؟) فهو أول من استخدم المفارقات للأمراض (Differential Diagnosis) عالميًا.

كما ويُعدّ الرازي من أوائل الأطباء الذين أشاروا إلى أهمية التأثير العصبي والنفسي على الأمراض العضوية، بل كان أول من استخدم العلاج النفسي للمرضى (Father of Psychosomatic Diseases and Psychotherapy).

واعتمد أطباء أوروبة كتاب (الحاوي في الطب) لأبي بكر الرازي بترجمته اللاتينية مرجعًا لتدريس الطب: (Liber Continens in Medicine for Rhazes) في 23 مجلدًا اختزلوها في مجلدين كبيرين.

وخلّدت جامعة برنستون الأمريكية الرازي (كونه يمثّل التزاوج الطبيعي بين الطب والإيمان)، وذلك برسم صورته على الزجاج الملون لنافذة مُصلاّها عارضةً: كتاب الحاوي مع بسم الله الرحمن الرحيم.

ومن بعد الرازي جاء ابن سينا (980 – 1037م) الذي صار يُعرف بـ (الشيخ الرئيس) في الطب في العالم الإسلامي، وقام أطباء أوروبا باعتماد النسخة اللاتينية لكتاب ابن سينا (القانون في الطب في 3 مجلدات – Canon of Medicine for Avicenna) جنبًا لجنب مع كتاب الرازي الكبير (قياسًا بـ - كتاب القانون- الأصغر حجمًا بالمقارنة)؛ ومن اسم (ابن سينا Avicenna) اشتقت كلمة (الطب) بالإنجليزية Medicine from Latin medicina أي مادة سينا حيث لم يكن الطب قبله إلاّ ضربًا من السحر والشعوذة والكهانة وكان يُسمى بأسماء عدة: magic, quackery, and wizardry.

ولتخليد 1000 سنة على ولادة أكثر فلاسفة وعلماء الإسلام تأثيرًا قامت منظمة الأمم المتحدة للتعليم والعلوم والثقافة – اليونسكو (UNESCO) عام 1980 بإصدار مدالية تذكارية لابن سينا (ولد 980م وتوفي 1037م) كونه الطبيب ذو العلاج الكُلّي المثالي – Exemplary Holistic Approach لتخليده عالميًا.

وقام بالتصميم نحّات المداليات (فكتور دويك): على الوجه ابن سينا مُحاطًا بتلامذته وحوارييه (الصورة مستوحاة من مُصغّرات التصاوير التركية للقرن 17).



كتاب الحاوي للرازي بنسخته اللاتينية في مجلدين (فينيسيا - البندقية) محفوظ في جامعة ليدن.

لاحظ الأسماء التي تُزيّن حافّة الكتاب السفلى للنسخة اللاتينية (من اليسار لليمين): MESVE. AVICENA. HIPOCRATES. GALENVS. RASIS

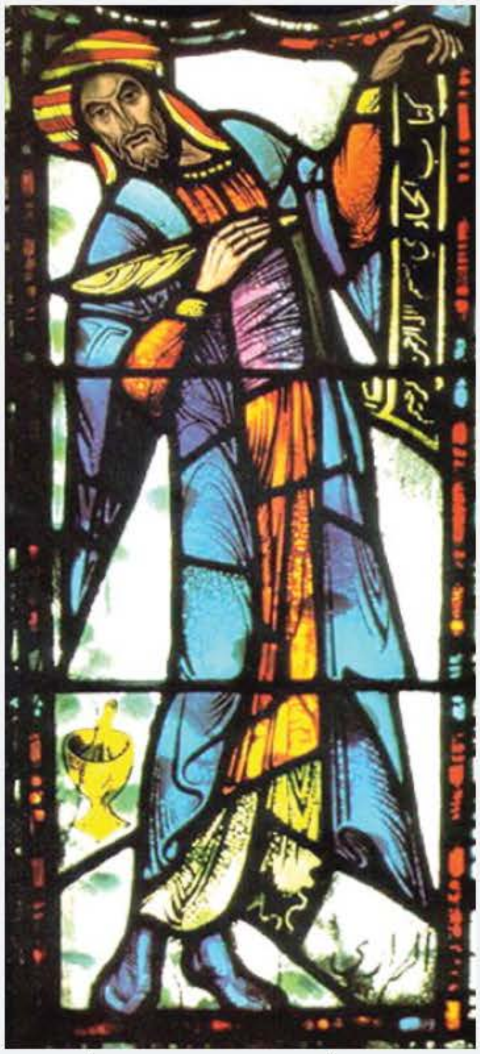
وهي تباعًا بالعربية: ماسويه، ابن سينا، أبقراط، جالينوس، الرازي.

Continens Rasis: quisquis es qui antiquiores....)
; (2 vols. (Venice: Ottiovano Scoto. 1529
vol. I. title page. Courtesy: Leiden University
(1-Library. obj. nr. 631 A 11

وعلى الوجه الآخر عبارة ابن سينا بالعربية واللاتينية مع توقيعه، وعبارة ابن سينا هي (ليتعاونوا على مصالح الإبدان ومصالح بقاء نوع الإنسان) وهي باللاتينية: (Cooperari Ad Vilitatem Corporum Et Humanae speciei permanentiam) فلم يكن يتخرج أحد من أطباء الغرب وأوروبا آنذاك إلا بعد مذاكرة هذين المرجعين الأساس في الطب (الحاوي والقانون)، ولقد صارت المصادر العربية بترجماتها اللاتينية آنذاك مصدر إلهام مهم للنهضة الأوروبية ذاتها.

وقصة "حيّ بن يقظان" رائعة ابن طفيل العربي الأندلسي (1105–1185م)، تشير كيف إن التفكير الفطري يقود لوجود الله، وأنه لا فرق بين العقل والنقل (من الكتب السماوية للرسل) وتمثل قمة الفلسفة العالمية آنذاك، بل وتحوي فلسفة التطوّر الصحيح للمعرفة البشرية، وهي رواية فلسفية استلهمها واستعارها من ابن سينا ومن الصوفية متجاوبًا مع كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة" كتبها ابن طفيل نحو 1185م. وتظهر التوفيق بين الفلسفة والوحي الإلهي. وتتحدث عن قصة طفل تُرك في مهده، وجرفه الماء لجزيرة حيث تبنّته ظبية أو غزال أمّ (فقدت وليدها حديثًا).

ونما الطفل مع الحيوانات بالغابة حتى ماتت أمّه، فصُدمَ وبدأ يبحث عن روح أمه، ومن ثَمّ عن سر الحياة

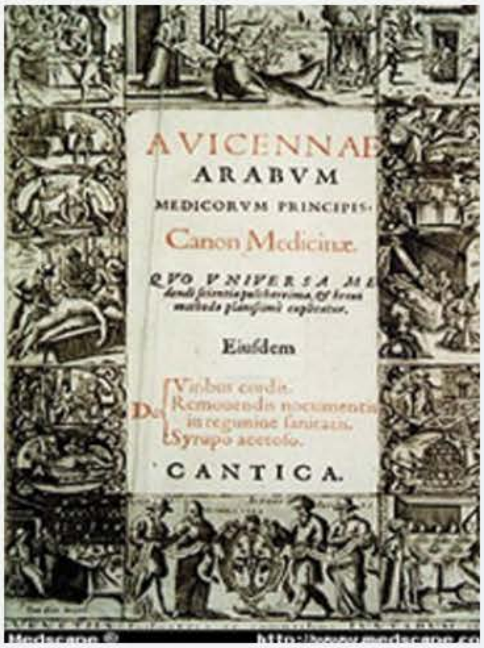


زجاج النافذة الملون لمُصلى جامعة برنستون الأمريكية مُخلّدًا صورة الرازي (أو جالينوس العرب - كما يسمونه)

كنموذج عالمي متوازن للطبيب المؤمن بالله: انظر أعلى اليمين (كتاب الحاوي) مبتدأ (بسم الله الرحمن الرحيم)

This stained glass window in Princeton University Chapel commemorating Rhazes (Al-Razi) to .(Medicine (Galen of Arabs

والموت، حتى وصل في رحلته الروحية الفلسفية إلى وجوب وجود خالق أعظم للمخلوقات والحياة (الله). إن الوصف التشريحي للظبي يدل على علم ابن طفيل الواسع في التشريح الحيواني، ورحلته كانت "على طريق البحث العلمي"، واكتشاف الذات، دون الاتصال مع أي كائن بشري آخر، وكتاب ابن يقظان هذا يُعَدّ تحفة ورائعة أدبية عالمية مزجت الطب بالفلسفة. وقد ترجم ميراندولا (1494)، وبوكوك (1671)، الكتاب في أوكسفورد إلى اللاتينية تحت اسم عنوان «الفيلسوف الذي علّم نفسه» (Philosophus autodidactus) كما ظهر الكتاب في لغات عدة بترجمات من جامعة السوربون بالفرنسية وكذلك بالهولندية. وأفكار «حي» حول الجوانب المادية في الرواية قد نُسخت أيضًا وحوّرت من قِبل كارل ماركس في المادية التاريخية. إنّ لقصة «حيّ بن يقظان» تأثيرًا عظيمًا في الأدب العربي والعالمي، بل صارت أكثر القصص





كتاب القانون في الطب لإبن سينا بنسخته اللاتينية عام 1484م. الصورة الثانية هي لصورة الغلاف لطبعة قديمة لكتاب القانون في الطب (فينسيا البندقية عام 1608م)، مترجم للاتينية (محفوظ في مكتبة هامبولت، برلين، ألمانيا)

Canon of medicine by Avicenna. Latin translation. dated 1484 CE. The 2nd photo shows title page of an ancient edition of the Canon of Medicine (Venice. 1608). translated into Latin (available in the library of .(the Humboldt University. Berlin. Germany

المؤثرة مبيعًا في كلّ أنحاء أوروبا الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وفي أمريكا الشمالية، نشرَ "كوتن ماثر" كتابه «الفيلسوف النصراني» عام 1721، وذكرَ تأثير «حيّ بن يقظان» فيه. وبالرغم من ذمّه للمحمديين (يقصد المسلمين—لاحظ النظرة الصليبية للمؤلف) ككفار في نظره! لكن "ماثر" ينظر إلى بطل الرواية: "حي" على أنه النموذج لفيلسوفه النصراني المثالي والعالم المؤمن بإله واحد. وينظر "ماثر" أيضًا إلى «حي» على أنه «النبيل الهمجي» مطبقًا ذلك في معرض كلامه لفهم الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين من أجل تحويلهم إلى النصرانية (لتطهيرهم)!

إنّ هذه القصة الروائية سبقت كلاًّ من قصة "روبنسون كروزو" لـ دانيال دوفو، وكتاب "إيميل أو عن التعليم" لـ جاك روسو. إنها تخبر عن طفل ربته غزال ونما بمعزل





مدالية ابن سينا العالمية في اليونسكو (Avicenna -UNISCO)

كامل عن البشر، ففي 7 مراحل من 7 سنين لكل مرحلة تمكن "حي" عبر تمرين وتدريب ملكاته ووحده من أن يتدرّج في جميع مراحل المعرفة البشرية. إنّ قصة حي بن يقظان قد نسخت من قبل «إدجار رايس بوروز» في قصة طرزان: الطفل الذي ترك في جزيرة استوائية غير مأهولة حيث تبنته وربته أنثى الذئب، ثم نما الطفل مع الحيوانات في الغابة، وصار رجل القوة الكبيرة والحركة في الأدغال وعاش مع القرود (لاحظ أنّ اسم طرزان هو تحوير لاسم يقزان أو يقظان). وحوّرت قصة حيّ بن يقظان إلى قصة متأخرة هي "كتاب الأدغال" لـ روديارد كبلنك (Jungle book for Rudyard Kipling) والقصة تتحدث أيضًا عن طفل مهجور في جزيرة استوائية، حيث ربته وأطعمته أمه الذئب.

إرهاصات وبدايات انسلاخ العلماء من سلطان الكنيسة

المثير للاهتمام هو أن الأطباء العرب والمسلمين هم الذين صححوا عدة نظريات خاطئة للأطباء الإغريق (اليونان). فمثلاً مرجعية جالينوس التي أجبرت أجيالاً من الأطباء في أوروبا لتطبيق علومه في تشريح الحيوان تطبيقًا أعمى على الأجساد الإنسانية، قام الرازي بانتقاده وتصحيح الكثير من مزاعمه في كتابه (شكوك على جالينوس) وبنى الرازي وابن سينا وابن النفيس وابن طفيل مشاهداتهم في علم التشريح على الجثث الآدمية إضافة للتجارب الحيوانية. وعندما وقعت منابر العلم في أيدي الكنيسة، صارت (كتابات جالينوس)، كالأناجيل تحمل ختم سلطان الكنيسة وعصمتها من الخطأ، (حتى صححها العرب).

فبينما كان العلماء والأطباء في العالم الإسلامي موضع احترام وتقدير الخليفة شخصيًّا، كان الوضع مختلفًا تمامًا في أوروبا، فقد كان الأطباء والعلماء يرزحون تحت وطأة الكنيسة الثقيلة ويكابدون صعوبات شديدة في مواجهة تعاليم الكنيسة، وذلك بالرغم من عصر النهضة الأوروبية.

ففي القرن الرابع عشر فإن أستاذ التشريح موندينو اللُّزي من بولونا في إيطالية (1275–1326م، والمعروف أيضًا بمجدد علم التشريح)، كان يعرِّض نفسه للحرمان الكنسي والعزل من عضويتها بسبب اقتراحه إمكانية الحصول على معرفة أفضل عبر تشريح جثة الإنسان، بدلاً من قراءة كتب جالينوس؛ موندينو كان أول من شرح الجُثث الآدمية في القرون الوسطى. وفي عام 1326، طبع (أناتوميا – أي التشريح) مَلزَمة في علم التشريح التي ظلت الكتيب اليدوي للتشريح قرابة قرنين. وقد استخدم عدة مصطلحات عربية، وبالرغم من التنقية المتأخرة للمصطلحات الطبية، بقي الكثير منها حيًّا (أي المصطلحات العربية).

اعتمد الطبيب (أندرياس فيزاليوس البلجيكي – من بروكسل 1514–1564م) تشريح الجثث البشرية، أسوة بأطباء العرب المسلمين ولُقّب لذلك بأبي علم التشريح البشري الحديث. كان يفضل البحث عن الأدلة والبراهين الموثّقة، ورؤية الفروق والاختلافات، وذلك عن طريق المشاهدة وتشريح جُثث الإنسان. وكان خصومه يطلقون عليه لقب: (خاطف الأجساد)! وقد رفض (فيزاليوس) الانصياع لسلطة (جالينوس اليوناني) في التشريح ومعلوماته المُستقاة من تشريح الحيوانات التي تختلف عن تشريح الإنسان (وكانت تعاليم جالينوس مدعومة بسلطة الكنيسة ومفروضة على الأطباء آنذاك بوصفها علومًا كنسية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!). تعلم (فيزاليوس) اللغة العربية واللاتينية لأجل دراسة الطب (فالعربية تعينه في فهم نصوص المصادر العربية، واللاتينية تعينه في فهم التراجم اللاتينية للمصادر العربية)، فكتب (تعليقًا على الفن الرابع لابن سينا) ومن ثم كتب أطروحته في بكالوريوس الطب (صياغة أخرى للكتاب التاسع للرازي) عام 1537م وطبعها في لوفين. ثم في بازل عام 1543م كتب (فيزاليوس) مشاهداته ورسم ألواح تشريح الجثث البشرية بنفسه في تحفته الفنية الرائعة:

(الكتب السبعة في أنسجة الجسم البشري Corporis Fabrica Libri Septem" ("De Humani

مُرفقة بدليل (الخلاصة "Epitome") وصارا مَعلَمًا في تاريخ علم الجراحة الحديث وفن التصوير الطبي؛ ولم يكن في حقيقته إلاّ ثمرة المدارسة والبحث الدؤوب والنهل من علوم وفنون طب العرب والمسلمين.

وكان الطبيب الإسباني (مايكل سيرفيتوس) صديقًا حميمًا وزميلاً دراسة مع (أندرياس ڤيزاليوس البلجيكي) ووافقه في كتاباته وفي معارضته الشديدة لمعلومات جالينوس المخطوءة (والمتبناة حرفيًّا من قبل الكنيسة بل والمفروضة على الأطباء بوصفها علومًا كنسية). وأكّد (سيرفيتوس) – من حيث يدري أو لا يدري- اكتشاف ابن النفيس الدمشقي (قبله بحوالي 300 سنة) في دورة الدم الرئوية (الدورة الدموية الصغرى) في كتابه شرح تشريح القانون (وهو شرح ونقد لكتاب القانون في الطب لابن سينا). وصرّح (سيرفيتوس) عن قصد أو دون قصد بأن الروح الأساسية (vital spirit) تتولد من الامتزاج في الرئتين بين هواء الشهيق المُتَنَفّس ودم بطين القلب الأيمن، ومن بعد تنقيته يُضخّ الدم المصفى إلى الجانب الأيسر من القلب لتوزيعه لجسم الإنسان. فأقامت الكنيسة عليه الدنيا ولم تقعدها إلا بتنفيذ حكم الإعدام به حرقًا على النصب في 1553/10/26 عقوبةً على خطيئاته وتطاوله على سلطة جالينوس (والتي تُعدّ سلطة الكنيسة المعصومة)!!!

وبينما كانت حقيقة دوران الأرض حول نفسها كما أشار إليها القرآن الكريم: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ الزمر:4 ودورانها في فلك (مسار) حول الشمس، معروفة لدى العالم الإسلامي، وعند علماء الفلك المسلمين (خاصة عند البيروني وغيره)، وقام الخليفة المأمون برعاية العلماء لقياس قطر الأرض (لأن كرويتها كانت من المُسلّمات العلمية عندهم) وأن العلماء المسلمين قد اخترعوا البوصلة، والاسطرلاب، وأنواع الساعات (ابتداءً من الساعة الشمسية، والساعة الميكانيكية، والساعة المائية) لحاجتهم إليها في أمور الدين، لمعرفة أوقات الصلاة اليومية، وتحديد اتجاه القبلة لبناء المساجد وتوجيهها (نحو الكعبة المشرّفة في بيت الله الحرام العتيق في مكة المكرمة)، ولكنّ هذا كان في العالم الإسلامي؛ أما في أوروبا فكان الوضع مختلفًا تمامًا.

فعندما حاول الإيطالي جَليلو جَليلي Galileo Galilei (1564–1642م) أن يعيد عرض نظرية مركزية الشمس Heliocentrism وترويجها في أوروبا القرن السابع عشر (بما يُسمى ثورة كوبرنيكوس- جَليلو- نيوتن وهي ثورة 3 من العلماء الذين أسهموا بالنهضة الأوروبية العلمية: البولندي- الإيطالي-الإنجليزي بالتتابع). وبذلك تحدّى جاليلو نظرية الكنيسة بدوران الشمس حول الأرض Geocentrism (المبنية على نظرية بطليموس اليوناني – المصري الأصل). وأدى ذلك بجليلو إلى أن يُحاكم من قبل محاكم التفتيش في روما تحت ذريعة الهرطقة وأن يُحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته مرتين: عام 1616م وعام 1634م كيلا يؤثر على الآخرين، وحُكم عليه أن يتوب من نظريته هذه، وإلا يُعاقب بالقتل؛ فتاب تحت الضغط والخوف من القتل، لكنه قال قولته الشهيرة عام 1633م: (ومع ذلك فهي تدور – وبالانجليزية And yet it moves – وبلغته الإيطالية الأصلية: E pur si mouve). وتعرض لمعاناة طويلة من التعذيب النفسي والعُزلة والمكابدة حتى مات في إقامته الجبرية في بيته (عام 1642م). وأسهم جَليلو بإسهامات أصيلة في طريقة البحث العلمي من خلال ابتداع تمازج فريد بين التجارب والرياضيات، ويُعدّ جليلو أبو الفيزياء الحديثة والإرصاد الفلكي الحديث.

ولم تتراجع الكنيسة الكاثوليكية عن حكمها الجائر على جَليلو لتبطله وتعفو عنه إلاّ حديثًا: عام 1965م فقط!!!

بالمناسبة اسم جَليلو جَليلي هو اشتقاق من العربية والعبرية ويعني: جليل الجليلي (أي النبيل من منطقة الجليل شمال فلسطين والعلاقة بين فلسطين المقدس وروما الإيطالية وثيق عبر التاريخ، مثل اسم موسوليني الإيطالي يرجع لعائلة إيطالية mussolini تاجر بالنسيج الموصلي muslin بين الموصل شمال العراق وبين روما الإيطالية).

ويُقرن اسم العالم جَليلو بابن الهيثم، ذلك لأن الحسن بن الهيثم مع جَليلو هما آباء العالم في علم الفيزياء، وهما روّاد طريقة البحث العلمي والتجارب العلمية.

أبو علي الحسَن بن الهيثم (965–1039م) Alhazen البصري المولد، البغدادي النشأة والدراسة، والمتوفى في القاهرة (صورته تُرى على وجه عملة العشرة آلاف دينار العراقية. رياضيّ، كحّال (أي طبيب عيون)، عالم في علم البصريات وإسهاماته في حقل البصريات ظهرت في كتابه "البصريّات". يُعد ابن الهيثم أبو مذهب التثبّت العلمي بالشك والمساءلة؛ للتثبت من مصداقية الإدعاءات الخالية من الدليل التجريبي Father of Scientific skepticism or rational skepticism، or skeptical inquiry ويعتمد هذا المذهب على التفكير الانتقادي والاستنتاج الاستقرائي، عبر معارضة الإدعاءات غير المُثبتة، مثلاً: الادعاء القديم بأن الإبصار يكون بخروج إشعاع الضوء من العين البشرية لرؤية الأجسام الخارجية. وبذلك يكون ابن الهيثم أول من أثبت قانونه بأن الضوء إنما يشعّ (أو ينعكس) من الأجسام الخارجية قبل أن يدخل عين الإنسان (ويُدرَك في راتنة أو رصينة العين). وهو أول من اخترع الكاميرا أو بالعربية القمرة أو الحجرة المظلمة camera obscura. وبذلك فتح ابن الهيثم الباب على مصراعيه للعلماء اللاحقين للتساؤل عن "طبيعة الضوء الذي يدخل عين الإنسان"؟ بناءً على تجارب ابن الهيثم. وقد تُرجمت مؤلفات ابن الهيثم وحظيت باهتمام وشهرة واسعة في الغرب.

يُعدّ ابن الهيثم صاحب المنهج الاستقرائي (Induction) (الاستدلال من الخاص على العام)، والمنهج الاستنباطي التجريبي (Deduction) (الاستدلال من العام على الخاص). وفي الحالتين كان يعتمد على الملاحظة وعلى التجربة. بل إنّ ابن الهيثم هو الذي استحدث الطريقة الصحيحة في البحث العلمي scientific method، التي لا تختلف عن طريقة البحث العلمي الحديث، والمبنية على تتابع الخطوات الآتية:

1. المشاهدة Observation.
2. تعيين المشكلة Statement of problem.
3. تكوين النظرية Formulation of hypothesis.
4. اختبار النظرية بالتجربة Testing of hypothesis using experimentation.
5. تحليل النتائج التجريبية Analysis of experimental results.
6. تفسير المعلومات وصياغة النتائج Data Interpretation and formulation of conclusion.
7. نشر نتائج البحث (تأليف الكتب) Publication of findings.

جوردانو برونو Giordano Bruno م(1548 - 1600)

فيلسوف ورياضي وفلكي إيطالي معاصر لـ جَليلو جَليلي، وذهب أبعد من نظرية كوبرنيكوس بدوران الكواكب حول الشمس، بل اقترح إن النجوم ما هي إلا شموس بعيدة، وكل منها محاطة بكواكبها الخارجية، واقترح إن هذه الكواكب قد تحتضن الحياة. وأصرّ أن الكون بلا نهاية وبلا جسم مركزي. وفجأة في عام 1593م حوكم برونو بالهرطقة من قبل محاكم



قام الفلكي البولندي جوهانس هفليوس(Johannes Hevelius) بتكريم الحسن بن الهيثم جنبًا لجنب مع جَليلو في كتابه الشهير عن القمر (سيلينوغرافيا Selenographia) المطبوع عام 1647م.
الصورة مأخوذة من غلاف كتابه. في أعلى الوسط تشبيه "التأمل" كامرأة بيدها تلسكوب. إلى اليسار يُرى سطح القمر وإلى اليمين بقعة الشمس. ويحمل صغيران من الملائكة المجنحين راية عليها نص أشعيا 26:40 من الإنجيل "ارفع بصرك للعلا وانظر: من خلق هذه". ويحمل رجلان عنوان الكتاب والمؤلف. هذان الرجلان (كما مكتوب على المنصة تحتهما) هما: جَليلو جليلي والحسن ابن الهيثم (الاثنان مُعممان تأثرًا بلباس الحضارة الإسلامية). يحمل ابن الهيثم ورقة عليها مخطط تجربة. بينما يحمل جَليلو تليسكوب.
وهما يمثلان على التوالي: عقلانية السببية وحسّ الخبرة. بالأسفل منظر مدينة دانزنغ Danzig وفوقها رمزها العسكري coat of arms (Source: Houghton Library. Harvard University).

التفتيش الكاثوليكي الروماني بتهم شتى تتمحور حول رفضه لعدة مبادئ كاثوليكية أساسية (كرفضه الثالوث، وألوهية المسيح، وتحول الخبز والخمرة إلى دم المسيح) واعتقاده بوجود عوالم أخرى في الكون، واعتقاده بتقمص الأجساد للأرواح الشريرة. وبرغم الضغوط، تنازل برونو عن معتقداته، لكنه دافع بشدة عن وجود عوالم أخرى في هذا الكون الفسيح. فطالبه رئيس محاكم التفتيش بالتوبة الكاملة والعدول عن معتقداته، فرفض برونو (خلاف جَليلو)، فأصدر البابا كليمنت الثامن قرارًا بقتله، فأُحرق على المنصة في روما عام 1600م. وبعد قتله ذاع صيته في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعُدّ شهيدًا في سبيل العلم، بل ومَعلمًا في تاريخ الفكر الحر.

كذلك عارضت الكنيسة الكاثوليكية أكثر أعمال نيوتن (قوانين الحركة والجاذبية)؛ المبنية على براهين التجربة والاختبار بوصفها دليلاً للاعتقاد الخالي من التأثير فوق الطبيعي (الخارق للعادة) على العالم الطبيعي المادي (لأنه كان يرى أن الكون يعمل على نحوٍ دقيق متكامل على أسس آلية ميكانيكية محددة سلفًا)! وبالمناسبة فإن نيوتن كان يعتقد «أن



محاكمة جوردانو برونو من قبل محاكم التفتيش الرومانية.
(Bronze relief by Ettore Ferrari. Campo de' Fiori, Rome).

ثالوث النصارى هو زيف وأن الأريانية هي الوجه الصحيح للنصرانية البدائية (الأريانية، اعتقاد آريوس أن المسيح لا يساوي الربّ بالجوهر).

كان تأثير الكنيسة على العلم والتعليم مُدمِّرًا؛ ففي عام 391 م، أحرق النصارى إحدى أعظم المكتبات في العالم: في الإسكندرية، التي قيل إنها كانت تضم سبع مئة ألف مخطوطة، كل كتب ملوك الغنوسطية (أصحاب مذهب العرفان عند بعض النصارى الذين اعتقدوا أن المادة شر، وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية)، (36) جزءًا من الرُّخام السُّمّاقي (صخور سُماقية اللون)، مخطوطات (لُفّات) أوراق البردي لـ(27) مدرسة من مدارس اللاهوت والأسرار، و(270.000) من الوثائق القديمة التي جمعها بطليموس فيلاديلفوس، كلُّها أُحرقت. وأُغلقت معاهد العلوم والمعارف القديمة. وانتهت كلّ دراسة أو تعليم خارج الكنيسة لأي كان.

من الجدير بالتأمل هنا المقارنة بين إسلام الشرق المُتحضّر، وغرب العصور الوسطى النصراني: وهو أنه عند تفاعل الإسلام مع العرب البَدو، استطاع الإسلام تحويلهم إلى أرقى الناس حضارةً على وجه الأرض، ولكن عندما تفاعلت الكنيسة مع الأوروبيين، فإنها دفعت أوروبا إلى العصور الوسطى المُظلمة الدّامية التي استمر بها الحال حتى عصر النهضة الأوروبية الذي صار ممكنًا فقط بعد الاتصال بالشرق الإسلامي، وبعد القيام بجهود كبيرة وعلى نطاق واسع لترجمة الكتب والمراجع الدراسيّة العربية، ومن ثَمّ دراستها بالتفصيل (باللغة اللاتينية).

وبتطاول الكنيسة الظالم ضد العلم والعلماء، وزهق أرواح كبار علماء العصر: (جوردانو برونو) الإيطالي، و(مايكل سيرڤيتوس)الإسباني، ومعاقبة (جَليلو جليلي) الإيطالي بالحبس والإقامة الجبرية حتى مات فيه كمدًا، ومعارضة الكنيسة لنظريات (إسحاق نيوتن) الإنجليزي، ما عاد أحدٌ من العلماء يأمن بوائق الكنيسة على حياته وأهله. وكُتمت الأفواه وانحسر الفكر العلمي الحُر، ورويدًا رويدًا صارت الأرضية خصبة للعلم والعلماء لإعلان التمرّد والإنسلاخ رسميًا من سلطة الكنيسة الجائرة تحديدًا، ومن سلطان النصرانية عمومًا، بل والإنسلاخ من كل دين وعُرف وتقليد، وإعلانٌ مدوّيٌ لألوهية الإنسان بدلاً من إله الكنيسة الظالم.

دعوات للرياح

سما يوسف

جدة

دعوتُ الرياحَ التي تتثاءب
بين
جذوعِ الشجرْ ..
إلى غرفتي .
أتتني ..
قرأتُ لها ؛ ما كتبتُ أخيرًا
رويتُ لها قصةَ الحزن ..
أصغتْ..
وأصغى السهرْ .

ورحتُ أسرد لها الوقت
أغزل من خيطه الحالم شعرا
وألعبُ بشعرها الكستنائي
والليلُ يمضي ..
تركتُ لها في فراشي
مكانًا صغيرًا
حين حط على مقلتيها المنام
فأغفت ...
وأغفا القمر

***

وقمتُ دعوتُ الشجرْ ..
فجاءَ
بطيئًا
يجرجرُ ..
خلفَ خطاه ليالي
الضَّجرْ !

موقف الغرب من القرآن الكريم



د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي

لا نجد في الدواوين المخطوطة خلال الستة قرون الأولى من ميلاد المسيح عليه السلام أي إشارة إلى الاتصال بين الأوروبيين والعرب، حتى إذا أهل القرن السابع وقع حدث في الجزيرة العربية جعلها تدريجيًا محط أنظار أوروبا، تمثل هذا الحدث في ميلاد دين جديد هو الإسلام، ولبعض الوقت ظلت أوروبا غير مكترثة بهذا الحدث الجلل، حتى قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عام 632م، حين أضحت القوة العسكرية الصاعدة والهيمنة التي فرضها الإسلام مصدر قلق للإمبراطورية الرومانية المقدسة، فبعد أن أرسى الإسلام دعائمه في بلاد فارس وسوريا ومصر وتركيا وشمال أفريقيا، تغلب الإسلام على أسبانيا وصقلية وأجزاء من فرنسا خلال القرن الثامن، وشهد القرنان الثالث عشر والرابع عشر امتداد النفوذ الإسلامي إلى الهند وإندونيسيا والصين، وقد أثار هذا الانتشار الخارق للإسلام خوف أوروبا وفزعها.

ومع اندلاع الحروب الصليبية بدأ عهد جديد من الاحتكاك المباشر بين العالم العربي والغرب، فالإفرنج الصليبيون الذين جاؤوا لإنقاذ الأرض المقدسة اعتبروا العرب جنسًا وضيعًا وثنيًا يتخذون محمدًا إلهًا، ثم بدأوا في الوقوف على بعض الخصائص الرفيعة بالشخصية العربية كالفروسية، والتي لم يستطيعوا منع أنفسهم من الإعجاب بها، كما بدأ ينمو في الغرب فكر جديد واع عن العرب، بيد أن هذا أدى إلى رد فعل جعل الموقف الغربي تجاه العرب والإسلام أكثر عداءً، فقد بدأ الغرب يردد الكثير من اتهاماته السابقة للإسلام، وأتباعه بشكل أكثر ضراوة من ذي قبل.

وفي نهاية القرن السابع عشر انتبهت أوروبا بأسرها إلى تهديد كبير اسمه "الخطر العثماني" في الوقت الذي كان فيه منهج القياس أحد الأمور المسيطرة على عقول المفكرين المسيحيين ممن حاولوا فهم الإسلام، فبما أن المسيح كان أساس العقيدة المسيحية، فقد افترض خطأً أن لمحمد في الإسلام ما للمسيح في المسيحية، ومن هنا كانت التسمية الخاطئة للإسلام بلقب المحمدية، لقد كان لهذا الاعتقاد الخاطئ أكبر الأثر في تكوين حلقة لم يكن لأي عناصر خارجية مهما بلغ تصورها أن تخترقها، حيث كان المفهوم المسيحي عن الإسلام مكتمل الأركان، ولا يعد أي تصورات مغايرة، ولم تسع أوروبا للتعبير عن الإسلام عن حقيقته بل صورته كما بدا لمسيحي العصور الوسطى.

تحفل كل الكتابات الأدبية الأوروبية عن العرب والإسلام، منذ العصور الوسطى وحتى الحرب العالمية الأولى، التي هزمت فيها أوروبا الدولة العثمانية المسلمة هزيمة ساحقة، بتوجهات عدوانية وتعصبية شبيهة، حيث رأت أوروبا في الإسلام خطرًا حقيقيًا من نواح كثيرة، فقد كان العالم العربي قريبًا من العالم المسيحي جغرافيًا وحضاريًا بشكل يثير القلق، كما أنه قد استند إلى التقاليد اليهودية والهلينية وتضمنت عقيدته بعض العناصر المسيحية ثم إن لديه ما يفخر به من النجاحات العسكرية الفريدة، فقد سيطر على الأراضي المسيحية المقدسة إضافة إلى أن "الشرق الأدنى" (الشرق الأوسط) ظل لأمد طويل بشكل قلب العالم الإسلامي، فمنذ نهاية القرن السابع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، ظل الإسلام في مختلف أراضيه، من الأرض العربية إلى تركيا والشمال الإفريقي وإسبانيا خطرًا يحدق بأوروبا، فلم يغب أبدًا عن ذهن أي كاتب أوروبي أن الإسلام قد تغلب على روما ذات يوم ودحر المسيحية.

عندما استقر المسلمون في بعض البلاد المجاورة للغرب،

وخاصة في بلاد الشام وفلسطين ومصر وبلاد فارس، ثم بعد ذلك في قلب أوروبا في الأندلس، بدأ الاهتمام يتزايد بما جاء به هؤلاء العرب من مفاهيم دينية جديدة تغاير المفاهيم اليهودية والمسيحية المنتشرة في تلك البلاد حتى ذلك الحين، ومن هنا بدأ الغرب في السعي وراء معرفة ما جاء به هؤلاء القادمون من صحراء قلب الجزيرة العربية، لأجل تفسيره التفسير الذي يحقق مصالحه وحاجاته لأجل دحض ما جاء به هؤلاء القادمون الجدد على الخريطة العالمية، ومن ثم تمت ترجمة النص القرآني إلى الكثير من اللغات، واحتوت النصوص المترجمة على تشويه أحيانًا عن وعي، وأحيانًا أخرى عن غير وعي، ولكن هذه الأنواع من الترجمة حملت بداخلها أهدافًا وأبعادًا سياسية بالدرجة الأولى. ولأن القرآن يمثل جوهر الإسلام، فلم تكن محاولة الغرب تفسير وترجمة القرآن الكريم إلا محاولة لتفسير الإسلام، والشرق.

غير أن دراسة ترجمات القرآن الكريم المختلفة، تكشف لنا عن أن هناك تحولات في تفسير النص القرآني اختلفت باختلاف الحضارات والأزمان، التي تمت فيها الترجمة، وذلك بقصد أن تفي بأغراض معينة، ذلك أن كل مترجم هو أيضًا مفسر، ولا يمكن لتفسيره أن يجيء محايدًا أو موضوعيًّا، ولهذا جاءت كل ترجمة محكومة بقيود اجتماعية وحضارية وسياسية معينة، فقد تمت مثل هذه الترجمات من أجل خدمة مصالح وأهداف معينة، ويتضح ذلك من التغيرات التي طرأت على موقف الغرب من القرآن الكريم والإسلام، عبر العصور التاريخية المتطورة.

ففي العصور الوسطى الأوروبية، التي شهدت ظهور الإسلام كقوة سياسية على المسرح العالمي، ثم زحف الإمبراطورية الإسلامية تجاه ثلاث قارات في وقت واحد، وفي مدة زمنية قصيرة نسبيًّا (القرنين السابع والثامن الميلاديين) بدأت تظهر إشكالية موقف أوروبا من الإسلام، كنتيجة لوصول الفتوحات الإسلامية لقلب أوروبا الشرقية، ثم تطورت تلك المواقف إلى مرحلة الصدام عندما فتح المسلمون أسبانيا في القرن الثامن الميلادي، وكان أول رد فعل للمسيحيين الأسبان أساسه عدم معرفتهم بالإسلام، فقد بدا الإسلام للمسحيين في العصور الوسطى نظامًا حياتيًّا ومجتمعيًّا ودينيًّا مختلفًا، وأصبح بالنسبة لهم تحديًّا، ثم أصبح يمثل مشكلة عميقة الأغوار، وصارت معرفة بعض الحقائق عن تلك المشكلة من الأهمية بمكان.

ولما تغلغل الإسلام بين الناس، عمل رجال الدين المسيحي بصفة خاصة على السعي لأجل مناقشة تعاليمه ودحضها، ولهذا لا تتعجب أن تمت أول محاولة لترجمة القرآن الكريم في أسبانيا، وعلى يد رجال الدين أنفسهم، فقام الراهب بطرس المبجل Peter the Venerable بالمحاولة الأولى لإزاحة الجهل الغربي عن القرآن الكريم، في القرن الثاني عشر، بهدف إعلام المسيحيين الغربيين بالإسلام، كمحاولة في مساعدة الإرساليات التي ذهبت لإعادة تنصير الأهالي في الأراضي التي أعيدت للمسيحية، ولهذا عند زيارته لبعض الأديرة الأسبانية في عامي 1141 و1142، قام بإعداد خطة لدراسة القرآن الكريم، وترجمة الكتاب المقدس للمسلمين، وبرغم ادعائه أنه لم يغير شيئًا من المعنى إلا لكي يوضح النص، إلا أنه قام بحذف أجزاء بأكملها، وأخطأ في الترجمة، وأعاد ترتيب السور، وأضاف من عنده ليشرح السور المنفصلة ويصلها ببعضها البعض، واستخلص نتائج لا وجود لها ولا صلة بينها وبين القرآن الكريم البتة.

وظهرت بعد ذلك ترجمة شبه كاملة للقرآن الكريم في القرن الحادي عشر الميلادي، وهي ترجمة إلى اللغة اللاتينية، اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، ولجميع مقاطعاتها في أوروبا، وقام بهذه الترجمة في مدينة طليطلة بالأندلس "روبير دي ريتين Robert de Retines"؛ بناء على طلب رسمي من بابا الكنيسة الكاثوليكية في روما خلال زيارته الأندلس ما بين (1141–1143م)، ولم تكن هذه الترجمة أبدًا، ترجمة مخلصة صادقة، وكاملة للنص القرآني، وبرغم عدم تداولها بسبب عدم ظهور الطباعة، إلا أنها ظلت الترجمة الوحيدة حتى القرن الرابع عشر الميلادي، حينما قام "ريمون ليل" بترجمة أخرى للقرآن إلى اللغة اللاتينية أيضًا، غير أنه بعد العثور على ترجمة أخرى باستانبول القديمة بتركيا عام 1543م في مكتبة القديسين المبشرين بالمسيحية بعنوان "القرآن أبيتوم Alcorani Epitome" تبين أن هذه الترجمة لم تكن الوحيدة، ولكن على ما يبدو ظل الجهل بالإسلام وبالقرآن منتشرًا في بعض البلاد الأوروبية إلى أن ازدادت الترجمات في عدة مدن أوروبية مهمة، وفي الأوساط العلمية في إيطاليا، وفرنسا، وهولندا، وسويسرا، حيث ظهرت أولى الترجمات المطبوعة باللغة اللاتينية في مدينة بازل لعام 1543م في سويسرا للمترجم "بيير دي كولني"، ثم إلى اللغة الإيطالية في فينيسيا لمؤلفها "أندريه ريجان" عام 1547م، والتي نسبت القرآن إلى الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم".

وكانت هناك محاولة ثانية لترجمة معاني القرآن الكريم بالأندلس في طليطلة، حيث قام "دون أبراهام" بناء على طلب الملك الفونس العاشر (1252–1248م) بترجمة سورة المعارج إلى اللغة الأسبانية، ومن وقتها أخذت الكنيسة الكاثوليكية تهتم بما جاء به الإسلام، ليس بهدف التعرف على هذا الدين الجديد ودراسته موضوعيًّا، ولكن بغرض دحض هذا الدين الجديد، ومحاربة أفكاره وقيمه، ومفاهيمه، وإقناع الناس بأن الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" الذي جاء بهذا الدين الجديد ليس نبيًّا، وإنما قام بتأليف القرآن، بعد أن تتلمذ على يد بعض الرهبان والأحبار المسيحيين، وأخذوا يصورون الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" بأنه المسيح الدجال، مدعي النبوة، وساعده على تأليف القرآن راهب نصراني خبير بفحوى الإنجيل والتوراة.

وعلى أي حال، فإن محاولة الفهم والتقييم العقلي للقرآن الكريم والإسلام من جانب الغرب، لم تجد صدى واسعًا في أوروبا في تلك الحقبة، ومن ثم ضمرت الظاهرة بعد ذلك، ولم تستمر، ولم تظهر ترجمات جديدة حتى بدايات القرن الثامن عشر الميلادي، ولعل ذلك يرجع إلى تصاعد الخطر العسكري للإسلام، منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، فضلاً عن الهزائم التي لحقت بالحملات الصليبية، كما شهدت بدايات القرن الثالث عشر الميلادي بروز المغول ما بين أعوام 1260 و1290، وظهور الحاجة إلى الوحدة بين العالم المسيحي والإسلام لأجل التصدي لهذا الخطر القادم من منغوليا في قلب آسيا، والمتقدم بسرعة رهيبة تجاه أوروبا، وبات يهدد قلبها.

ثم خفتت الاهتمامات الجادة في الغرب بالإسلام في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، بسبب الصراعات الداخلية في أوروبا نفسها، بينما كان إمبراطورية الإسلام قد اتسعت رقعتها إلى حدود الصين والهند، بعيدًا عن أوروبا، الأمر الذي جعل الأوروبيين لا يعودون يرون فيه القوة الخطرة التي تهدد أوروبا، إلا أن خطر الإسلام على أوروبا عاد مرة أخرى وازداد هذه المرة اقترابًا على يد العثمانيين، الذين أصبحوا محكمين قبضتهم على البلقان، وسقت القسطنطينية عام 1453، وباتت المجر مهددة، ومن ثم بات على الأوروبيين أن يقوموا باحتواء هذا الخطر الإسلامي العائد هذه المرة بقوة، والعمل على تحجيمه، فظهرت عدة محاولات لترجمة القرآن الكريم، قام بها كل من: جون السيجوفي John Of Segovia، ونيكولاس القوصي Nicholas Of Cusa، واينياسس سيلفياس Aeneasis Silvius، وجون جيرمين Jean Germain.

وبعد اختراع الطباعة عام 1450، انتشرت ترجمات القرآن، بلغات أوروبية مختلفة، ومنذ ذلك الحين تتابعت الترجمات، فظهرت الترجمة الإيطالية عام 1547، وكانت أول ترجمة إلى لغة أوروبية حديثة.

وخلال القرن السادس عشر كان الإسلام ما زال قوة عالمية، إذ كان قد تم إنشاء ثلاث إمبراطوريات إسلامية: العثمانيين في آسيا الصغرى وشرق أوروبا، والصفويين في إيران، والمغول في الهند، وكان خطر العثمانيين هو أشد الأخطار بالنسبة لأوروبا المسيحية، وكان ارتقاء السلطان سليم الأول العرش بداية لسلسلة هجمات تركية على المجر والنمسا، فتم له فتح بلغراد عام 1521، وحوصرت فيينا عام 1529، وبحلول عام 1541، كان جزء كبير من المجر تحت الحكم العثماني، وفي عام 1542 بات سقوط ألمانيا قاب قوسين أو أدنى، الأمر الذي دفع الكثير من الكتاب

ورجال الدين الغربيين إلى الاعتقاد بقرب نهاية العالم.

وفي هذا الجو من اليأس والإحباط ظهر "تيودور بيبليت ندر"، ليرى أنه في الإمكان تحقيق الخلاص للبشر جميعًا، وعليه أن يعمل على تحويل المسلمين عن دينهم، ولكي يهيئ نفسه لتلك المهمة، قرر أن يدرس الإسلام، ثم قام بمحاولة لترجمة القرآن الكريم، لكن القادة الدينيين احتجوا على طبع الترجمة بوصف القرآن أنه كتاب شرير وأنه من عمل الشيطان، ولابد من طمسه خشية خطره على أرواح الناس، وبالرغم من هذا الاعتقاد فقد سمح له بالنشر، بعد كتابة تحذير في أولى صفحاته يدين محتواه.

ومنذ منتصف القرن السابع عشر بدأ اهتمام بعض الدبلوماسيين الأوروبيين الذين عاشوا في البلاد الإسلامية بدراسة اللغة العربية وبدراسة كتاب المسلمين في بلاد الشرق، وبدأت تظهر مؤلفات جديدة، وبرزت ظاهرة أدبية أطلق عليها فيما بعد "الاستشراق Orientalisme" فظهرت عدة ترجمات للقرآن الكريم باللغة الفرنسية، ولعل أولها ترجمة "أندريه دو ريير" عام 1647، الذي كان قنصلاً لفرنسا في مصر بين أعوام 1647و1775. وفي القرن الثامن عشر ظهرت بفرنسا واحدة من أكثر الترجمات الفرنسية انتشارًا وشهرة، وهي ترجمة الكونت "دي بولتفيليه"، التي صدرت عام 1730، تلك الترجمة التي انتقلت إلى معظم اللغات الأوروبية بالرغم من عدم دقتها العلمية، ولا أمانتها التي ندد بها بعض علماء عصر التنوير، وخاصة في إنجلترا، التي ترجم القرآن بها إلى اللغة الانجليزية في بداية القرن الثامن عشر. وفي عام 1783 ظهرت بفرنسا ترجمة مهمة بالفرنسية لكلود سافاري عام 1783، الذي عاش في مصر خمس سنوات ليتعلم اللغة العربية ويترجم القرآن، وكانت هذه الترجمة الوحيدة التي نقلت عبقرية الأسلوب والصيغ للنص الأصلي.

وظهرت أول ترجمة إلى اللغة الإنجليزية على يد ألكسندر روس عام 1648، من خلال ترجمة "أندريه دو ريير" الفرنسية، ومن ثم لم تكن هذه الترجمة دقيقة، واحتوت على أخطاء كثيرة، ومغالطات واضحة عن الإسلام.

ومنذ بداية القرن الثامن الميلادي اهتم المؤلفون البيزنطيون في نقدهم للإسلام بنقاط أساسية فقط، مثل الرؤية الإسلامية للمسيحية وللسيدة مريم العذراء، ولنظرة الإسلام للحياة الجنسية، وخاصة حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم الجنسية، وغياب أي معجزات للنبي محمد، ولعل أولى الكتابات عن القرآن ونبي الإسلام ترجع إلى القرن التاسع الميلادي للراهب نيسيتاس البيزنطي، والراهب برتليمي دي داس، وركزا في كتاباتهما على النقاط الضعيفة التي هي حسب رؤيتهما المقولة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المسيح الدجال الذي يدعي النبوة، وأنه نقل القرآن عن الكتب المسيحية واليهودية، وأنه مزواج ويحب الملذات والنساء.

وفي القرن العشرين ظهرت كثير من الترجمات للقرآن الكريم باللغات الأوروبية، واتسم أغلبها بالحيادية، وتخلص المترجمون الأوروبيون من عقدة "دحض ومحاربة الدين الإسلامي، وتشويه صورة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم"، بل حاول أغلبهم نقل النص القرآني بأمانة وصدق، ودقة علمية ولغوية، مع بعض الشروحات الجانبية للمزيد من التوضيح.

وظهرت في أواخر القرن العشرين أحدث الترجمات للمترجم الفرنسي المشهور "جاك بيرك" عام 1990، وترجمة الكاتب اليهودي "أندريه شواركي" في العام نفسه، وقد أحدثت كل منها ضجة في العالم الإسلامي والغرب، وخاصة بالقاهرة، حيث أمر شيخ الأزهر جاد الحق علي جاد الحق بتشكيل لجنة علمية عام 1995؛ لمراجعة ترجمة "جاك بيرك"، وخلصت اللجنة إلى أن هذه الترجمة غير أمينة واعتبرتها محرمة، واتهمت مؤلفها بالجهل باللغة العربية، بالرغم من أنه كان عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لمدة عشرين عامًا.

وربما أحدث ذلك صحوة من جانب المترجمين المسلمين فشهد القرن العشرين بعض الترجمات من قبل المسلمين، والتي بدأت عام 1936؛ عندما أصدر مجلس الوزراء المصري قرارًا رسميًا بموافقته على ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة رسمية تقوم بها مشيخة الأزهر بمساعدة وزارة الأوقاف العمومية، وذلك وفقًا لفتوى جماعة كبار العلماء أساتذة كلية الشريعة، وكانت مشيخة الأزهر برئاسة محمد مصطفى المراغي، الذي كان أيضًا رئيس لجماعة كبار العلماء التي أصدرت قرارها بالموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم.

وكانت هذه أولى المحاولات من قبل المسلمين في محاولة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، خاصة الإنجليزية، ثم الألمانية، والأسبانية، والفرنسية، والإيطالية، وفيما بعد لمعظم لغات العالم.

وقد حرص المترجمون على إبراز معاني القرآن الكريم متجاهلين القواعد اللغوية للغات التي يترجمون إليها، فخرجت بها أخطاء لغوية ونحوية كثيرة، ليعتقد قراء هذه الترجمات أن هذه الأخطاء موجودة في القرآن نفسه، وليست من وضع المترجمين المسلمين الذين كان أغلبهم لا يجيد اللغة الأجنبية التي يترجم لها إجادة تامة، وكان اهتمامهم منصبًا على المعنى والمغزى والآيات فأهملوا الناحية اللغوية على حساب المعنى.

وخلاصة القول بالرغم من التقدم الذي أحرزته ترجمات القرآن الكريم في القرن العشرين، حيث ظهرت عدة ترجمات احترم مؤلفوها النص القرآني، وبذلوا مجهودًا كبيرًا للحفاظ على معانيه وتناسق قوامه، فإن بعض العلماء المسلمين الذين أنجزوا بعض هذه الترجمات من العربية إلى اللغات الأوربية اتهموا المستشرقين من العلماء غير المسلمين الذين ترجموا القرآن بالجهل، وعدم الأمانة، والدقة العلمية، وعدم الموضوعية، بالرغم من ظهور عدة ترجمات في القرن العشرين من قبل بعض المستشرقين التزمت الموضوعية والدقة والأمانة العلمية واللغوية.

وفي رأينا إن أفضل ترجمة للقرآن الكريم إلى لغة أجنبية هي التي يقوم بها عالم عربي مسلم، ويقوم بمراجعتها خبير لغوي في اللغة الأجنبية المترجم إليها القرآن الكريم، حيث يؤكد التحريف والتبديل الذي تم في الكثير من الترجمات حاجتنا الماسة إلى ترجمة صحيحة تراجع لغويًا لتخلوا من الأخطاء النحوية يعتمدها الأزهر الشريف، وهيئة كبار العلماء وأساتذة الجامعات، لتكون مرجعًا لكل الترجمات التي ستنبثق منها إلى غيرها من اللغات الغربية.

وبعد فهذه محاولة لنبش خبايا الماضي، وتوضيح موقف ودور الغرب من كتابنا المقدس، لأجل محاولة التفسير والمعرفة، بهدف توظيف العقل في دراسة أنفسنا ودراسة الغير، لنكتشف الطريق إلى تغيير واقعنا والسيطرة عليه، إننا نستطيع مثلاً إعادة كتابة تاريخنا، وتاريخهم في منطقتنا كتابة موضوعية موثقة بدلاً من الاعتماد على ما يكتبه لنا الآخرون، وأن نستغل الثورة المعلوماتية، لنحاول إبلاغ صوتنا المنادي بما فعله الغربيون تجاه الإسلام من عداوة لها جذور وتاريخ قائم منذ مئات السنين، وبهذا لا نقع فريسة لما يرددون من يد السلام والحوار مع الإسلام والمسلمين، لأننا بذلك نحقق الفرصة التاريخية للآخر لفرض هيمنته وسيادته في النهاية، حتى لا يبقى لنا غير السقوط الأخير.

المراجع

1. إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981).
2. روبن بدول: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبد الله أدم نصيف، (الرياض: المترجم، 1989).
3. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة أخرى، أترجمة أم تفسير؟، (الرياض: المؤلف، 1424هـ).
4. محمد همام فكري: أوائل ترجمات معاني القرآن الكريم في اللغات الأوروبية، (الدوحة: مكتبة التراث العربي والإسلامي، 2011).
5. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (الدوحة: كتاب الأمة، 1404هـ).
6. منير الفندري: "ترجمتان ألمانيتان للقرآن في عصر التنوير"، مجلة فكر وفن، العدد 54، (1992).
7. أكرم ضياء العمري: الاستشرق والقرآن، (الدوحة: روايا للدراسات والبحوث، 2013).

الفكر المتطرف في مجتمعنا العربي



د. إدريس سلطان صالح

أستاذ مشارك بجامعة المنيا - مصر

يموج العالم العربي بجماعات متنوعة، تأخذ الإسلام شعارًا لها، وكل جماعة لها رؤى وأفكار وتفسيرات أبعد ما تكون عن الدين الإسلامي وأحكامه السمحة، التي تهدف إلى الرقي الإنساني بكل جوانبه المادية والروحية.

حاولت هذه الجماعات ولا تزال تحاول استغلال النزعة الدينية للشباب العربي، نتيجة غياب الدور الحقيقي للمؤسسات الرسمية في احتواء هؤلاء الشباب، وتربيتهم التربية السليمة التي تجعل منهم مواطنين صالحين، وتسليحهم بالفكر المستنير القادر على مواجهة الأفكار المتطرفة التي تبثها تلك الجماعات في نفوسهم.

حيث ازداد تأثير تلك الجماعات، وانتشرت أفكارها عقب ثورات الربيع العربي، التي طالب الشباب فيها بتحقيق الديموقراطية والعدالة المفقودة منذ عقود، الأمر الذي سهل لتلك الجماعات محاولات الاستحواذ على الساحة المجتمعية والإعلامية والدينية، بما تروج له من خدمات في أوساط الفقراء والمهمشين، بغض النظر عن تنوع أهداف تلك الجماعات من وراء هذه الخدمات.

وما زاد الأمر سوءًا تفشي الفساد في كثير من المجتمعات العربية، وشعور الشباب بضياع حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفشل منظومة التعليم في بناء أجيال قادرة على تحمل مسئولية مجتمعاتهم، وتدهور منظومة الصحة لمنحدر خطير جعلها عاجزة عن تقديم خدمات صحية تعالج الأمراض المتنوعة، وغياب المؤسسات الدينية عن الواقع وما يموج به من قضايا عصرية.

وكذلك وسائل الإعلام التي أدت - برغم انتشارها - أدوارًا سيئة، كان لها الأثر السلبي في نفوس كثير من هؤلاء الشباب، بسبب سطحية تناولها لقضايا المجتمعات وأزماته، وتقليدية ما تطرحه عن حياة الشباب، وما تقدمه من أفكار وحلول لمشكلاتهم.

وفي مقابل ما تطرحه الجماعات من أفكار متطرفة، قد يعتقد البعض أن الحلول الأمنية التقليدية هي الحل، ولهمين أن الحلول الأمنية وحدها قادرة على محاربة الفكر المتطرف وتحد من انتشاره بين الشباب.

فقد تنجح الحلول الأمنية في مواجهة ظاهرة السرقة أو (البلطجة) أو القتل، ولكنها لن تجدي نفعًا في مواجهة الفكر المتطرف، فنحن اليوم في عالم مفتوح، ساعدت التكنولوجيا في انتشار المعلومات والأفكار بسرعة لم يسبق لها مثيل، ومن ثم نحن في حاجة لحلول غير تقليدية، حلول قائمة على المعلومات.

ولذلك فإن مواجهة فكر الجماعات المتطرفة، واقتلاعه من جذوره، لن يتحقق إلا بفكر مستنير، فكر قادر على المواجهة والتطويق لما هو غير بناء، فكر نستطيع به تحصين شبابنا وتسليحهم بالعلم والثقافة الحقيقية التي تمكنهم من الصمود وعدم الانجراف لدعوات العنف والتطرف.

أبجديات هذه الحلول تكمن في محاربة حقيقية للفساد، وتحقيق تكافؤ الفرص، فعندما يجد الشباب أنفسهم في مجتمع يحترم قدراتهم ومهاراتهم دون تمييز، فلن يكون سهلاً أن ينخدع أو ينجرف لأفكار عنف وتطرف قد تستغل سعيهم السلمي للحصول على حقوقهم.

وعندما تنجح المنظومة التعليمية في إعداد مواطنين صالحين، يمتلكون المعارف والمهارات والقيم اللازمة لعصر التكنولوجيا المتزايدة، ولديهم قدرات عقلية تجعلهم مفكرين وناقدين لكل ما يُطرح حولهم من قضايا ومشكلات، يستطيعون فهمها وإبداع حلول غير تقليدية لها.

وعندما تنجح المنظومة الصحية في توفير علاج مناسب للفقراء والمهمشين، وتمنع تفشي الأمراض والأوبئة، وترحم ضعفهم وهوانهم أمام المستشفيات الحكومية التي تعاني الترهل وضعف الإمكانات.

وعندما يوجد ميثاق إعلامي هدفه المصالح العليا للمجتمعات، بعيدًا عن الإسفاف والتناول السطحي للقضايا، بحيث يكون لدينا إعلام محوره الفكر والثقافة، والقيم التي تشجع كل بناء، وكل نقد بناء، وما يطرحه من حلول للمشكلات والأزمات المجتمعية.

لذلك فالحلول السليمة لمواجهة فكر الجماعات المتطرفة لا يكمن في علاج الأعراض فحسب، بل علاج أسباب هذا الفكر، والدوافع التي تجعل لمثل تلك الأفكار صدى لدى بعض الشباب، مما يجعل الحلول جذرية.



إضاءة في قضايا الفكر ومناهج التفكير



حمد بن حسين الجعيدي

السعودية - الخرج

التفكير من خصائص الإنسان، الكائن المميز به، الممكن من إنتاج المعرفة، المتحرك بالإرادة والاختيار والقدرة على التمييز، حتى لكأن الأنا الذات بإطلاقها الفلسفي وفي جميع اتجاهاتها في الضمير اللغوي القائم في كل شخصيّة إنسانية بذاتها المستقلة بمقوماتها في الأنا و(الأنوات الأخرى) تنحصر في قدرة الإنسان على التفكير. (أنا أفكر، إذن أنا موجود) حكمة ديكارت الشهيرة، وبكل الاحتمالات التي تفسر بها هذه المقولة سواء ذكرها باقتصاره على المقدمة الكبرى والنتيجة مع إسقاط المقدمة الصغرى، أو قررها عندما تعرف على وجوده واستيقنه من خلال قدرته على التفكير، والتي بنى عليها فلسفته ومنهجيته، بعيدًا عن محاكمة تلك المنهجية هل نتجت منه ابتداءً أو بناءً على ما استفاده من الإمام أبي حامد الغزالي في رحلة الوصول إلى اليقين عبر بوابة التفكير؟ كما يحاول إثبات هذا التأثر أو يلفت النظر إليه بعض الباحثين. وسواء استفاد اللاحق من السابق، أو حصل بينهما التوافق، فالذي يهمنا هنا الإشارة إلى أهمية خاصية التفكير والقدرة عليه عند الإنسان، وأنه مقوم أساس من مقومات وجوده، بل إن إنتاجه الفكري يتعدى وجوده ويمتد عبر الزمان ولو غادر الحياة.

فالإنسان هو الكائن المتميز بالتفكير والمكلف بالتفكّر، وفي استقراء سريع لآي الكتاب العظيم، نجد الكم الكبير من الحث على التفكير وإعمال الذهن في الكون والوجود وما فيه وما سخر منه وما وراءه وسننه وقوانينه وحركة الحياة، في الأمر بالتبصر والتفكر والنظر والتعقل والتدبر لبناء المعرفة والإنتاج العلمي ماديًّا أو معنويًّا، محسوسًا أو مدركًا، بقدرة الإنسان على الإدراك بما يتعدى أدوات المعرفة المادية وامتلاكه خاصية القدرة على استشراف الغيب والتعمق بالفكر والاستدلال بالشاهد على الغائب، والانتقال من المحسوس إلى المجرد، والتمييز والمقارنة والاستقراء والفقه والاستنتاج والتحليل والتركيب، وغير ذلك من عمليات الفكر. وبقدر ما يرتب الإنسان أفكاره بقدر ما يحسن إنتاجه، فيحتاج إلى منهجية وضوابط في التفكير.

إذا أدركنا هذه الطاقة الهائلة في الإنسان، واستشرفنا أهميتها في هذه المقدمة القصيرة، فإني سأحاول هنا وضع بعض الإضاءات في سبيل التفكير الإيجابي ليس تحجيرًا عليه كما قد يُظن به ذلك، ولكن مشاركة نحو تفكير بناء، وإضاءة في طريق التفكّر وتقييم الفكر:

الأولى: ليس كل ما يتوصل إليه الإنسان بفكره حقًّا

مسلّمًا لا يقبل النقاش والاستدراك عليه. وفي رحلة الفكر الإنساني الطويلة عبر التاريخ ما يدل على هذه الحقيقة، فالفلسفة وهي من أعظم ما اشتغل به الفكر البشري وأشغله لم تصل إلى الحقيقة المطلقة السالمة من الاعتراض والمناقشة فقد قاربت وابتعدت، وأصابت وأخطأت كأي محاولة للفكر الإنساني. ولو أصابت الفلسفة في كل ما قالت لم يتناقض الفلاسفة حول الفكرة الواحدة، ولم يستدرك الخالف على السالف، وإن كانت هناك محاولات لوضع قانون للتفكير وميزان لضمان عصمته، كما في المنطق الأرسطوطاليسي، لكن هذا المنطق الذي شغل به كثير من المفكرين في زمن بعثه وتجديده في أيام الحضارة الإسلامية، وظن الكثير منهم أنه الميزان الوحيد لإنتاج الفكر السليم لم يسلم من الاعتراض، حتى تباينت فيه الفتوى عند علماء المسلمين وظل محل نقاش بين مؤيد ورافض وناقد وناقض له، ولما بدأت الحضارة تتجه غربًا انتقل معها النقاش حوله، وانقسم المفكرون فيه قسمين: مؤيدين وناقدين، وتنامى الانتقاد له مع البحث عن مناهج جديدة ومفيدة للتفكير، وظهر المعارضون له والرافضون له في بداية الأمر على تخوف كما هو حال روجر بيكون، الذي لم تفلح محاولته لقوة الاتجاه نحو منطق أرسطو في زمانه، وبعد أكثر من قرنين من الزمان تجددت المعارضة لمنطق أرسطو بشكل أقوى على يد ليونارد دفينشي، واشتد عودها بعد مجيء فرانسيس بيكون وجاليليو وديكارت فتراجع المنطق الأرسطي، بل نسفوه نسفًا ورفضوه رفضًا لعدهم له غير مفيد في إنتاج المعرفة أساسًا وابتداءً، وظهر منهج التفكير القائم على التجربة والملاحظة والاستقراء.

لم يكن النقد لفلسفة الأولين مقتصرًا على أوروبا بل كان في العالم الإسلامي في الحقبة الزمنية نفسها حراك متنام في النقد لها سابق ومواكب لنظيره في أوروبا الناشئة في ذلك الحين، وإني أرى أن أول من أثار هذا الحراك النقدي لفلسفة الأقدمين والمؤيدين المجددين لها في العالم الإسلامي على منهج علمي هو الإمام الغزالي، ومن أحسن نقاد الفلسفة المسلمين ابن خلدون فقد اتسم منهجه بميزتين في نظري:

أولاهما: أنه لم يقبل الفلسفة في الإلهيات، ووقف منها موقف المعارض، واعتبارها فيما عدا ذلك من العلم القائم على الظن القابلة للنقاش والقبول والرفض، إلا ما كان منها قائمًا على منهج صحيح ينتج الحقيقة كالتجربة والعلوم الرياضية.

والأخرى: فصل العلم التجريبي عن الفلسفة، فيعد ابن خلدون من روّاد الدعوة إلى فصل العلم التجريبي عن الفلسفة التي بدت ملامحه تتضح في عصره، وبخاصة في العالم الأوروبي، حتى عُدّ ابن خلدون من أصحاب المنهج العلمي أكثر من كونه فيلسوفًا، فهو ينزع إلى التفكير التجريبي، فيختبر الحقائق، ويحقق النتائج، وعلى هذا المنهج نقد التاريخ وبنى مقدمته.

بهذا تمايزت مواضيع الفلسفة وخرجت العلوم الرياضيّة والفيزيائية وغيرها من القائمة على التجربة والملاحظة والاستقراء من اختصاص الفلسفة وتحررت منها، واقتصرت مباحثها على ما وراء ذلك. والذي جعل هذه العلوم تخرج منها أنها وجدت مرجعيتها التي يمكن أن يتحاكم إليها من اختلف فيها بما يقطع الشك باليقين، وبقيت الفلسفة الميتافيزيقية تفتقد المرجعية المعصومة، أو بالأحرى لم تسلّم لها في أهم جوانبها، ولو سلمت للمرجعية المعصومة من الخطأ في الخبر بما لا يقع تحت الحس مع القدرة البشرية على اعتقاد ذلك وتصديقه، لسلمت من التيه في الظن، وبلغت احترام العقل وما بالغت في تقديسه، ووضعت الأمور في نصابها وتحقق العدل القائم على وضع الشيء في موضعه المناسب والرجوع بالشيء إلى مصدره الأساسي. وفي الصحيحين يوجد الحق في العلم القائم على الاستقراء بأنواعه والتجربة والملاحظة، وفي الوحي المعصوم من الخطأ فيما كان منه قطعيًّا، فهو الحق المطلق الذي لا تُبنى حقيقته على إيمان المؤمنين به، ولا يُفنيها وينفيها كفر من كفر به، لأنه الحق في ذاته ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ الكهف: 29. وهذان الصحيحان رفيقان متعاضدان وإني أجدهما يجتمعان في قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فصّلت: 53 ، وبهما تتحقق وظيفة الإنسان بجانبيها: عمارة الأرض، وتحقيق العبودية لله، وهما أساسا استخلافه فيها.

مُحّصت الفلسفة القديمة وتجافى الزبد وبقي ما ينفع الناس، ولئن تطورت الحضارة المادية في الغرب بعد أن تمايزت عن الفلسفة، وقامت على منهج التجربة والملاحظة والاستقراء التي قادها أولئك الرواد في أوروبا الذين تقدم ذكرهم، ففي المدة الزمنية نفسها والحقبة التاريخية تلك حفظ الجانب الروحي والقيمي من حضارة الإنسان في العالم الإسلامي بقيام علماء مسلمين بنقدها وتفنيدها في الألوهية والنبوات وقضايا العقيدة التي تعتمد على الوحي، ومن أبرز هذه الرموز العلمية الإسلامية ابن تيمية. لكن الفلسفة لم تمت ولا ينبغي لها أن تؤد أو تستبعد، بل يجب أن تبقى في مجالها فيما وراء هذين الحقين والحقيقتين، وأن يُعرف قدرها بأنها نتاج عقل بشري يصيب ويخطئ، يمحص وينقد بالمعايير الثابتة، لتنتج لنا المفيد في جوانب أخرى من النشاط الفكري البشري.

الثانية: وهي منطلقة من حكمة الخبر أو الأثر: "تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذات الله"، وفي لفظ: "تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله"، الذي يروى مرفوعًا ويروى موقوفًا. وفي هذا احترام للعقل وصيانة للفكر عندما يتبع منهجية منطقية في الاستدلال، فالعقل البشري لا يمكنه الإحاطة بكل شيء في الوجود، ولكن

"فالفلسفة وهي من أعظم ما اشتغل به الفكر البشري وأشغله لم تصل إلى الحقيقة المطلقة السالمة من الاعتراض والمناقشة، فقد قاربت وابتعدت، وأصابت وأخطأت، كأي محاولة للفكر الإنساني"

"وإن كانت هناك محاولات لوضع قانون للتفكير وميزان لضمان عصمته، كما في المنطق الأرسطوطاليسي، لكن هذا المنطق الذي شغل به كثير من المفكرين في زمن بعثه وتجديده في أيام الحضارة الإسلامية، وظن الكثير منهم أنه الميزان الوحيد لإنتاج الفكر السليم لم يسلم من الاعتراض حتى تباينت فيه الفتوى عند علماء المسلمين، وظل محل نقاش بين مؤيد ورافض وناقد وناقض له"

"لم يكن النقد لفلسفة الأولين مقتصرًا على أوروبا، بل كان في العالم الإسلامي في الحقبة الزمنية نفسها حراك متنام في النقد لها سابق ومواكب لنظيره في أوروبا الناشئة في ذلك الحين، وإني أرى أن أول من أثار هذا الحراك النقدي لفلسفة الأقدمين والمؤيدين المجددين لها في العالم الإسلامي على منهج علمي هو الإمام الغزالي، ومن أحسن نقاد الفلسفة المسلمين ابن خلدون"

بمقدوره أن يستدل على ما لا يراه بالموجود الواقع في نطاق حواسه أو إدراكه على ما وراءه. ووجود ما وراء إيجاد هذه الكون وهو الله تعالى في الوحي لا يمكن أن ينكره أحد إنكارًا كليًّا وقطعيًّا، ولا يمكن أن يجزم بهذا الإنكار عاقل لأنه لا يمكن أن يحيط بما وراء هذا الكون فينكره، ويبقى حتى في عقيدة أكابر الملاحدة التقابل بين الاحتمال الأكبر والاحتمال الأصغر، وقد نقد القرآن مثل هذا الإنكار بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يونس: 39. وما نشأ من الجحود للموجِد فمن الجهل بحقيقة الوجود وما وراءه، والقياس للخالق على المخلوق، والتصور لله تعالى، والتشبيه والتوصيف والتخييل الذي يجب أن يستبعد عمن ليس كمثله شيء، ولا يحيطون به علمًا، ولا تدركه الأبصار.

إن إدراك أن للكون موجدًا قادرًا مريدًا ليس مما يستحيل على عقل البشر، وإنما قد يحار فيه الفكر، ولذلك الأنبياء لم تأت بمحالات العقول وإنما أتت بالهداية في محارات العقول، كما يقول ابن تيمية. فلا جدوى من التفكر في ذات الله تعالى، وإنما السبيل إلى معرفته التفكر في آلائه، والتعرف على أسمائه في خلقه في ضوء الوحي.

ونقف مع أعظم اسم من أسماء الله الحسنى (الله) بالتعريف الذي لا ينكّر أبدًا ولا يقبل ذلك، ولا يقبل حذف أل التعريف عندما تدخل عليه ياء النداء، ولا يثنى ولا يجمع، وكل هذه السمات حصر على هذا الاسم الأعظم ومن خصائصه، ويتضمن معنى الألوهية، فالله هو الإله ذو الألوهية على خلقه أجمعين، وفي تفسير القرآن بالقرآن نجد آيتين في سياق واحد تدلان على أن كلمة الله معناها الإله، لالتقائهما عند معنى واحد، فتفسر كل منهما الأخرى من حيث دلالة اسم الله على معنى الإلهية الأولى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ الأنعام: 3 والأخرى ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الزخرف: 84. فالله في الآية الأولى معناه الإله في الآية الأخرى، والإله هو المعبود، فيكون معنى الله الإله أو ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، كما فسره ابن عباس رضي الله عنه، فتشمل إلهيته جميع خلقه بالخضوع لأمره والاستجابة له لتحقيق الألوهية، لأنه الله.

ومن بلاغة الآيتين أنه لما جاءت الكلمة الدالة على الألوهية بلفظ إله قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الزخرف: 84. فهو إله الأرض وإله السماء، وإله من في الأرض، وإله من في السماء، وإله الناس. ولما كانت الكلمة بلفظ (الله) قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ الأنعام: 3 ولم يقل: هو الله في السماوات وهو الله في الأرض، بل هو الله في السموات والأرض الذي له الخلق والأمر، لأنه الله.

أما دلالات هذا الاسم العظيم في الوجود وانعكاساته في الكون فمن تفكّر وجد هذه الحقيقة، فالحركة الكونية سواء كانت مكانيكية فيزيائية أو تفاعلات كميائية، أو حركة نمائية في انقسام الخلايا الحيوية، أو حركة النجوم والكواكب في أفلاكها والمجرات في مداراتها والإلكترونات في مجالاتها واستمرارها في الحركة وأداء خصائصها وحدوث الزمن وانتظام ذلك في نظام تعكس استجابة لأمر قاهر ظاهر عليها لا تعرف التمرد عليه، منضبطة بقوانين تسير بها، ولا تحيد عنها. وقد علمنا القرآن أن لله أمرًا كونيًّا، وأمرًا شرعيًّا: الأمر الكوني ما تسير عليه المخلوقات وفق ما رسم لها وقدّر ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ طه: 50 وخلقه الذي أعطاه إياه هو تقديره المناسب له، ثم سار على الطريق الذي رسم له، فحصل بالخلق والأمر الإيجاد والوجود للكون ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف: 54. فلا يخرج هذا الكون وما فيه عمّا قدّر له، ويسير على ما أمر به، فلا يحيد عن الاستجابة للأمر الكوني تحقيقًا للتأله الفطري، وهذه هي الهداية الكونية، فأعطى كل شيء خصائصه التي يؤدي بها دوره في الوجود، فالموجودات من الذرة إلى المجرة تبرهن على وجود خطة مرسومة في خلقها وتنفيذها وأمر تخضع له.

إن وراء هذا الكون إرادة يستجيب لها ومشيئة تدبره في تناسق وانتظام وفي استسلام تام لا يمكنه التمرد عليها أو مخالفتها، وهذه هي العبودية أو التأله الكوني لله، استجابة لأمر الله الكوني بمقتضى إلهيته، لأنه الله.

أما الأمر الآخر فهو الأمر الشرعي المُوجَّه للمكلف بحرية الاختيار والمحمّل أمانة الاستجابة، ذلك هو الإنسان الذي يمكنه أن يمتثل لأمر الله الشرعي فيحقق التأله لله، وينسجم مع الكون من حوله، أو يعصي الأمر الشرعي فيقصّر في هذا الحق. ولا يمكن أن يتلقى الإنسان هذا الأمر ويعلم به ويعلم أنه ينفذه وفق إرادة الله الشرعية إلا عن طريق الوحي الذي تبلغه رسل الله فقط، فلا يعبد الله إلا بما شرع، إذ لا بد أن يُعرف الأمر من الله فيمتثل تعبدًا وتألهًا لله على مراد الله، فيستقيم على الهدى كما استقام الكون على أمر الله الكوني عندما استجاب لأمره وتقديره واهتدى به، وعندئذ تلتقي العبودية الاختيارية المكلف بها الكائن البشري مع العبودية الفطرية في الكون المسخر بأمر الله القدري، والاستسلام لله، لأنه الله.

إذا وعينا معنى هذا الاسم الأعظم، وأدركنا أثره في الكون والوجود، وانعكاسات الدلالات الكونية والعلمية التي تمدنا دائمًا بما يؤكد هذه الحقيقة أيقنا أنه قد جاءت رسول ربنا بالحق، وضمنا مرجعية ثابتة يتحاكم إليها فيما اختُلف فيه من الحق. ثم نترك العقل يجول فيما وراء ذلك من نافع مفيد وعامر للأرض في ضوء التأله لله.

إن العقل البشري يضلّ ويهتدي، ويصيب ويخطئ، فهو آلة وليس إلهاً، مُيّز به الإنسان وكلف به لعمارة الأرض والعبودية لله، ويصل بالإنسان في سلام إذا سار على منهج صحيح، فينعم عندئذٍ بالعقل ولا يشقى به.

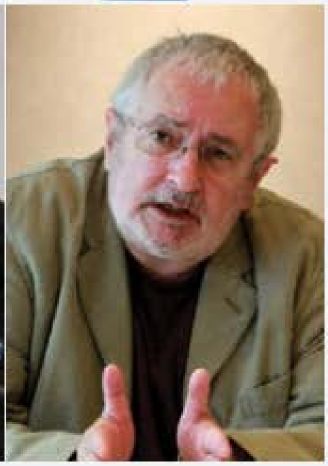
"إن إدراك أن للكون موجدًا قادرًا مريدًا ليس مما يستحيل على عقل البشر، وإنما قد يحار فيه الفكر، ولذلك الأنبياء لم تأت بمحالات العقول وإنما أتت بالهداية في محارات العقول، كما يقول ابن تيمية. فلا جدوى من التفكر في ذات الله تعالى، وإنما السبيل إلى معرفته التفكر في آلائه، والتعرف على أسمائه في خلقه في ضوء الوحي"

"إن وراء هذا الكون إرادة يستجيب لها ومشيئة تدبره في تناسق وانتظام وفي استسلام تام لا يمكنه التمرد عليها أو مخالفتها، وهذه هي العبودية أو التأله الكوني لله، استجابة لأمر الله الكوني بمقتضى إلهيته، لأنه الله"

"أما الأمر الآخر فهو الأمر الشرعي المُوجّه للمكلف بحرية الاختيار والمحمّل أمانة الاستجابة، ذلك هو الإنسان الذي يمكنه أن يمتثل لأمر الله الشرعي فيحقق التأله لله، وينسجم مع الكون من حوله، أو يعصي الأمر الشرعي فيقصّر في هذا الحق"



أمبيرتو إيكو



تيري إيغلتون

بين العمل والنص.. وبين السيميائية والتأويليّة

سُميّة عزّام

المعهد العالي للدكتوراه اللبنانيّة

النص، كما تراه السيميولوجيا، نظام من العلامات يشكّل مجموعة من البنى، وهو متماسح مع الدلالة؛ والنص الأدبي بمقتضى "سيميولوجيا هرمينوطيقية للأدب" يتكلّمنا حين نقرأه. وهكذا، فنحن، بوصفنا قرّاء أو مؤوّلين، والنص، بوصفه قراءة أو تأويلاً، فعاليتان ذواتا معنى ضمن الدراسة العامة للأدب". فالعمل موضوع تأويل ينتجه فنان. أما النص فليس ذلك الذي يؤوّل، إنما هو الميدان الذي يحدث التأويل، فهو بروغ من أي معنى أحادي، هو نتاج سلسلة دالّة تمتدّ إلى ما وراء تخوم الدائرة الهرمينوطيقية الجمالية. وفي السياق عينه، يصف موكاروفسكي (من علماء مدرسة براغ ومن أقطاب سيمياء الثقافة) العمل الفني بأنه يملك كيانًا مستقلاً بذاته، لكنه في الوقت نفسه على علاقة جدلية دائمة بالتطورات في حقول الثقافة الأخرى.

ويشير تيري إيغلتون إلى رؤية ما بعد البنيويّة إلى "الكتابة" أو "النصّيّة"؛ فإنّ "النقلة من البنيوية إلى ما بعدها هي، كما يقول بارت، نقلة من "العمل" إلى "النص". إنها انتقال من رؤية الرواية ككيان مغلق تشغله معانٍ محدّدة إلى رؤيتها بوصفها تعدّديّة على نحو لا يقبل الاختزال".

كما يعلن أمبرتو إيكو، في هذا الصدد، أن "النص يُبنى كعالم مغلق ومكتفٍ بذاته من حيث التحديد الدلالي المسبق الذي يسقطه المؤلف؛ لكنه يُبنى أيضاً كعالم مفتوح على محيطه لارتباطه الوثيق بقارئ لا يذعن دائمًا لأهواء المؤلّف النموذجي". وعليه، يجب أن يكون الكتاب بناءً مفتوحًا ومتحوّلاً: "فالآثار المفتوحة والمتحوّلة تتميّز بالدعوة إلى إنتاج الأثر مع المؤلّف. كل أثر فنّي يبقى مفتوحًا على سلسلة لا منتهية من القراءات الممكنة، وكل قراءة من هذه القراءات تعيد إحياء الأثر وفق منظور أو ذائقة أو تنفيذ شخصي"... "فالتفكير الجمالي المعاصر منه ارتبط بلا نهائية الأثر المكتمل". يتقاطع هذا الطرح مع نظرية تيري إيغلتون في أن "كل قراءة لعمل ما هي في الحقيقة إعادة كتابة".

ينظر إيكو إلى التأويل على أنه نشاط سيميائي تحكمه قواعد ومعايير، مولياً أهمية للاستعارة وعلاقتها بتجربتنا الداخلية وسيروراتنا الوجدانية، وتأويلها يجعلنا نرى إلى العالم رؤية مغايرة، ويوجب التساؤل "كيف تجعلنا نرى العالم بهذه الكيفيّة الجديدة، وليس لم تربنا العالم بتلك الطريقة". جاعلاً مفهوم التشاكل مكوّنًا أساسيًّا من إستراتيجية تأويل النص (وهو كما يعرّفه غريماس مجموعة متواترة من المقولات الدلالية، تمكّننا من قراءة النص قراءة منسجمة)؛ فيصوغ مفهومًا جدليًّا وديناميًّا يدمج قصدية القارئ وقصدية النص في نسق تفاعلي، ملغيًا بذلك التعارض القائم بين الاتجاه البنيوي (قصدية النص) والاتجاه ما بعد البنيوي (قصدية القارئ) مطلقًا على هذا النسق تسمية "التعاضد النصّي".

يذهب سلفرمان، في الاتجاه ذاته، قائلاً باقتران المناهج الفكرية بعضها ببعض، موضحًا ذلك بأن "السيمياء قد اقترنت بالهرمينوطيقا كما تدل على مكان علم علامات هرمينوطيقي، كما اقترنت هرمينوطيقا هيدجر وغادامير بمنهج ميرلوبونتي في الاستنطاق الفلسفي، وهذا الأخير اقترن بتفكيكية دريدا".

من هنا، فإن المناهج للمقاربات النصية لا تلغي بعضها البعض، إنما تحتوي سابقتها تستوعبها، وتتمايز في بعض المناحي عنها، وفي أي مقاربة نصّيّة لرواية ما لا تُستبعد السيميولوجيا، كما لا يمكن الاكتفاء بالسيميائية السردية وحسب؛ إذ إنّ آليات التفكيك للرموز والألوان المستخدمة، والأحلام والعوالم المؤثّثة للنصوص الروائية، بوصفها استعارات، من أساسيات المقاربة التأويليّة.



وصف الربيع والأشجار في عصر الأندلس

حنان تميم السلمي

جدة

إحتلَّ فصل الربيع منزلة رفيعة في أدب الرسائل في الأندلس، حتى لقد ألف أبو الوليد الحميري في ذلك كتابًا جمع فيه ما قاله الشعراء والكُتَّاب الأندلسيون في وصف الربيع ومظاهره، سمّاه "البديع في وصف الربيع".

وقد رسم الكُتّاب الأندلسيون لوحات فنية رائعة كثيرة تصور مشاهد الربيع الجميلة، وتنطق بما فيه من سحر وجمال، ومن ذلك رسالة لأحد الكُتّاب جاوب بها أبا عامر ابن أبي عامر، وقد كتب إليه يسأله إباحة الخروج له إلى ضياعه للتنزُّه في فصل الربيع، ويصف مشاهد الربيع الجميلة، ويجعل ذلك في إشراقة الأرض ونضارة الرياض وغناء الطيور، واختلاف ألوان الزهر، وأوراق الشجر، وما إلى ذلك من خضرة ساطعة وثمار يانعة، حيث يقول: "وأقبل الربيعُ بكل حُسن بديع، وأفصحت الطير بعد عجمتها، وأبدت النُّوَّاوير غرائب زهرتها، وكست الورق شجرها، وغطت الزرع قدرها، فلست ترى إلاَّ خضرة تسطع، وثمارًا تينع"[1]

ويتوقف عند أثر هذه المناظر الجميلة في نفوس الناس، فهي تروح عن النفس الصدأ، وتنفع عنها الحزن والأسى بما تبعثه من بهجة وسرور، يقول: "تجلو الصدى من الكبد الحرَّى، وتزيحُ الأسى عن النُّفوس المرضى"[2].

ويصف عبدالوهاب بن حزم سحر الطبيعة الأندلسية في الربيع متمثلة في الأرض والأشجار والدنيا، وما يصل بها من مظاهر الجمال التي تأتي مع الربيع، ويجعل ذلك لونًا من التعاطف بينه وبين الربيع وما يبعثه من حياة في الطبيعة. "فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها ... وبرز الوردُ من كمامه، واهتزَّ الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزَّت رؤوسها، والدنيا قد أبدت بِشرها وأماطتْ عبوسها، وكأن بها قد اطلعتْ من كل ثمر ضروبًا، وأبدت من جناها منظرًا عجيبًا..."[3].

لقد شخص الكاتب الطبيعة وبثَّ فيها الحركة والحياة، وخلع عليها المشاعر الإنسانية.

أمَّا ابن خفاجة فإنه يُعبِّرُ عن سمات الجمال في يوم من أيام الربيع البهيجة في صورة بديعة تمورُ بالحركة، وكأنّه حفل عرس، أو منتدى غناء، تشترك فيه كافة مظاهر الطبيعة، وهي بين مطرب للسمع، ومبهج للنفس، وممتع للنظر، يقول: "هذا يوم ضُرِبَتْ فيه أروقة الأنواء، وأعرست الأرض فيه بالسماء، فالغُصن يتلوَّى ويتثَّنى، والحمامة تُرجِّع وتتغنى، والماء يرْقص من طرب ويُصفِّق..."[4].

إنَّه يعبِّرُ عمَّا يحسُّ به من إحساس كبير بهذا الجمال والسحر، ويجعل الطبيعة تشاركه الفرحة والسرور، ثم هو يدعو صديقه إلى مشاركته في الاستمتاع بمظاهر الطبيعة، وما فيها من سمات البهجة وأسباب الفرحة، يقول: "فإن رأيت أن تكون في من شُهد هذا الإفلاك[5]، وتحضر في من حضر هناك، أجبت منعمًا"[6].

كذلك حظيت الرياض باهتمام الكُتَّاب بها، فوصفوا مفاتنها ومواطن الروعة فيها، ومن أبرز الرسائل في هذا المجال رسالة لابن خفاجة يصف فيها إحدى الرياض التي كان يتردد عليها مع رفاقه في أيام الرَّبيع، حيث الأزهار المختلفة الألوان، والأشجار الوارفة الظلال، المتشابكة الأغصان، والأنهار الجارية ونسيم عليل، وظل ظليل،



وخضرة ممتدة، يقول: "فاحتلنا قبةً خضراء، ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق. وما زلنا نلتحف منها ببَرد ظلٍّ ظليل، ونشتمل عليه برداء نسيم عَليل.."[7]

وقد كانت تلك الرياض مسرحًا لحياة الكُتَّاب اللاهية، فكانوا يلجأون إليها ليستريحوا من صخب الحياة وضجيجها بعد التَّطواف والتجوال الطويل في بلاد الأندلس، فيمتعون أنظارهم بجمالها، ويقيمون في رحابها مجالس الأنس والشراب، ولهذا فقد ارتبطت هذه المجالس بالطبيعة الأندلسية.

ومن الرسائل التي جاءت في هذا الموضوع رسالة لابن الحنَّاط يصف فيها مجلس لهو أقيم وسط إحدى الرِّياض الجميلة، وقد حضره مع بعض ندمائه، "حيثُ جعلت الكأس تدور، ولا حديث لسقاتها، غير هاك وهاتها"[8]

وقيل في وصف الرياض والبساتين في الأندلس: "ثم ظللت أحيى من حكمة الروضة الغناء الأنيقة، ومن كلمة الدوحة العيناء الوريقة، بينما أنا أرتع من ذلك البستان، في مستاسد القربان، وأرعى من حُسن البيان، إلى طرب من أغاني القيان، شاربًا من مائه الزلال..".

لقد التفت الكتاب الأندلسيون إلى الورود والأزهار من ورد ونرجس وسوسن وخيريّ وبنفسج وآس، وغيرها مما زانت حدائق الأندلس وجنانها، فألبست الطبيعة ثوبًا سندسيًّا زادها حسنًا ورونقًا، وقد افتتن الكتاب في وصف ألوانها الزاهية، وعبيرها الفواح، وعطرها الشذي، وخلعوا عليها صفات الحسن والبهاء والجمال. ولقد تجاوز الإعجاب حد الوصف إلى إقامة مناظرات ومفاضلات بين مختلف الأزهار.

ويعد الجزيري أول من كتب هذا اللون من الرسائل في الأندلس، ومن ذلك رسالته التي كتبها للمنصور بن أبي عامر على لسان بنفسج العامرية، وقد فضل الجزيري في رسالته هذه البنفسج على النرجس والبهار حيث يقول: "وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنها والفخر بمشابهها كُلَّ مذهب، وما منهما إلاّ ذو فضيلة غير أنَّ فضلي عليهما أضح من الشمس التي تعلونا، وأعرف من الغمام الذي يسقينا"[9].

ثم إن الكاتب قد اتَّجه بالرسالة نحو المديح، حيث يقول على لسان البنفسج أيضًا مخاطبًا المنصور بن أبي عامر: "إذا ترافعت الخصوم -أيد الله - المنصور مولاي في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها، فإليك مفزعها، وأنت المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها وعلمك بسِّرها وجهرها"[10].

ولعلَّ الباحث في هذا اللون من الرسائل منحىً رمزيًّا، وصدىً للتنافس الذي كان الكُتَّاب في بلاط الأمير، حيث إن الكاتب يرجو التميز على أقرانه، ويوضِّح فضله على غيره من كُتّاب القصر، فهو يقول على لسان البنفسج: "إني أعطر منهما عِطْرًا، وأحمدُ خُبْرًا، وأكرم إمتاعًا شاهدًا أو غائبًا"[11].

وأيضًا ما كتبه ابن بُرْد الأصغر لابن جَهْور، وصف فيها خمسة من الأزهار وفضل الورد عليها. وقد بدأ ابن بُرْد رسالته بالحديث عن مجلس تنادت إليه الأزهار المختلفة للتأمُّل في أحوالها، حيث شرع كل واحد منها في وصف محاسنه والتغني بها: "وكان ممن حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار النّرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيريُّ النمَّام.."[12].

وقد جعل بعض الكتاب وصفهم خاصًّا بزهرة واحدة، كما صنع أبو الوليد ابن العثماني[13]، الذي تحدث عن جمال الخيريّ منظرًا ومخبرًا، وجعله في مقدمة الأزهار، يقول: "بعثتُ بخيري جاز حد التكبير بأنسه فحاز قصب السبق في أبناء جنسه، منظره أرْبى على المسك بنضرته... بهجًا منظره أرجًا مخبره"[14].

ولأبي الوليد الحميري من رسالة في وصف الورد، وقد ربط بين لون الورد ولون خدود المعشوقين، التي أدمتها ألحاظ العاشقين، يقول: "بعثت بخدود المعشوقين، قد أدمتها ألحاظ العاشقين.."[15].

وقد وصف بعض الكتاب حشدًا من الأزهار والورود.[16] ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة لأبي جعفر بن أحمد الذي أُعْجِبَ بالأنوار على اختلاف أشكالها، والأزهار على تنوع ألوانها، يقول: «فَمِنْ أنوار أينعت، وأزهار تنوعت: فَمِنْ وَرْدٍ كتوريد الخدود، ونرجس كمُقل الغيد، وسوسن كأنه راحة ثنت البنان على قُراضة من العقبان... وخيريٌّ كأنما استعار شكله، أو اختار بذلة المحزون، وبنفسج حكى زرق اليواقيت..."[17].

لقد خلع عليها حيوية وحركة وجمالاً، فالورد محمر كالخدود، والنرجس كعيون الفتيات الجميلات، والخيري كأنه بنان انثنى على قطعة ذهب، والبنفسج أزرق كالياقوت.

وكما وصف الكتاب الأندلسيون الأزهار والورود، وصفوا الثمار، إلا أنها لم تحظ بتلك المكانة التي حظيت بها الأزهار فيما انتهى إلينا من رسائلهم، ولعل ذلك يعود إلى أن الأزهار والنواوير والورود شيء جمالي بألوانها وروائحها وأشكالها، وتثير في الكاتب انفعالات ومشاعر وأحاسيس أكثر مما تثيره وتحركه الثمار التي هي غالبًا ما تكون مادة طعام وتفكه[18].

وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله

بكثرتها ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز المعدومان في الأقاليم الباردة، ولا يعدم منها إلا التمر، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل: كالتين القوطي والتين الشعري بإشبيلية.

قال ابن سعيد: وهذان صنفان لم تر عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما، وكذلك التين المالقي والزبيب المنكبي والزبيب العسلي والرمان السفري والخوخ والجوز واللوز، وغير ذلك مما يطول ذكره...

وقد وصف ابن برد النخلة برسالة له يخاطب فيها صاحب نخلة، ويعاتبه لتكتمه بنخلته بالعام الفارط، ويطلبه الجود والكرم عليهم من خيرها ورطبها، ويذكره بوعده لهم أنه سوف يجود عليهم بالغلة هذا العام، فيقول: "فقد علمت ما سلف لنا في العام الفارط من عتابك، ولبسنا شكته من ملامك، لمّا كتمتنا صرام النّخلة التي هي بأرض إحدى الغرائب، وفريدة العجائب هربًا أن نلزمك الإسهام في رطبها، وحرصًا على تمام لذة الاستبداد بها، وقلت، وقد سألناك من جناها قليلاً، ورجونا أن تُنيلنا منها ولو فتيلاً: لو علمتُ أن لكم به هذا الكلف، وإليه هذا النزاع، لأمسكته عليكم، وجعلتُ حكم جداده إليكم، ولكنها إن شاء الله في الآنف غلتكم عتاد نفيس لكم .."[19]

ويذكر فيها أقوال العرب لأنواع صغار النخل ومسمياتها فيقول: "تقول العرب لصغار النخل: الجثيث، والوادي، والهراء، والفسيل، والأشاء، والكافور، والضُّمد، والإغريض."[20]

ويذكر مراحل نمو صغار النخلة وإثمارها، وأن لكل مرحلة يطلق عليها مسمى عند العرب فيقول: "فإذا انعقد سمته السَّياب، فإذا اخضرَّ قبل أن يشتدَّ سمته الجَدال، فإذا عظُم فهو البُسرة إلى الحمرة فهي شُقْحة، فإذا ظهرت الحمرة فهي الزُّهو وقد أزهى، فإذا بدت فيه نقطة من الإرطاب قيل قد وكّت، هي بُسرة مُوكّته، فإذا أدرك حمْلُ النخلة فهو الإناض، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهو المجزَّع، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلقانه، فإذا جرى الإرطاب فيها كلها فهي مُنْسَبِتة"[21].

ثم يستمر الكاتب في ذكر أهمية النخلة، وأنها مصدر للعيش والقوت، فيقول: "في النخل التي رزقنا الله كفافٌ من العيش كاف، وبُلغة من القوت مقنعة. ثم أعظم من أمرها بدنو طعامها في الجدوب، وصبرها لتصرف الليالي والأيام."[22]

ويكمل خطابه لصاحب النخلة لكي يطعمهم من رطبها، فجعل النخلة عمة بل عمة لجميع المسلمين إذا لم يستفيدوا من خيرها ويمنعها عنهم فهم سوف يتوجهون بشكواه للسلطان، فيقول: "نعمت العمة لكم النخلة، والخطاب لجميع المسلمين. وأنت قد استوليت على عمة من عمّاتهم، تستبد بخيرها دونهم، وتمسك معروفها عنهم. ونحن رجال من بني أخيها أتينا نعتفيها، فإن أنت سويتنا مع نفسك فيما تدرُّ به عليك، وتملأ منه يديك، وإلا نافرناك إلى السلطان.."[23]

ولقد وصف الكتاب الأندلسيون أيضًا بعض الثمريات، كالتفاح والأُتْرُج، ومن ذلك ما كتبه ابن خفاجة إلى صديق له، وقد بعث إليه تفاحًا، حيث يصور ابن خفاجة التفاحة تصويرًا جميلاً، يجعله أفضل سفير ورسول بينه وبين صديقه، فصديقه يعلم "أن خير الهدايا، ما جرى مجرى التحايا، وأن أفضل سفير سفر بين صديقين، وتردد بين عشيقين، سفير أشبه المحب خفة روح، والمحبوب عبق ريح"[24]. ويشبه لون التفاحة بلون الخمرة الحمراء، أو دمعة المحب، أو جمرة نار منعقدة، أو خمرة تشرب جامدة، وأنه لم يرَ مثلها في اللون، فلونها يفوق لون الذهب الصائغ، أو اللهب اللافح، يقول: "مثل حمراء عاطرة، كأنها دمعة صبٍّ.. مشتق من الأرج اسمها... لم أرَ مثلها ذهبًا ينفح، ولهبًا لا يلفح..."[25].

ومن ذلك رسالة للوزير الكاتب أبي جعفر ابن اللمائي يصف فيها تفاحة: "تفاحٌ قطعت حمرته وصفرته من خجلات الخدود، ونزعت صورته شبه فوالك النّهود، وختم على ألذَّ من سلوى النّحل، وأعذب من جني النّخل، ناسب الرّياض وأفنى عمره عمرها، فورِّثته زهرها، تذكرُك أسافله سرر البطون الغلب، وطعمه لذاذة الثّغور الشنب".

ولابن خيرة القرطبي من رسالة يصف فيها أترجة بعث بها إلى أحد أصدقائه، وقد التقطها من أحضان الورق، يقول: "وقد بعثت إليك من بنات الثمار أجملها، ومن نتائج البستان أفضلها..."، ثم هو يصف خصائلها العجيبة وصفاتها الغريبة، فإن خزنتها عطرت أثوابك، وإن أمسكتها أذهبت أوصابك[26]... يا لها من أترجة غضة، قد صُورت من ذهب وفضة"[27].

وقال أبو محمد عبدالغفور في وصف سفرجل وتفاحةً: "والمهدي بين يدي هذه الأحرف عدد، كذا من سفرجل، وتصحيفه عندي سفرجل، وإذا سفر عن ثغره جلٌ، فالظفر بطارق الهمّ مجلٌ، يشبه صُور العذارى ضمّخت بالعبير، وثديهن بالتقبيس والتقدير، كأنما لبستْ من الحرير سرقًا، أو شكت بألوانها وجدًا قد برّح بها وأرقًا، بل كأنما سرقت الثديُّ طوابع مسك أحمٍّ، ضمَّت عليه جوانحها إذ خافت الذّم، أقداح غَرَب، عُلَّت بماء ذهب، طُبع من العنبر نواها، وناب عن شذاها الفائح للشُّرب ساطع شذاها، وربما فضلت شهيّ التفاح، وفتكت بأدواء المعد فتكة السفّاح، وإنَّ فاكهة تشبه الثديّ، وتَشْرَك في بعض صفاتها الهديَّ، لجديرةٌ بأن يحفظها عناقًا، ولا يعدل بالواحدة منها عَنَاقًا، بل يجعل فدية قضمها أن تُشَدَّ وَثاقًا، وتضرب أعناقًا. وإن محلَّك من نفسي لخصيبُ جناب الصفاء، نقيُّ جِلباب الوفاء، فصيح طير الثناء، نصيح جيبِ الصناعة والولاء، ووادًا لا يُبلغ مداه، ولا تُوبسُ هواجر البعد ثراه، والله يُلْحفه من التمهيد ظلالاً، ويزيد يانع روضه نَضْرةً وجمالاً، حتى لا تكرى عيون أزهاره، ولا تعيا ألسنة أطياره، ولا يَعْرى من ورقِ عوده، ولا تَخْشى من حلِّ نظام عقوده ".

المصادر:

1 - البديع : ص8 .
2 - نفسه : ص 8-9
3 - الذخيرة: ق1م1، ص145.
4 - نفسه: ق3م2، ص546.
5 - الأفلاك: الفلك : المستدير من الأرض (اللسان : مادة فلك).
6 - الذخيرة: ق3م2، ص546. ويجد الباحث أمثلة أخرى على هذا اللون من الرسائل في البديع :ص22 .
7 - الذخيرة: ق3 م2،ص544.
8 - الخريدة: ج2، ص298.
9 - البديع ص 78.
10 - نفسه ص78.
11 - نفسه ص 78.
12 - نفسه ص55.
13 - أبو الوليد بن العثماني، كان صاحب الشرطة بإشبيلية زمن المعتضد بن عباد (انظر: البديع: ص113).
14 - المصدر السابق نفسه: ص113.
15 - المصدر السابق نفسه: ص129.
16 - انظر: البديع: ص31، الذخيرة: ق3م1، ص469 – 470.
17 - الذخيرة: ق3م2، ص761.
18 - الشعر في ظل بني عباد: ص113.
19 - الذخيرة: ق1 م2، ص 528.
20 - نفسه: ص530.
21 - نفسه: ص530.
22 - نفسه: ص531.
23 - نفسه: ص 531.
24 - الذخيرة: ق3م2، ص545.
25 - نفسه: ص545.
26 - اسمه أحمد بن أيوب ، عمل كاتبًا لدى الناصر لدين الله علي بن حمود، ت 465، انظر ترجمته في الذخيرة، ج1 ، ص472.
27 - الذخيرة، ج1 ص492.
28 - أوْصاب: جمع وصب وهو الوجع والمرض (اللسان مادة: وصب).
29 - الذخيرة: ق1 م1، ص196، 289.
30 - الذخيرة م2 ، ص 259-260.

دعوة للبكاء!!

ها نحن في زمن انكسارات المسافة والنكوص
إلى الوراء..!
نحن الذين تعمدوا دحر العدو مولولاً..
قولاً..
وفعلاً..
نحن الذين تعودوا نفي الحقيقة بالعواء!!

صرخاتنا العليا تؤهلنا إلى الفوضى
وتصبغنا بديباج الهوان ضحىً
وفي المساء..
نقهقه مثل نخس في مقاهي الغرب ينعشه
الحساء!

تُعيرنا الليالي حين نحلم بالرجاء
ويسألنا الزمان متى يفيق حصاننا (العضريت)
من غفواته
ويصهل بالرجولة كيف شاء..
متى يشاء؟!

يا أيها البعض الذين توهموا عرض الحياة
تنعموا بنعيمكم..
وتسنموا حبل النجاة وطوقها وقلادة الطوفان
حتى لا تغيب جباهكم عن حلمها المكان..
ثم عودوا للبكاء!!!



محمد إبراهيم الحربي

الرياض

اللوحة للفنانة التشكيلية: ريكا ساساكي

المجتمع الفلسطيني في عهد الدولة العثمانية

من حيث الحياة السياسية والاجتماعية



بقلم: عماد أحمد العالم

الرياض

@emadelalem

هل اختلف نمط معيشة سكان فلسطين في أثناء حكم العثمانيين لهم، وهل كانت لهم مشاركة سياسية في الدولة واجتماعية طاغية بحكم كونهم سكان البلاد الأصليين، وهل حظوا بدورٍ فاعل في إدارة شؤونهم عبر انخراطهم المباشر في مؤسسات الدولة الواقعة على أراضيهم، وهل كان لهم تأثير على تسيير شؤونهم الخاصة والعامة والإدارية والاجتماعية، أم أن دورهم كان هامشيًا مقارنةً بالعثمانيين، الذين احتفظوا بكل ما هو أساسي من الأدوار وهمشوا الفلسطينيين، ولم يمنحوهم فرصة تحكم أنفسهم وتسيير شؤونهم دون الرجوع للباب العالي وباستقلالية في اتخاذ القرارات.

شهدت الحقبة الأولى من الحكم العثماني لفلسطين تغييرات قليلة في نمط الإدارة الذي كان سائدًا أيام حكم المماليك، واعتمد الحاكم الجديد على العائلات الفلسطينية في جمع الضرائب والمساهمة في حفظ الأمن وصد المطامع العربية الخارجية، وبرز من هذه العائلات ثلاثة وهم: آل رضوان، وآل طراباي، وآل فروخ، وأنيطت بهم قيادة قافلة الحج، التي تناوبت العائلات الثلاث عليها حسب رضا الدولة العثمانية عليها.

في البداية، لم يقم العثمانيون بتغيير بعض الأمراء المحليين في فلسطين، بل أبقوا عليهم وهم الذين اعترفوا بالسلطة العثمانية، وتعهدوا لها بالمساهمة معها في حفظ الأمن وجباية الضرائب. بشكلٍ عام تذبذبت سياسة العثمانيين في التعامل مع الزعامات الفلسطينية، فتراوحت ما بين الشدة في التعامل الذي يصل لحد القمع، وأخرى بمحاولات احتوائهم وكسب ودهم عبر منحهم الأعطيات، وتعيينهم في مناصب الدولة ومنحهم الإقطاعات.

شهد القرن السابع عشر الميلادي تحولاً في السياسة العثمانية تجاه الزعامات الفلسطينية المحلية والعائلات، التي وقفت معها سابقًا، كان أحد أبرز الأسباب لهذا التوجه العثماني الجديد هو توقف فتوحاتها وتوسعاتها الخارجية، وحدوث تغيرات في الاقتصاد العثماني أثرت على المناطق الواقعة تحت حكمها، كما تغير نظام تحصيل الضرائب من نظام التيمار أو الإقطاع العسكري إلى نظام الالتزام، وقد أدى هذا التغير في نظام الإدارة المحلية، المتزامن مع ضعف الإدارة المركزية، إلى ازدياد دور القوى المحلية اقتصاديًا وسياسيًا، فبرزت عندئذٍ ثلاث عائلات فلسطينية متصاهرة ومتحالفة (آل رضوان، وآل طُراباي، وآل فروخ) تحالفت مع العثمانيين وأسهمت في صد مطامع فخر الدين المعني الثاني من جبل لبنان ومحاولاته التوسعية في فلسطين، وحفظت الأمن والاستقرار، وساهمت في الازدهار، لكن هذه المكانة للعائلات الفلسطينية الثلاث قد تم القضاء عليها لاحقًا من قبل العثمانيين وتحجيمها وإلغائها، بعد اعتماد الحكم العثماني المتمثل بوزراء آل كوبريلي سياسة المركزية في القرارات، وتحجيم دور القوى المحلية وصلاحياتها الواسعة التي كانت تتمتع بها سابقًا، واستشعر العثمانيون استقلاليتها وقوتها ورفضها الخضوع التام لها، وخاصة أن هذه الأسر كانت ترفض استقبال بعض الموظفين الكبار

الذين أرسلتهم الدولة العثمانية أكثر من مرة. كما شهدت تلك الحقبة بروز الانكشارية التي انضم العديد لها، فشكلت بذلك قوةً جديدة طغت على القوى الفلسطينية التقليدية.

كان اندحار قوة العائلات الفلسطينية سببًا لنشوء فئة من القيادات الفلسطينية الجديدة تمثلت في المشايخ والأعيان، الذين برزوا وقتها في ظل انشغال العثمانيين في حروبهم الخارجية مع آل هاسبرج في الثلث الأخير من القرن السابع عشر. نتج عن ذلك الانشغال ضعف في سيطرة الدولة وحكمها، ومن ثم انعكس ذلك على الأمن والاقتصاد، ولم تتمكن الفئة الناشئة من المشايخ والأعيان من ملء الفراغ السياسي الذي تركته العائلات الثلاث. نتج عن ذلك عصيان للقبائل البدوية التي كانوا قد اتفقوا معها واحتووها سابقًا، وبدأت طبقة الفلاحين بالاعتماد على أنفسهم لحماية ما يملكون، فشكلوا ميليشيات مسلحة تقف ضد قطاع الطرق ومحصلي الضرائب الحكوميين. لاحقًا، وكنتيجة للتسلح الذاتي للفلاحين، برز الظهور الواضح والقوي على الأرض لمشايخ القرى والنواحي الطامحين بمكانة سياسية واقتصادية، كما ظهر فريقان متنافسان وهما قيس واليمن.

شهد القرن الثامن عشر أحداثًا على الأرض الفلسطينية تمثلت أولاً بثورة القدس ونقيب الأشراف، وهي من أكثر الثورات المحلية على العثمانيين تأثيرًا، والتي أدت لاحقًا لتغيير في السياسة العثمانية تجاه الزعامات الفلسطينية والمطالب المحلية في المشاركة في الحكم. كما برز لاحقًا ظاهر العمر الزيداني حاكم الجليل، الملك الفلسطيني الذي كون إمارةً مستقرة اقتصاديًّا وسياسيًا، وتوسع في حكمه حتى قضاء العثمانيين عليه في العام 1775م، وتعيين أحمد باشا حاكمًا على عكا مقر حكم ظاهر العمر، الذي عُرف فيما بعد بالجزار، وساهم في صمود عكا أمام حملة نابليون بونابرت سنة 1799م، التي فشلت في دخولها حتى بعد حصارها من قبلهم لعدة أشهر.

في القرن التاسع عشر، استقرت العلاقات بين الحكام المحليين والسلطات الحاكمة في عكا ودمشق، وتعززت المصالح المشتركة فيما بينهم، ووقفوا جميعًا ضد مطامع والي مصر محمد علي التوسعية التي استشعروها، فقاموا على إثر ذلك بثورة العام 1834م، التي شهدت مشاركة لسكان فلسطين ولأول مرة من الشمال (الجليل) حتى الجنوب (الخليل وغزة).

استمال محمد علي بعض العائلات الفلسطينية لحملته، فوقفوا إلى جانبه كآل السعيد وآل طوقان وآل عبد الهادي، وقاسم الأحمد، مما أسهم في ضعف مقاومة قواته، لكن القدس كان لها موقف مختلف، ومع ذلك دخلها الجيش المصري سنة 1831م.

عقب استعادة العثمانيين لحكمهم بعد ثماني سنوات، حاولت الدولة العثمانية تطبيق أحكام خط شريف غولخانة، لكن هذه الجهود اصطدمت بمعارضة مشايخ النواحي والزعامات المحلية، لأنها تهمش دورهم، وتقضي على نفوذهم، فحدث صراع امتد على مدار ستة عشر عامًا على مراكز القوة، وإعادة توزيع السلطة. تمكنت الدولة العثمانية فيما بعد من إقامة سلطة مركزية ومؤسسات الدولة الحديثة وخصوصًا في المدن الفلسطينية.

تنوع تعامل العثمانيين مع الزعامات الفلسطينية طوال مدة حكمهم ما بين مواقف متشددة تجاههم، تمثلت في تهميش سلطاتهم لتعزيز سلطة الدولة المركزية، وبين أوقات شهدت مشاركة فعالة لهذه الزعامات الفلسطينية في الحكم، حتى إن بعضهم كان له وجود قوي في مجلس المبعوثين العثماني الأول المنحل، والثاني الذي انطلق عقب الإطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني، وتولي جمعية الاتحاد والترقي الحكم، والتي شهدت مدة استيلائها على السلطة أسوأ أوقات حكم العثمانيين لفلسطين، من حيث قمع الحريات والتنازل للغرب واليهود، وتمكينهم من الاقتصاد الفلسطيني وتسهيل استيلائهم على الأراضي الفلسطينية، التي كانت مسجلة سابقًا باسم السلطان عبد الحميد الثاني، في خطوة قننها الأخير لوقف تسرب هذه الأراضي لليهود، إما بسبب عجز أصحابها عن دفع ما عليهم من ضرائب ورسوم للدولة أو الأراضي المشاع والعامة.

على الصعيد الاجتماعي، لم يتقبل المجتمع الفلسطيني بالمطلق فكرة التجنيد الإجباري التي فرضها العثمانيون عليهم، موقفهم في ذلك كان قد سبقه مواقف مشابهة من المماليك سابقًا ومحمد علي إبان مدة حكمه القصيرة لفلسطين. كما وجدوا أنه من الضيم والظلم والإجحاف زج أبنائهم في حروب العثمانيين الخارجية.

طوال مدة الحكم العثماني لفلسطين، وبغض النظر عن ما شهدته من مواقف متذبذبة للدولة العثمانية تجاههم، إلا أن الزعامات الفلسطينية من العائلات والمشايخ ورؤساء الأحياء والمدن والأعيان قد حظيت باحترام الشعب الفلسطيني، وتمتعت بدعمه، وجعلت منه قادةً لها في إضراباتها، وسارت خلفها في مطالباتها الوطنية، برغم كون بعض هذه الزعامات قد ارتكب أخطاءً في تعاملها مع بعض القضايا والمطالب، ولم تكن في المستوى المطلوب من الزعامة التي أنيطت بها من قبل السكان لأن تكون ممثلةً لهم في بعض القضايا، إلا أنها بقيت برغم ذلك تتمتع بنفوذ قوي، وساد الأراضي الفلسطينية بين السكان أجواء التعاضد، برغم الاختلافات بين قيس واليمن ومطامع وطموح كل منهما في تقوية نفوذه على حساب الآخر.

من جانب آخر، يحفظ التاريخ للدولة العثمانية، والسلطان عبدالحميد الثاني خصوصًا مواقف مشرفة للدفاع عن فلسطين وحمايتها والتصدي للمد الاستيطاني الصهيوني.

> ”في البداية، لم يقم العثمانيون بتغيير بعض الأمراء المحليين في فلسطين، بل أبقوا عليهم، وهم الذين اعترفوا بالسلطة العثمانية، وتعهدوا لها بالمساهمة معها في حفظ الأمن وجباية الضرائب“

> ”كان اندحار قوة العائلات الفلسطينية سببًا لنشوء فئة من القيادات الفلسطينية الجديدة تمثلت في المشايخ والأعيان، الذين برزوا وقتها في ظل انشغال العثمانيين في حروبهم الخارجية مع آل هاسبرج في الثلث الأخير من القرن السابع عشر. نتج عن ذلك الانشغال ضعف في سيطرة الدولة وحكمها، ومن ثم انعكس ذلك على الأمن والاقتصاد“

> ”على الصعيد الاجتماعي، لم يتقبل المجتمع الفلسطيني بالمطلق فكرة التجنيد الإجباري التي فرضها العثمانيون عليهم، موقفهم في ذلك كان قد سبقه مواقف مشابهة من المماليك سابقًا ومحمد على إبان مدة حكمه القصيرة لفلسطين“



متعة التقديم

عند جبرا إبراهيم جبرا

أيلول بلا مطر نموذجًا



بقلم: حمزة شباب

ناقد فلسطيني

■ الترجمة والتقديم صنعة كبار الأدب والثقافة

تُعد عملية تقديم الكتاب من أهم الأنشطة الثقافية التي تدعو إلى سبر أغوار النص وإبرازه لغويًا و دلاليًا، وتلقي على عاتق مقدمه تحمل مسؤولية النص الأدبي من حيث الجودة و الرداءة. غير أن نقل الإحساس وفق رؤية صاحب النص الأصيل يهدف إلى رسم خريطة له تخلو من المجاملة وترشد القارئ إلى طريقة التفاعل معه بإيجاد قنوات التواصل المبنية على الترجمة من لغة تحمل ثقافة تختلف عن عقلية القارئ الذي يشده لمتابعته برغم سلسلة من الاختلافات القائمة على الثقافة أو اللغة أو العادة. فإن تعلق الأمر بمصاحبة التقديم للترجمة وقع كاتب التقديم في دائرة الضوء التي ستلقي على جهده تبعات التقريب وتوفير الإضاءة اللازمة في عالم النقد الذي يلملم جوانب النص. ولا يعتري الكاتب الأصيل رداءة لم يقصدها في نصه، ولا يبرزه بغير الثوب الذي أراده لنفسه منذ أن خط أولى عباراته في ذلك النسيج. فهو بحاجة إلى امتلاك عناصر التشخيص السليم لتخرج تقدمته وفق المنهج النقدي القويم في صفقه لما يحتويه المتن من تصاوير لغوية وبراعة في استخدام الدلالة. وبعبارة أخرى فهي عملية ربط المنتج الأدبي بالقارئ المثقف ومد جسور العبور بين ثقافة وأخرى ثم عن مسؤولية الرابط الذي تقع على كاهله فلسفة النجاح أو الفشل. فكان لزامًا على كاتب التقديم قياس مدى نزاهته في العرض كما يتحمل الكاتب تبعات أعماله الأدبية تمامًا.

عند امتزاج التقديم بالترجمة تتعالى المهمات المقيدة للأديب المقدم والمترجم، ويصبح في فضاء واسع من الاضطرابات التوعوية التي يحملها، وهي مهمة لا يقودها إلا كبار الكتاب الذين أفنوا حياتهم في معترك الحياة الأدبية والثقافية، فيقتطفون سطورًا من جمالية النصوص التي تعايشوا في تجربتها الشعورية أو الروائية، ثم يروون معتقداتهم في لحظة تفاعلهم مع النص، ويحورون لغته الأصيلة إلى لغة الجمهور الذي يهدف، مع التماهي الخالص في نقل اللغة نقلاً استدراكيًا ناهيك عن اقتطاف اللهجة البيانية والمحسنات البديعية التي تفترق بين لغة وأخرى في السمات والمقاصد. وبعد ذلك يأتي دور الحركات النقدية في رسم معالم التقديم من وصف ضعضعة النص، أو إثرائه، أو أساليب استمالته ووقعه في النفس. إذن هي عملية متكاملة تقوم على ثلاثة قوائم هي الترجمة، واللغة بأبعادها البيانية، والثقافة المتداولة. فالمقدم ليس مترجمًا يتحرى الدقة في النقل، وليس مؤرخًا يتتبع الأحداث بجزيئياتها، بل هو كيان أدبي ومجمع ثقافي بارز، يعيد إعمار نص أدبي بلغته الأم، ثم يهديها لأبناء قوميته الذين ينتمون إليه. وإذا كانت الفكرة والمضمون من وحي الكاتب الأصيل، فإن اللغة والأسلوب من إبداع الأديب المقدم.

تصنف براعة أبي سدير كما كان يعرف في توقيعاته التي تذيل منتوجاته في الشعر والرواية والنقد، وسواء كتب بالعربية أم بغيرها، ضمن حلقة التواصل الأدبي الذي حققه في دراسة الأدبين الإنجليزي والأمريكي، وانتقائه لحياة مليئة بالثقافة جمعته ونجوم عالمه العربي كالسياب والبياتي، فبغداد كانت محط أنظار الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا منذ عقود، ولعل الجامعات العراقية التي احتضنته أدركت كنه فكره القائم على بصمة المثقف، حيث تشطر جهوده في التعريف بالآداب الإنجليزية

والأمريكية بل و إبرازها على نحو ييسر عمليات التلاقح الثقافي، وإحداثيات الرؤى المركزية لإقامة التجارب الثقافية المتنوعة بناء على حرصه على الموروث العربي القديم وسلطة الأنا المتفردة بالأساليب الحداثية الناشئة عن العمق الدلالي الذي تحمله الشخصية الفلسطينية في الشتات، كاختزال الملامح الإنسانية في "البحث عن وليد مسعود" وظهور ذلك جليًا في البناء الروائي المشترك مع الروائي السعودي عبدالرحمن منيف في "عالم بلا خرائط"، فقد شكل جبرا هرمًا عظيمًا في بناء كيانه المطل على الثقافة الواسعة من أصعدة عدة، فكانت البداية مع الدراسة للآداب وتدريسها، ثم تعاقبت مراحل تصنيفه تصاعديًا إلى أن وصل إلى تلك المرتبة التي جعلته في مقدمة من ترجم للكاتب الإنجليزي الخالد وليم شكسبير، وما وفرت له قدرته اللغوية والدلالية في نقل نصوصه المترجمة حفاظًا على تاريخية النص وجوانبه الجمالية، ومراعاة لفقه لغته ونواميسها الإيحائية، وإذا تعلق الأمر بترجماته وتقديمه لها فقد وصفت بأنها لا تقل أهمية عن العمل الأدبي المترجم ذاته، ولولاه لوجد الناطقون بالعربية صعوبة بالغة في التعامل مع تلك النصوص، ومن الشواهد الحية على جهوده تلك الترجمة لرواية "الصخب والعنف" التي نال كاتبها الأمريكي وليم فوكنر جائزة نوبل في الأدب، والتقديم لها على نحو يكسب الإخوة الرواة في فصول الرواية ذلك المونولوج الداخلي لأحداث تشتت العائلة، بالإضافة إلى ما خلفته الترجمة من ثورة فنية معاصرة للرواية العربية من حيث اعتمادها على تيار الوعي الذي يركز على ارتياد مستويات ما قبل الكلام في الكشف عن الخصائص النفسية للشخصيات، وترجمته للكتب الغربية المتمحورة حول الشرق ككتاب "ما قبل الفلسفة".

■ "أيلول بلا مطر" لذة الإمتاع و دقة المؤانسة

" أيلول بلا مطر" مجموعة من القصص القصيرة المنتقاة من الأدب الإنجليزي والأمريكي المعاصر، التي اختارها جبرا بعنايته الفائقة في بدايات القرن العشرين، ولكل منها دلالات متغايرة تدل على غزارة التنويع الممكنة في التخيل والأداء، ولكنها متكاملة المقاصد في التعبير عن المواقف الإنسانية الحياتية آنذاك، وواضحة المعالم إذا ما تحدثنا عن أهمية هذا الفن الأدبي بصفته وسيلة استقصائية لحالة الإنسان والقلق على مصيره، لذلك قدمها جبرا للقارئ العربي معرفًا بشخوصها، وكاشفًا عن حبكتها حتى تصل حد الذروة، متناسيًا محددات الزمان والمكان في إبراز الشخصية لاستمالة طيف القارئ في تخيل تلك النماذج الإنسانية الحية، خاتمًا نهاية كل منها بوصف لغوي واضح مبرزًا المصير المحتم الذي لاقته شخوصها جراء تصارع الأحداث.

صدرت المجموعة المترجمة عن دار المأمون للترجمة والنشر ببغداد سنة 1987م، ويكشف المترجم في البداية عن ملابسات معينة جعلته يزيد في تنقيحه للنصوص مما أدى إلى إخراجه للصيغة التي أرادها لها حجمًا وشكلاً ودراسة، لتمثيل القصة القصيرة من بداية أساليب الحداثة إلى النصف الأول من القرن الماضي، ثم يبدأ بتأمل تاريخ القصة القصيرة بجهد بحثي واضح واصفاً إدغار آلن بو بالأب الشرعي لهذا الشكل الفني، لأنه ترك أثرًا حاسمًا بإعلانه عن فذاذة هذا الشكل كصيغة من صيغ الأدب الكثيرة، فقد برع في تركه آثارًا من قصصه التي لا زالت تهزنا بغرابتها ونفاذها وبراعة تركيبها، بالإضافة إلى آرائه النقدية في روايات وقصص معاصريه، الأمر الذي يصح الحديث عنه بأنه أول من حدد المبادئ العامة للقصة القصيرة المسترشد بها، و كيف اعترى هذا الفن الكتاب الإنجليز الذين كانوا يفضلون الرواية الطويلة المسترسلة في التركيب والمضمون، لأنها تتحمل عبء الكلمات الدافقة والخيالات البعيدة واللغة المضخمة، كما يكشف عن الأسرار الحقيقية التي جعلت القاص كعالم الأنثروبولوجيا باحثًا عن أزمة الإنسان المعاصر متوغلاً في تعقيدات حياته لترسم صورة واضحة من معاناته وبحثه المستميت عن خلاصه، فكانت القصة القصيرة محاولة لمعالجة قضايا الحياة الكبرى ضمن نطاقات ضيقة من الزخم الدرامي، حيث تعامل القاص مع قصته أسلوبيًا تعامل الشاعر مع القصيدة، ونلمح ذلك في كل لفظة مستخدمة تعبر عن مجازية مثلى لإكساب دور لها في خلق التأثير الكلي.

اختار جبرا هذه المجموعة بناء على خصائص فنية مشتركة وسمات أسلوبية دعت إليها الحاجة لتصوير الإنسان ببعده الإنساني ومعاناته المحدقة به، فقد قلل القصاصون من شأن الحبكة ومن حجم الفعل، وأكثروا من الرمز والإيحاء والحوار شديد الدلالة للغوص في دواخل النفس البشرية، فلا يقتصر دور الواحد منهم على الإخبار بقدر تصوير صميم الشخصية المتخلقة مع تطور الأحداث التي أكسبتها سمة القصر مع التركيز المتدفق بحثًا عن معضلات الإنسان، و يكتفي بعرض نبذة طفيفة عن شخصية القاص وأبرز ملامح حياته التي كانت بفعل التأثر والتأثير في إنتاج ذلك النسيج الفني، ثم اتخذ من قصة "أيلول بلا مطر" لوليم فوكنر اسمًا لمجموعته لتقديمه سجلاً رائعًا في عالم الآداب و ما اتسم به من التواضع، فهو يتحدث عن تجربته واصفًا إياها بأنها "خدش بسيط على وجه انعدام الشهرة".

تم انتقاء هذه النماذج القصصية بعناية جبرا الفائقة كما أسلفنا، وقد وقع الاختيار بناء على دراية بأعمال الكتاب ككل، ومتابعته الحثيثة لهم، كما تأتي نظرته التكاملية لها في التعبير عن تيار أسلوبي مهد الطريق للتيارات الأدبية اللاحقة، كما كان شديد العناية بالقارئ العربي، حيث تولى إبراز السمات الفنية في ترجمته خدمة له وتقريبًا لثقافته، لأنه يؤمن بإبداعية الترجمة وتلاقح الثقافات واستجابة النفس للتجربة الإبداعية ولو كانت مترجمة، يقول جبرا "إن الترجمة لغة قبل كل شيء، ولكنها قبل ذلك حب، إذا كان للترجمة أن تكون أمرًا إبداعيًا، فإن المترجم يجب أن يستجيب لما يترجم بعمق ويعامله كأنه نص كتبه هو، وعليه الآن أن يسكبه في لغته"، فبدأ بالتعريف بأصحاب القصص المنتخبة وعرج على ذكر مسوغات تميزها في العصر الذي ولدت فيه بعيدًا عن الجوائز والتكريمات، حيث يظهر اهتمام جورج مور بالكتابة الواقعية، وجيمس جويس الذي سمى الأشياء بمسمياتها في أدق تفاصيلها حتى رفضت نصوصه، مع إبراز جهود كاترين مانسفيلد في جمع التفاصيل لرسم معاني الحياة، وقد وصف دافيد هربرت لورنس بتركه للأثر البالغ في الكتابة، لشدة لهجته وعنف فكرته وتعمقه في طبقات الوعي، وكيف كان سومرست موام يملك القدرة على تكثيف الحبكة على وجه يقصي القارئ من التوقع بانفراجها، ليكسبه متعة الإضاءة، ويتحدث عن سلاح العقل الحاد الذي كان يستخدمه أولدس هكسلي متأثرًا بالصوفية الهندية.

ويستفيض كاتبنا في ذكر أسباب الإبداع التي قهرت صفحاته لتحجز مقعدًا لها في هذه المجموعة، مثلما عرف عن فرجينيا ولف من عنايتها بتيار الوعي والمزج بين الرهافة والأسى، لتخط لنفسها أسلوبًا نثريًا متفردًا في رواياتها العديدة، حتى عدت كتاباتها من مؤشرات الحداثة بعد الحرب الأولى، ووصف شيروود أندرسون بأقرب إلى كونه شخصية بوهيمية وأشبه بالنزعة الفطرية للحياة، وإحداثيات تطوير صناعة الرواية الأمريكية على يد ويلا كاتر التي اعتمدت على ثيمتها الثنائية كالاستكشاف والتطوير، ثم إلى النص البنائي الطويل الذي جعل توماس ولف قادرًا على تحوير السير الذاتية إلى صيغ روائية متكاملة، خاتمًا مجموعته القصصية المترجمة بصاحب الأثر الثوري الأعمق في كتابة القصة القصيرة في الأدب الأمريكي المعاصر ارنست همنغواي، ووليم فوكنر الذي ضربت كتاباته على وتر يستجيب له عصره الراهن.

هكذا تظهر الترجمة وحليفها التقديم عند علم من أعلام الأدب العربي المعاصر، وبجهوده التي عملت على تزكية عدد من نصوص الأدب الإنجليزي والأمريكي، فجبرا يمتلك سطوة لغوية وترجمة وبائية تعرب عن شخصية الكاتب ويفسر نصوصه للفهم على أحسن حال، و ترجماته تأشيرة مرور إلى العقلية العربية التي ستهجر عشها لاهفة وراء الصيغة التلاقحية في الأدب العالمي، ولأنه ليس بائعًا في سوق اقتصادية حرة يقوم باستيراد النص الغربي ثم تصديره إلى العقلية العربية مقابل ثمن مادي، فقد استطاع أن يقدم ما يصبو إليه لحسه المرهف وذوقه السليم وطبعه الموهوب، لأن الترجمة حب ولغة قبل كل شيء.

من أعلام الفكر الإسلامي

الثائر المصلح محمد الخضر حسين 1293 - 1377هـ



صبري بن سلامة شاهين

الرياض

ولد رحمه الله في بلدة نفطة بتونس عام 1293هـ - 1873م من أسرة تهتم بالعلم، ويغلب عليها الصلاح والتقوى، وأصل أسرته من الجزائر من عائلة العمري من قرية طولقة في الجنوب الجزائري، واسمه محمد الأخضر بن الحسين، وغلب عليه اسم الخضر، ويتصل نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولما ناهز الحلم انتقل مع والده إلى العاصمة تونس، والتحق بجامعة الزيتونة أرقى المعاهد الدينية وأعلاها شأنًا في بلاد المغرب العربي، وحصل منها على الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية.

تزوج الخضر أربع مرات ولكنه لم يرزق منهن ذرية.

وقد حباه الله قلمًا سيالاً، قلّما تجد له نظيرًا في العصور المتأخرة، فأوتي بيانًا ساحرًا، وبلاغة وفصاحة، بل إنه كان يضارع أرباب البيان الأوائل.

وكان ذا همة عالية، ونفس أبيَّة كريمة، وحمية إسلامية، قلّما تجتمع كل هذه الفضائل في شخصية، وخاصة في ظل لوثات الاستعمار التي لم يسلم منها إلا القليل، فكان هادئ الطبع، حسن المعشر، ليِّن العريكة، جم التواضع، ذا زهد وقناعة، وكان متقنًا متفوقًا في علوم الشريعة في الأصول، والتفسير، والفقه، ونحو ذلك، وكان إمامًا من أئمة العربية في العصور المتأخرة، وفذًا من أفذاذ علماء الإسلام، كما وصفه العلامة الطاهر بن عاشور.

وتولى القضاء في مدينة بنزرت عام 1906م، ولكنه وجد في عمله هذا عائقًا يحول بينه وبين الدعوة إلى الإصلاح والجهاد، فتركه واشتغل بالتدريس في جامع الزيتونة أستاذًا للعلوم الشرعية والعربية، كما تولى التدريس في مدرسة الصادقية بتونس.

وأصدر مجلة السعادة العظمى عام 1321هـ، وهي أول مجلة ظهرت في المغرب، ثم أغلقتها سلطات الاستعمار الفرنسي، لما وجدوا فيها دعوة صريحة إلى التحرر وخلع ربقة المستعمر من أعناقهم، فأثار حفيظة المستعمر، فحكموا عليه بالإعدام لاشتغاله بالسياسة ودعوته إلى التحرير، فما كان منه إلا أن هاجر إلى دمشق مع أسرته عام 1331هـ، وأقام فيها زمنًا تولى فيه التدريس والدعوة، وأعاض الله به أهل الشام بعد رحيل علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي، فكان الخضر من أسباب النهضة العلمية في بلاد الشام.

رحل عدة رحلات إلى الآستانة، وألمانيا، وقد أتقن اللغة الألمانية وكتب عن مشاهداته في برلين، ثم عاد بعد ذلك إلى دمشق، فلحقته سلطات الاحتلال الفرنسي، فرحل إلى مصر لاجئًا سياسيًا عام 1920م، والتقى بكبار علمائها ورجالها، وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية



"يعد العلامة الشيخ الخضر من العلماء القلائل الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة، فتمرد على الكلاسيكية الأزهرية والعقم المنهجي، فكان من المصلحين الكبار الثائرين المتمردين على الأوضاع في البيئة الدينية والسياسية، فموسوعيته الثقافية أهلته ليقود حركته التحررية، فلم يسلم من الاضطهاد فسجنه جمال باشا السفاح لإلقائه الدروس في المدرسة السلطانية بدمشق"

مع شيخ الأزهر آنذاك الشيخ محمد مصطفى المراغي رحمه الله، وكان هدف الجمعية محاربة الفساد والتحلل والإلحاد، الذي بدأ ينتشر بين الشباب، وقد رأس الجمعية وأصدر مجلة تحمل الاسم نفسه.

واشترك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين، واستلم رئاسة تحرير مجلة نور الإسلام التي يصدرها الأزهر، والمعروفة اليوم باسم مجلة الأزهر، وانضم إلى علمائه، وعين مدرسًا للفقه في كلية أصول الدين، ثم نال الأستاذية في التخصص، وعين عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة في بداية نشأته، كما عين عضوًا في المجمع العلمي بدمشق، واختير عضوًا في جماعة كبار العلماء بعد أن قدم رسالته العلمية القياس في اللغة العربية، وصار رئيس تحرير مجلة لواء الإسلام، كما ترأس جمعية جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية.

ونظرًا لجهوده المباركة في علوم الشريعة واللغة العربية وقع الاختيار عليه عام 1952م ليكون إمامًا لمشيخة الأزهر، فقام بما كلف به خير قيام، ويعد الشيخ الخضر هو آخر عالم تولى الأزهر بترشيح العلماء، ثم أصبح بعد ذلك شيخ الأزهر يعين من قبل الحكومة.

لقد فتحت مصر أبوابها مشرعة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري لزعماء النهضة والإصلاح، واستقبلت القادة العظماء فحلوا بها خير محل، وتبوؤا فيها أعلى المناصب، ولقوا فيها الحفاوة والتكريم، فصارت القاهرة كعبة العلماء ومهوى الأفئدة حينًا من الدهر، فاستقبلت محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، ومحب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية المجاهد المعروف، ومحمد الخضر حسين وغيرهم، ولم تكتف بحسن الاستقبال، بل منحت بعضهم الجنسية، وبوأته أعلى المناصب الدينية، فكانت مشيخة الأزهر من حظ الشيخ الخضر حسين لما له من مكانة عالية ومنزلة سامية أهلته للوصول إلى هذه القمة.

ويعد العلامة الشيخ الخضر من العلماء القلائل الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة، فتمرد على الكلاسيكية الأزهرية والعقم المنهجي، فكان من المصلحين الكبار الثائرين المتمردين على الأوضاع في البيئة الدينية والسياسية، فموسوعيته الثقافية أهلته ليقود حركته التحررية، فلم يسلم من الاضطهاد فسجنه جمال باشا السفاح لإلقائه الدروس في المدرسة السلطانية بدمشق، ثم خرج وعاد مرة أخرى لإلقاء دروسه بالمدرسة نفسها وكذا الجامع الأموي، ثم أرسلته وزارة الحربية العثمانية إلى ألمانيا مع مجموعة من المشايخ في أثناء الحرب العالمية الأولى لتحريض المغاربة ضد الاستعمار الفرنسي والإيطالي، وفتح مسجدًا في ألمانيا للجنود المسلمين وألقى فيه الدروس والمحاضرات عن الحرية ومناهضة

"اختلف مع طه حسين عندما ألف كتابه (في الشعر الجاهلي)، حيث شمل كتاب طه حسين انحرافات خطيرة، منها اتباعه لأقوال المستشرق الإنجليزي مرجليوث وطعن في القرآن، فاشتد غضب علماء الأزهر على طه حسين، وألف الشيخ الخضر كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، فكان هذا الكتاب من أهم الردود وأقواها حجة على كتاب طه حسين باعتراف طه حسين نفسه"

الأعداء، ولما سقطت استانبول بأيدي الحلفاء عاد من ألمانيا إلى تركيا، ثم منها إلى دمشق، ولما سقطت الشام في أيدي الفرنسيين، وقد كانوا حكموا عليه بالإعدام إبَّان تواجده في تونس، فلم يجد بدًّا من السفر إلى مصر، فعمل مصححًا في دار الكتب المصرية بشفاعة أحمد تيمور باشا.

وفي القاهرة أنشأ جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية، وفي تلك الأثناء أسقط الهالك كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية، فتطلع الناس إلى بلد آخر تقام فيه الخلافة الإسلامية، فاتجهت الأنظار إلى مصر لتكون مهدًا للخلافة، وفي هذا الوقت ألف علي عبدالرازق كتابه المشؤوم (الإسلام وأصول الحكم) أنكر فيه أن يكون للإسلام سلطة ودولة، فقامت عليه قيامة العلماء والمفكرين وفصل من هيئة كبار العلماء سنة 1925م، واتهم بالزندقة والإلحاد، وحينها ألف الشيخ الخضر كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم)، ونال بهذا الكتاب حظوة عند الملك فؤاد الذي كان يطمع بالخلافة، وعلى صعيد آخر من مساجلاته، فقد اختلف مع طه حسين عندما ألف كتابه (في الشعر الجاهلي)، حيث شمل كتاب طه حسين انحرافات خطيرة، منها اتباعه لأقوال المستشرق الإنجليزي مرجليوث وطعن في القرآن، فاشتد غضب علماء الأزهر على طه حسين، وألف الشيخ الخضر كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، فكان هذا الكتاب من أهم الردود وأقواها حجة على كتاب طه حسين باعتراف طه حسين نفسه.

وكان مهتما بالشأن التونسي خاصة والشأن المغربي على وجه العموم، فجعل بيته قبلة لهم، وسخر مكانته العلمية والدينية من أجل مساعدة المدافعين عن قضايا المغرب العربي، وكان أهم ما يشغله هو الإصلاح التربوي والاجتماعي والديني.

وقد ترك آثارًا علمية قيمة، منها: الحرية في الإسلام، ورسائل الإصلاح، والسعادة العظمى، والهداية الإسلامية، ومحاضرات إسلامية، والدعوة إلى الإصلاح، ونقض كتاب الشعر الجاهلي، ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، وأسرار التنزيل، والخيال في الشعر، ودراسات في الشريعة الإسلامية، وبلاغة القرآن، وديوان شعر :خواطر الحياة .

زكاه العلامة الشيخ عبدالرزاق عفيفي عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، رحمه الله، وأثنى عليه خيرًا وخاصة بعد أن قرأ بعض مؤلفاته وكتبه، فقال:

تشترك هذه الكتب الستة في قوة الأسلوب، وعلوه، مع سلاسة العبارة، ووضوحها، وسمو المعاني، ودقتها، وإصابة الهدف من قرب بلا تكلف فيها، ولا غموض، ولا حشو، ولا تكرار.

وتشترك في الدلالة على سعة علم المؤلف، وتضلعه في العلوم العربية، والاجتماعية، والدينية، واستقصائه في بحثه، وفي نقاشه لآراء مخالفيه، وأدلتهم، واعتداله في حكمه، وفتاويه.

ويتمثل فيها نزاهة قلم المؤلف، وحسن أدبه، ونبل أخلاقه. ولكن لم يمنعه ذلك أن ينقد الملحدين، ومن انحرفَ به هواه عن الجادة، والصراط المستقيم نقدًا لاذعًا لا يخرج به عن الإنصاف، ولا يتجاوز حد الأدب في المناقشة؛ رعاية لحق مخالفيه، وصيانة لعلمه ولسانه عما يشينه، وسيرًا مع الكتاب والسنة وآدابهما في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فلا جهل، ولا سفاهة، إنما يقابل سيئة خصمه وسبَّه بالحسنة، وغض الطرف عنها.

ويتمثل فيها الصدع بالحق، والكفاح عنه بحسن البيان، وقوة الحجة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا يخشى في ذلك لَومة لائم، عماده في ذلك كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ودليل العقل، وشاهد الحس، والواقع مع ذكر الشواهد من اللغة، والقضايا التي جرت في العالم.

وقال عنه تلميذه علامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله :أستاذنا الجليل الشيخ محمد الخضر حسين، عَلَمٌ من أعلام الإسلام هاجر إلى دمشق في عهد علامتي الشام المرحومين: جدي عبدالرزاق البيطار، وأستاذي الشيخ جمال الدين القاسمي؛ فاغتبطا بلقائه، واغتبط بلقائهما، وكنا نلقاه، ونزوره معهما، ونحضر مجالسه عندهما، فَأَحْكَمَتْ بيننا روابط الصحبة والألفة والود من ذلك العهد.

ولما توفي شيخنا القاسمي تغمده المولى برضوانه أوائل سنة 1332هـ لم نجد نحن معشر تلاميذه مَنْ نقرأ عليه أحب إلينا ولا آثر عندنا من الأستاذ الخضر؛ لما هو متصف به من الرسوخ في العلم، والتواضع في الخلق، واللطف في الحديث، والرقة في الطبع، والإخلاص في المحبة، والبر بالإخوان، والإحسان إلى الناس، فكان مصداق قول الشاعر:

كأنك من كل الطباع مركبٌ
فأنت إلى كلِّ النفوس محبَّبُ

وأخذنا من ذلك الحين نقتطف ثمار العلوم والآداب من تلكم الروضة الأُنُف، ونرتشف كؤوس الأخلاق من سلسبيل الهدى والتقوى، ولم يكن طلاب المدارس العالية في دمشق بأقل رغبة في دروسه، وإجلالاً لمقامه، وإعجابًا بأخلاقه من إخوانهم طلاب العلوم الشرعية، بل كانوا كلهم مغتبطين في هذه المحبة والصحبة، مجتمعين حول هذا البدر المنير.

وقد قرأنا عليه في المعقول والمنقول، والفروع والأصول، طائفة من أفضل ما صنف في موضوعه، وهي لعمر الحق دالة على حسن اختياره، وسلامة ذوقه، وقوة علمه، وشدة حرصه على النهوض بطلابه، وإعدادهم للنهوض بأمتهم.

وله رحمه الله مواقف تكتب بماء الذهب ضد الباطل:

فعندما كان في ألمانيا وفي حضور مدير الاستخبارات، وسأله المدير: أليس كذلك يقرر ابن خلدون؟؟ فرد عليه بتعجب: وماذا يقرر؟! فقال مدير الاستخبارات: إن العرب لا يصلحون للملك، ولا يحسنون حكمًا للأمم. فرد عليه الشيخ الخضر ردًا مبهتًا يدل على حضور ذهن ووعي بمخططات العدو، فقال له مباغتًا: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية، وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة، وقاموا بأعباء الملك خير قيام، وقد بين ذلك غاية البيان في فصل عقده في مقدمته الشهيرة.

ومن مواقفه الجريئة أنه رفض دعوة السلطات الفرنسية له أن يكون عضوًا في المحكمة المختلطة، التي تضم قضاة مسلمين وغير مسلمين، فرفض أن يشارك في هذه الجناية حيث يتحاكمون فيها إلى غير ما أنزل الله، لأن المحكمة قائمة في ظل الاحتلال وستخدم مصالحه.

ومن مواقفه القوية والشجاعة والمشرفة حينما طلب منه أحد أعضاء مجلس الثورة مساواة الجنسين في الميراث، فأنذرهم مغبة هذا الصنيع، وحذرهم أنه سليبس كفنه، ويدعو الشعب إلى مناهضة الحكومة وزلزلتها لاعتدائها على حكم من أحكام الله عز وجل، فكف ذلك العضو عما نواه وأراده من تغيير حكم الله وتبديله، فما أحوج الأمة لمثل هذا الرجل ولمثل شجاعته وبسالته ووقوفه في وجه أعداء الملة والدين.

وقد استقال من مشيخة الأزهر عندما حدثت الحادثة العظمى بضم القضاء الشرعي إلى القضاء الأهلي، الذي اخترعه العدو الإنجليزي، وقال قولته الشهيرة: إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد ازدهار على يدي، فلا أقل من ألا يحصل له نقص.

ولما جاء وفد من الرئيس جمال عبدالناصر يساومه على دينه، فأجابه قائلاً: قل للرئيس يكفيني من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن، وقد ضمنها الله لي، وهذه استقالتي تحت تصرفكم.

وبعد استقالته من المشيخة تفرغ للبحث والمحاضرة حتى وافته منيته، فتوفي رحمه الله عام 1377هـ، 1958م، ودفن في المقبرة التيمورية إلى جانب صديقه العلامة أحمد تيمور باشا رحمهما الله بناءً على وصيته.

وقد مُنح اسمه (وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى)، بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر.

لا زالت حياته، وآراؤه، ومؤلفاته، ومواقفه، وسيرته موضع الدراسة، والتحليل. ولا زال العلماء يتلقون كتبه بالعناية، والقبول، والثناء.

سائلين الله تعالى له المغفرة والرحمة وأن ينزله منازل الأبرار والصديقين الأطهار، اللهم آمين.

قصة قصيرة

انسكاب دمعة



إبراهيم سعد البديع

الرياض

كان السكون يملأ المكان ورجل يأكل الطعام مع ابنه في الساعة الواحدة بعد الظهر.

وفجأة ضُرب الباب بقوة !!

و من شدة خوف الابن أخذ يصرخ !

فاحتضنه والده، وأخذ يربت على رأسه، وكأنها آخر احتضانة لهذا الأب لابنه .

ازدرد ريقه الأب وقال بنبرة مرتبكة: من بالباب !؟

أتاه الرد سريعًا: نحن الشرطة، وأنت مطلوب في القسم للتحقيق !

فقال الأب لابنه، وهو يبتسم: ادخل الغرفة واختبئ تحت السرير .

فذهب الابن وقد كز شفتيه واختبأ تحت السرير .

ففتح الأب الباب وأخذوه الشرطة بعد أن ضربوه ونهبوا منزله ... لكن لم يعلموا مكان الابن، وبعد أن أنهوا اغتصاب المنزل المزعوم عندهم بعملية "تفتيش"، خرجوا من المنزل وقهقهاتهم تملأ المكان.

اغرورقت عينا الابن بالدموع، وسقطت دمعة منه حتى ارتطمت بالأرض، وانقسمت إلى أقسام، وكأن من يرى هذه الأقسام إنها تحاول الفرار من هذا السجن.

قال الابن بنبرة غاضبة: اللعنة على شاؤول!

أحدث الجنود جلبة في الحي، وعلى إثرها خرج أهالي الحي بوجوه لم تكن مصدومة، بل مودعة، لأنها تعودت على هذا المشهد.

حاول الجنود استفزاز أهالي الحي بضرب الأب، لكن لم تكن هنالك أي ردّة فعل!

الجنود يعلمون بأن قلوب أهالي الحي تتوقد نارًا لما تراه وتتقطع حرقة بأنها لا تستطيع فعل أي شيء.

بدأ أحد الجنود بالصراخ !

التفّ الجنود حول صاحبهم مفجوعين، ووجدوا عينه قد فقئت!

قال كبير الجنود بنبرة مرتبكة: من اللعين الذي فعل ذلك؟

خيم الصمت على الجميع وهم يتساءلون: من يجرؤ على فعل ذلك!

خرج من بين الجموع فتى صغير ووجهه ممتلأ بالدموع.

قال كبير الجنود: عد إلى بيتك يا صبي يا ...

لم يكمل كلامه حتى تفاجأ الجميع بأن كبير الجنود فقئت عينه !

بدأ بالصراخ من الألم.

قال الأب متفاجأ: مازن !!

كان مازن واقفًا والأنظار جميعها متجهة إليه وبحوزته بعض الحجارة وعيناه متوقدتان.

صوّب الجنود أسلحتهم على مازن.

الجميع يصرخ ومن بينهم والد مازن: توقفوا إنه صغير لا يعلم ما يفعل، حاكموه ولا تقتلوه.

ضرب الأب الجندي المناظ بمرفقيه واتجه مباشرة إلى مازن.

حينما اقترب الأب لمازن سمع كلمة بوده لو أُغلقت أذناه ولم يسمعها.

"إطلاق"

انطلق الرصاص باتجاه مازن وهو مبتسم.

الأب في هذه المدة القصيرة كان بالقرب من مازن، مد يده ليحمي بها ابنه الوحيد وقد عجزت عن صد الرصاص أنامله حتى استقرت في رأس هذا الفتى الشجاع وحلقت روحه - بإذن الله - إلى أعالي الجنان.

نعم إنها القدس قلب فلسطين.

فلسطين التي يوجد بها المسجد "الأقصى" والذي يسمونه أبناء الحاخامات " أورشليم".

المشهد الذي تم ذكره هو من أبسط المشاهد التي تمر على فلسطين وما خفي كان أعظم.

حوار الثقافات والحضارات بالأندلس

وقفة مع منظور ماريا مينوكال



محمد سيف الإسلام بوفلاقة

الجزائر

تحتل الأندلس العربية موقعًا متميزًا في العطاء الحضاري الإنساني، والعالمي، فمما لا يشوبه ريب، ولا يخامره شك أن دولة الإسلام في الأندلس قد أرست دعائم حضارة باذخة، تعايشت فيها الأجناس والأديان، وتلاقحت فيها اللغات والثقافات، وانصهرت فيها الطاقات على تنوعها، فأثمرت مجتمعًا حيًّا، متفاعلاً، مبدعًا تحققت للإنسان فيه، كإنسان كرامته، وكفلت له حريته وحقوقه، وثمن سعيه وعطاؤه، ولعل أبرز جوانب هذه الحضارة قيمة وإشراقًا، ما يتعلق بمسألة التسامح الذي ساد الأندلس الإسلامية تجاه النصارى واليهود الذين كانوا يشكلون شريحة مهمة من شرائح المجتمع الأندلسي، فقد عاش اليهودي والنصراني إلى جنب المسلم، حياة ملؤها التآزر والتعاطف والتراحم والمشاركة الفاعلة المثمرة.

وليس من شك في أن إثارة هذا الموضوع الذي يكتسي طابعًا حضاريًّا، والذي يتصل بمسألة التعايش بين الشعوب والديانات المختلفة، والحوار الحضاري والثقافي بين شتى الأمم والأعراق له ما يبرره، فالحوار بين الثقافات والديانات المختلفة كان من المواضيع المحترمة في المجتمع الأندلسي الذي لم يعرف التعصب الديني إلا في حالات استثنائية قليلة وشاذة، فقد كانت بعض التجارب مريرة ومؤسفة ومأساوية، ولكنها لا تنطوي تحت حكم أو تندرج تحت مبدأ، وتزداد أهمية هذا الموضوع خاصة عندما نعلم بأن العالم المعاصر يسعى لتأسيس نظام جديد، كما أن الإسلام والمسلمين يتعرضون لحملات شعواء ترمي إلى تشويه صورتهم، وتقديم نظرة خاطئة عن ممارساتهم، بالإضافة إلى رواج بعض النظريات التي تسعى إلى التنكر لهذا العطاء الحضاري الإنساني الفريد من نوعه.

وهذا ما يُلقي على الباحثين والكتّاب مسؤولية الكشف عن العوامل التي جمعت بين الشعوب ووحدت أهدافهم ورؤاهم، والتنقيب عن الأسس والمرتكزات التي أفرزت قاعدة صلبة لحوار الحضارات عبر مراحل التاريخ.

لقد هيأت الحضارة الأندلسية، منذ مراحلها الأولى، الإطار الأنسب للتفاعل الحضاري الإيجابي؛ فقد اندمج اليهود والنصارى، في جو من الحرية والسماحة وتكافؤ الفرص في المجتمع الأندلسي الجديد؛ يتعلمون ويتثاقفون، ويسهمون في البناء دون عائق أو عقدة، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين منهم يحظون بمكانة عالية، ويتقلدون مناصب عليا في الإدارة والسياسة، فقد عاش الذميون الأمن والاستقرار في دولة الإسلام، يتمتعون بحرية العقيدة والتعبد منذ الفتح الإسلامي لإيبيريا، وقد مورس الحوار بين مختلف عناصر الشعب الأندلسي طوال عصور المسلمين في الأندلس في أزمنة السلم وأزمنة الحرب، وبين المنتصرين والمهزومين، ولعل حضارتنا وثقافتنا العربية الإسلامية في الأندلس هي «الأعلى» صوتًا وفعلاً في رسالتها «الحوارية»، وعلى مدى قرون عديدة.

لقد شكّلت الفسحة الأندلسية حيّزًا إنسانيًّا ممتازًا للحوار والتفاعل بين الأديان السماوية الثلاثة، وأكثر منها فقد شهدت هذه الفسحة العصر الذهبي للثقافة العبرية التي اتخذ شعراؤها وأدباؤها وعلماؤها ومفكروها العربية أداة تعبير وتواصل وتفكير دوّنوا بها خير ما جادت به قرائحهم، بل إنَّ كثيرًا من النّصارى واليهود والصقالبة احتلّوا مراكز سامية في الحكم وتبوأوا مراتب

ممتازة في الحياة العامة، فكان منهم الوزراء والشعراء والشاعرات والأطباء والموسيقيون، وقد بدا الأندلسيون في الأعين متصفين بأتمّ فضائل المدنية، فضيلة التسامح المطلق، والحوار والتفاعل مع العناصر الأخرى لدرجة أثارت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء على نحو ما ذهب إليه غوستاف لوبون[1].

في هذا الإطار يأتي كتاب الباحثة الكويتية الدكتورة ماريا روزا مينوكال، الموسوم بـ«الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، إذ إنه يقدم شهادة حية عن التسامح، والتعايش، والحوار الحضاري النبيل الذي ساد الحضارة الأندلسية، فالباحثة تقدم لنا عبر صفحات هذا السفر الشائق رصدًا شاملاً لتاريخ الأندلس العربية «من منظور يغاير ما دأبت عليه خطاباتنا التاريخية عن الأندلس وعن إسلامها وعروبتها وثقافاتها ولغاتها، إنه منظور تصر عليه المؤلفة، وهو يتشكل من نظرة الغرب(نوع من الغرب الذي لا يصادر الآخر، و لا ينساق وراء بعض التعميمات المختزلة للثقافة العربية الأندلسية، بل يعترف بها وبمنجزاتها الإنسانية)، ومن نظرة الحاضر، وضرورة الاستفادة من دروس الماضي الثقافية القائمة على التلاقح والتعايش في إطار ثقافة كانت تجمع دون غضاضة بين المتعارضات، بل ترفعها إلى مصاف التعبير، وهذا ما سيشكل الإرث المشترك النابع من اتساع الفكر وامتداده ليدرج الآخر المختلف، إنه إرث يجب الوعي به وتغذيته في الحاضر والمستقبل.

إن هذا الكتاب الذي يحمل تصورًا آخر للتاريخ، التاريخ بوصفه بحثًا في الظواهر الحية والمأمولة، وليس بوصفه بحثًا في الظواهر الزائلة، لهو صرخة مدوية في وجه العالم الهمجي المعاصر الذي تلفه الأحادية والأصوليات من كل نوع، وتغلفه الأفكار الإيديولوجية الجاهزة.

تكمن روح هذا الكتاب في محاولته تقديم نماذج من الحوار والتسامح بين الأديان الثلاثة التي تعايشت في الأندلس، ومن التساكن الذي غلب على تجاور القيم الثقافية المتنافرة والمنتمية لشعوب وجماعات إثنية متباينة، وتبين المؤلفة، إلى جانب هذا الإقبال الكبير الذي كان على الثقافة واللغة العربيتين من قبل الجماعات غير العربية، التي أتقنت اللغة العربية ولبست اللباس العربي وأقبلت على الفنون العربية من شعر وغناء ومعمار وبستنة، وكان لهذا التأثر نتائج على نهضة الفنون والآداب بأوربا فيما بعد.

ويُقدم عمل مينوكال درسًا قويًا لمن يحسن استخلاص الدروس، حول الدور الذي لعبته الترجمة في تمرير الثقافات وسيرورات التمدن المعرفي المنشئة لأسس التسامح والحوار، وتتبع الكاتبة المصائر المتشعبة لعينات من الذخائر العربية المنقولة من قبل المعربين من اليهود والمسيحيين اللاتينيين في لغات عالمية ومحلية، حركة غير معزولة عن مخاض تشكل وتطور اللغات في أوربا الوسيطية، وتدافعها وتجددها المتصل المفضي إلى العصر الحديث، وهو مسرح شاسع خشبته طليطلة، معهد الترجمة العالمي وقبلة المنقبين عن كنوز العربية رمز عقلانية الفكر وحداثته يومئذ، وأطرافه إشبيلية وغرناطة وصقلية ونورملدي وباريس...

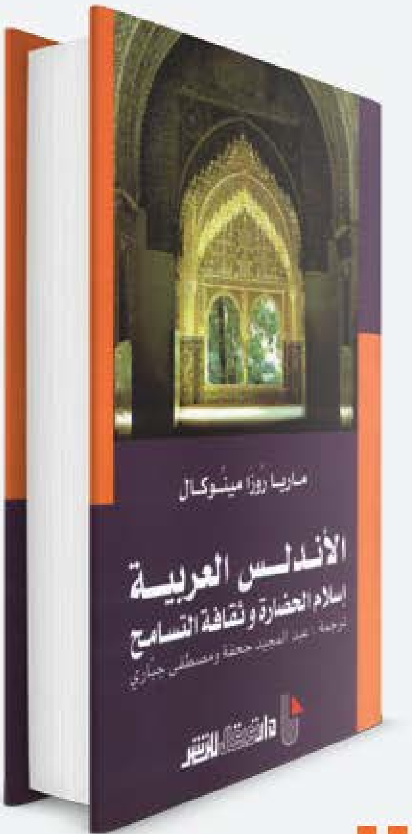
على هذا المسرح عبرت لغات وتلاقحت وسكبت تراث اليونان والعرب في أقداح بعضها البعض، في حمية تغذي وحدة أبناء إبراهيم وتكرس التسامح الحضاري الذي لم تتوقف عن إجهاضه وهدر مكتسباته النزعات الإيديولوجية والدينية المنشطة لثورة سياسية آلت بمستقبل التسامح إلى الاضمحلال ثم الكارثة.

لا يتجلى انزياح هذا الكتاب عن سرد التاريخ التقليدي في الموضوع، بل إنه يتحقق كذلك في اللغة وفي التراكيب التي تعتمدها المؤلفة في تتبعها للشخصيات والثقافات وهي تتلاقح وتتجاور وتتحاور. فالأزمنة المعتمدة في سرد الوقائع التاريخية أزمنة حضور، أزمنة منظورها حضوري، أزمنة تمكّن السارد من التواجد في الواقعة والعيش داخلها رفقة أبطالها، ولعل هذا الانشغال هو الذي جعل جُمل ماريا روزا مينوكال جُملاً طويلة،جُملاً تعتمد تقنية الدمج، فلا تترك المؤلفة معلومة تعرفها دون أن تدسها في الجملة حتى تكتمل الصورة ويحضر معها القارئ ضمن الشخصيات، أما الوقائع المسرودة فهي وقائع من منظورات أشخاص عاشوا المرحلة وبنوا فيها معالم ثقافية، مادية أو مجردة، من معمار وأدب وفكر وفنون.

وإذا كانت ماريا روزا مينوكال، ذات الأصل الكوبي، وأستاذة اللغة الإسبانية والبرتغالية في جامعة ييل الأمريكية، قد أصبحت معروفة على المستوى الدولي بإعادة قراءتها لتاريخ الثقافي والأدبي في الأندلس، فإن هذا الكتاب يمثل عملاً تركيبيًا للحضارة الأندلسية، ولكنه مفاجئ أيضًا باختلافه،عندما يؤكد أن الحداثة الأوروبية تعود في كثير من مظاهرها وأفكارها إلى ما قدمته الأندلس من نموذج حضاري وإنساني، ثم عندما يصرّ على أن تعايش الديانات السماوية الثلاثة في ظل الإسلام الأندلسي والأندلس العربية يظل حلمًا إنسانيًا مفتوحًا على المستقبل»[2].

ثقافة الحوار والتسامح في الأندلس العربية

خصصت الدكتورة مينوكال جزءًا كبيرًا من كتابها للحديث عن جوانب من التعايش والتسامح الذي ساد المجتمع الأندلسي، فأكدت في افتتاحها للكتاب على أنها تسعى بشكل كبير لتأريخ لذلك المناخ الحواري الذي ألقى بظلاله على المجتمع الأندلسي، حيث عبرت عن ذلك قائلة: «برهن أكبر إنجازات الثقافة الوسيطية على سموها في جعل رأيين يتعايشان، بل غالبًا ما كانت



> لقد شكّلت الفسحة الأندلسية حيّزًا إنسانيًّا ممتازًا للحوار والتفاعل بين الأديان السماوية الثلاثة، وأكثر منها فقد شهدت هذه الفسحة العصر الذهبي للثقافة العبرية التي اتخذ شعراؤها وأدباؤها وعلماؤها ومفكروها العربية أداة تعبير وتواصل وتفكير دوّنوا بها خير ما جادت به قرائحهم

> تشير الكاتبة إلى المكانة المرموقة التي تمتعت بها اللغة العربية فعبرت عن ذلك تقول: «كانت العربية لغة محترمة، تستعمل في الإمبراطورية كلها، وموصولة بباقي الحضارة، وعلى مرمى البصر، بل في ما وراء ذلك، كانت اللغة العربية اللغة المشتركة عالميًّا، وفي كل مكان تقريبًا من شبه الجزيرة المفعمة بالحيوية، فرضت العربية نفسها بوصفها اللغة الدالة على الرفعة والسمو داخل الجماعات من الديانتين

تصل إلى أبعد من ذلك، كما يبين هذا العصر الذي شهد تعايش اليهود والمسيحيين والمسلمين: لقد تمكنوا، بعيدًا عن اختلافاتهم التي يتعذر حلها وعن الحقد المترسخ بينهم، من تغذية ثقافة ثاقبة قائمة على التسامح. هذا المفهوم الصعب هو الذي أردت أن أثيره في العنوان الفرعي للكتاب، ولم يكن يعني هذا التسامح، إلا فيما ندر، الاعتراف بالحريات الدينية أو حرية المعتقد كما نتصوره، في إطار مفهوم معاصر لهذا اللفظ؛ إن هذا التسامح كان يتجلى فعلاً في العقيدة الضمنية والمضمرة، بدون شك، والتي يمكن لتعارضاتها، في ذاتها وداخل ثقافة ما، أن تكون إيجابية ومنتجة. وفيما يطبع الثقافة الوسيطية، تجد عناصر لا تُحصى جذورها في هذه الثقافة، في تعقدها، في مُتعها، وفي تحديدها للتعارض. وقد كانت هندسة التعارضات تجد تعبيرها في الثقافة التي كانت تأويها الأندلس. وهذا ما يجعلنا نعيد النظر في خريطة أوروبا، ونضع البحر الأبيض المتوسط في مركزها، ونعيد النظر على الأقل في هذا الجزء من تاريخنا من منظور الأندلس. هنا أعاد اليهود، وقد تعربوا بصورة عميقة، اكتشاف العبرية وأعادوا ابتكارها، وهنا تبنى المسيحيون كل مظاهر الأسلوب العربي تقريبًا، والمنهج الفلسفي، وحتى الهندسة المعمارية للمساجد، ولم يقتصر هذا على زمن السيادة العربية، بل تعداه إلى زمن ما بعد انتزاع السلطة منهم. هنا، أيضًا لم يتردد رجال ذوو إيمان راسخ، أمثال أبيلار وابن ميمون وابن رشد، وهم يبحثون عن الحقيقة الفلسفية أو العلمية أو الدينية، في تجاوز حواجز المعتقدات. لقد أدرك هذا النموذج المثالي من التسامح ما كان يمنحه التنوع والتعدد الفردي والتلاقح، من غنى ومن ثمار. إننا نقف حيارى أمام ما بقي واستمر من الثقافة الأندلسية...»[3].

وتؤكد الكاتبة على أن الاحترام والحوار الحضاري النبيل الذي رفاه الأندلسيون قبل أي أحد آخر قد وصل إلى درجة الفن، مما جعله يؤثر أعمق التأثير في أوروبا متجاوزًا بذلك الأندلس، ومتجاوزًا الحدود الجغرافية لإسبانيا. وكثيرًا ما تدعم المؤلفة كلامها بشهادات معبرة لجملة من الكتاب والمفكرين، ورجال الدين ممن عايشوا تلك الأحداث. ومثال ذلك ما شهدت به الراهبة البحاثة هرُوتْسفيتا دو غاندرسهايم، والتي كانت تتمتع بمكانة كبيرة في الأوساط الدبلوماسية والاجتماعية في بلاط الملك أوتون الأول قائلة عن قرطبة: «كانت جوهرة العالم الساطعة التي تلمع في الغرب، معروفة بثرواتها وكبريائها، يحتفى بها لملاذها ومُتعها، متألقة في كل شيء، لامعة على الخصوص بالعلوم العقلية السبعة (الثلاثية والرباعية) وبانتصاراتها المتوالية».

وتعلق مينوكال على شهادة هروتسفيتا مؤكدة أن ذلك البريق واللمعان قد أشع على كامل الكون، وجعل تنوع الديانات متعاليًا، ولكي تدلل المؤلفة على تسامح المسلمين واحترامهم للأديان الأخرى، والأعراق المختلفة تعقد مقارنة بينهم وبين من سبقهم من القوط فتشير إلى أن هناك اختلافًا كبيرًا بين المسلمين والقوط، وقد عبرت عن ذلك بقولها: «خلافًا للقوط، الذين تميزهم إثنيتهم قبل كل شيء، ولبثوا أقلية على مدى السبع مئة سنة التي هيمنوا فيها على إسبانيا، كان المسلمون ينحدرون من جماعات إثنية متنوعة، وكانت قوة المسلمين تكمن، شأنهم شأن المسيحيين قبلهم في اقتناعهم بأن الحوار لم يكن ممكنًا فحسب، بل إنه كان مرجوًا ومأمولاً، وينبغي تشجيعه ودعمه، وإذا دعا الأمر، بالضغط البراغماتي الذي تمثله المزايا المدنية التي تتيحها منزلة المسلم، لا فرق في ذلك بين مسلم أسلم منذ يومين ومسلم ينحدر من قريش، وقد جعل هذا الأمر الناس يقبلون بكثافة على اعتناق الإسلام». كما تطرقت الكاتبة إلى العلاقات والوشائج التي نشأت بين الأندلسيين، فأبرزت تلك العلاقات الدينية التي قلما نلقى لها نظيرًا، إذ إن العشيرة اليهودية انبعثت من رمادها وخرجت من تلك الحياة القطيعة التي كانت أغرقت فيها من قبل الحكم القوطي، حتى أضحى وزير الشؤون الخارجية يهوديًا، يعمل جنبًا إلى جنب مع الخليفة المسلم.

كما تشير الكاتبة إلى المكانة المرموقة التي تمتعت بها اللغة العربية فعبرت عن ذلك تقول: «كانت العربية لغة محترمة، تستعمل في الإمبراطورية كلها، وموصولة بباقي الحضارة، وعلى مرمى البصر، بل في ما وراء ذلك، كانت اللغة العربية اللغة المشتركة عالميًا، وفي كل مكان تقريبًا من شبه الجزيرة المنعمة بالحيوية، فرضت العربية نفسها بوصفها اللغة الدالة على الرفعة والسمو داخل الجماعات من الديانتين، ولم تترك الإدارة الإسلامية الجديدة اليهود والمسيحيين على قيد الحياة فحسب، بل إنها، في إطار تنفيذها لما ورد في القرآن، عملت عمومًا على حمايتهم؛ فعرفت الجماعتان، يهود الأندلس ومسيحيوها، تعريبًا واسعًا بعد سنوات على وصول عبدالرحمن إلى قرطبة، وفي أواسط القرن التاسع، في أحد أشهر وثائق ذلك العصر، نجد بول ألفار القرطبي يشكو من عجز الشبان المتحدرين من الجماعات المسيحيين عن كتابة رسالة واحدة باللاتينية، في حين أنهم يكتبون قصائد بعربية فصحى تضاهي تلك التي يكتبها المسلمون»[4].

وقد شكلت اللغة العربية جسرًا من جسور التواصل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين واليهود، وهذا ما نلفيه في حديث بول ألفار القرطبي المسيحي من خلال كتابه: «الدليل المنير»، الذي أشار إلى أن المسيحيين يعشقون قراءة الأشعار والقصائد العربية، يدْرسون الفقهاء والفلاسفة العرب، لا من أجل الرد عليهم أو مجادلتهم، وإنما من أجل اكتساب عربية جيدة وأنيقة. ويتساءل ألفار: «هل يوجد من بين غير المتدينين من لا يزال يستطيع قراءة الحواشي على الكتابات المقدسة باللاتينية، أو يعكف على دراسة الأناجيل أو الأنبياء والدعاة والمبشرين؟ للأسف؛ فبحماس يقرأ الشبان المسيحيون ويدرسون الكتب العربية؛ إنهم يصرفون أموالاً طائلة في جمع مكتبات هائلة؛ يحتقرون الأدب المسيحي، ويعتبرونه غير جدير بالاحترام، ومن فرط ذلك نسوا لغتهم، مقابل كل رجل قادر على كتابة رسالة إلى صديق باللاتينية، هناك ألف يتحدثون العربية بأناقة، وينظمون بهذه اللغة أشعارًا تتفوق على أشعار العرب أنفسهم».

كما اهتمت المؤلفة بالدور الكبير الذي لعبته الترجمة في نقل العلوم والمعارف من الأندلس، ومن قرطبة تحديدًا إلى أوروبا، وهذا ما أثر أيما تأثير في الحياة الفكرية والعلمية لأوروبا ككل، فقد اتسع مشروع الترجمة أيما اتساع، وتمت ترجمة آلاف الكتب من العربية إلى اللاتينية، وهذا ما مكن مختلف المسيحيين من الاطلاع على عدد كبير من المصادر، وتشير المؤلفة إلى أن الكتب التي ترجمت يصعب تخيلها، وهي مصادر تعد غاية في الأهمية، ومن الكتب النفيسة مثل الأعمال الكاملة لأرسطو، وهي مغتناة بشروح ضافية لكتاب مسلمين ويهود، ومثل مصادر أخرى قديمة ومعاصرة. وتشير المؤلفة إلى أنه بإمكان الباحث أن يذهب إلى مدينة طليطلة في بداية القرن الثالث عشر، ويجد بها إضافة إلى كثرة المترجمين الموهوبين، ثقافة ترجمة برمتها، وقد قدمت مثالاً بمكاييل سكوت الذي حلّ بطليطلة بغرض تعلم اللغة العربية، ودراسة أسرار الترجمة المزدوجة أو المتعددة، وكانت الطريقة المتداولة في غالب الأحيان، أن يترجم يهودي في البدء النص العربي إلى لغة محلية مشتركة هي القشتالية، ثم يأخذ المسيحي تلك الصيغة ويترجمها إلى اللاتينية، ولم يقتصر المترجمون الآتون من مدرسة طليطلة على ترجمة نصوص مفردة، بل إنهم يترجمون الثقافة كلية، وكان المترجمون المسيحيون يحسون تدريجيًا أن الأعمال التي يشتغلون عليها، إنما هي ترجمات إلى العربية من نصوص إغريقية، تعبق بالثقافة الأندلسية، وتؤكد المؤلفة على أن الترجمة قد لعبت دورًا كبيرًا خلال القرون التي كان فيها المسلمون يعدون العلوم العقلية والفلسفة عنصرًا ضروريًا لمكانتهم. هذه الثقافة القائمة على الترجمة، المتسامحة بالضرورة، هي التي أسرت الآن المسيحية اللاتينية، وانتقلت بفضلها العلوم من قرطبة إلى سائر الأقطار الأوروبية، وأثرت على الصعيد العالمي ككل، وتؤكد أن مشروع الترجمة كان أكثر من مجرد ملائمة آلية بين الشرق والغرب، سواء من حيث نتائجه المباشرة أو البعيدة المدى، وفيما يتعلق بما تمت ترجمته فالكاتبة تشير إلى أن الأمر لم يكن يتعلق بمجرد ترجمات من العربية،لقد كانت هناك نصوص تستلهم دعائم ثقافة لتجعلها تدخل ثقافة أخرى، وهكذا فقد حُررت دراسات عن تاريخ العالم، وعن مجاميع القوانين، وأبحاث علمية أغنت التراث القديم، بالإضافة إلى أنه كانت هناك مؤلفات لم يسبق ترجمتها

من قبل إلى اللاتينية لعدم الاهتمام بها، فوجدت اهتمامًا كبيرًا بها وانتشرت الكلاسيكيات التخيلية الأولى، ولقيت أصداء طيبة، وقبولاً واسعًا.

ركزت المؤلفة على العطاء الحضاري الكبير الذي قدمته مكتبة قرطبة، وأبرزت دورها في إشاعة ثقافة التعايش والحوار والتقريب بين الأديان، فقد كانت تضم ما يقارب الأربع مئة ألف كتاب، وقد وصف المؤرخ إدوار جيبون «في واحدة من عشرات الصفحات التي خصصها لقرطبة، شغف هذه الإمارة الإسلامية بالكتب، الذي أثار إعجابه (ويرى أنه كبير جدًا مقارنة بالثقافة المسيحية الوسيطية التي تعادي الكتب حسب قوله). ويأتي برقم آخر، فهو يذكر أن فهارس مكتبة قرطبة وحدها يصل عددها إلى أربعة وأربعين كتابًا، تصنِّف قوائمها أكثر من ست مئة ألف كتاب. كانت النخب ذات الامتياز في الإسلام من علماء الشريعة، الذين يدرسون النصوص المقدسة، وكان الكتاب والإداريون يشتغلون في الدواوين الملكية. إلا أنه، بغض النظر عن هذه الفئة الأساسية من السكان كانت المكتبات تعد من مآثر ثقافة تحترم العلماء، وقد شيدها أمراء كانت لهم الوسائل التي يظهرون بها هذا الاحترام. لقد كانت الدراسات عن الدين أو اللغة تحتل مكانة مهمة في المكتبة الإسلامية، غير أنه كانت توجه كتب أخرى، وبعض هذه المؤلفات قد يندهش لها أي زائر مسيحي، وقد تقلب معرفته الفضفاضة في الغالب بالعالم الكلاسيكي. ومن الأمور الموحية أن الشخص الذي أمد الراهبة هروتسفيتا بمعلومات عن عجائب قرطبة، بما في ذلك المعلومات التي تحتل مكانًا مركزيًا في محكيها، أي الثلاثية والرباعية كان مسيحيًا، ولم يكن مسلمًا، كان هذا الشخص هو راسموندو، أسقف إلفيرا. وقد كانت مكتبات قرطبة تشكل أيضًا علامة بينة على الشعور العام بالرضى والاكتفاء (وليس على المعرفة والعلم فحسب)، ذلك أنها كانت تقع تحديدًا في الترابط بين المادي والفكري. إن المكتبات التي كانت تبنى بقرطبة، والتي ظلت مجهولة لمئات السنين ومتوارية عن أعين ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية، يرجع الفضل في نهاية المطاف في وجودها إلى عافية الاقتصاد التجاري ونشاطه بالبحر الأبيض المتوسط. وقد عملت هذه المكتبات بدورها على تحفيز نشاط كثيف في ميدان التجديد والابتكار»[5].

وقد قدمت المؤلفة الكثير من النماذج التي تثبت وجود تعايش سلمي وحضاري بين مختلف الديانات والطوائف والجماعات، فأشارت إلى أن الجماعات اليهودية شكلت عنصرًا مهمًا في المشهد الثقافي الذي كان في أزهى عصوره، وفي كامل تفتحه وازدهاره، فقد حذا الكثير من اليهود حذو أثرياء قرطبة، فغادروا العاصمة العتيقة المنهارة، ويمموا وجوههم شطر العاصمة الجديدة، وتضرب الدكتورة مينوكال مثالاً تؤكد من خلاله على عدالة ونزاهة وتسامح المسلمين، حيث تمكن صموئيل ابن نغريلة بعد فراره مع أسرته من قرطبة واستقراره في مدينة مالقة، من أن يدخل ويؤصل في هذا الركن القصي تفننات قرطبة الأموية، وسرعان ما صار وزيرًا، كما أضحى في الوقت نفسه «النغيد» الأول للجماعة اليهودية، وقد كان أيضًا أحد الشعراء المجيدين بعبرية العصر الذهبي الجديد كما عبرت عن ذلك المؤلفة.

فذلكة

إن كتاب الدكتورة ماريا روزا مينوكال يمكن أن نصفه بأنه بمثابة موسوعة حقيقية، أرخت للتاريخ الأندلسي، وقدمت صورًا متنوعة عن الحضارة الإسلامية بالأندلس، وأكدت الباحثة على روح التسامح، والحوار الحضاري التي اتسم بها المسلمون في ذلك الزمن، لقد سلطت المؤلفة الأضواء على مختلف المراحل والأحقاب الأندلسية، مقدمة نماذج متنوعة من شتى المراحل، وذلك بدءاً من منتصف القرن الثامن الميلادي إلى غاية بداية القرن الثالث عشر الميلادي، فقد انطلقت من فرار عبد الرحمن الداخل من دمشق «مرورًا بما بناه الأمويون من مآثر معمارية وثقافية في إطار خلافتهم الأندلسية، ثم ما ولي ذلك من مشاهد الدمار التي لحقت مناطق عديدة من البلاد في أعقاب سقوط الخلافة، وما خلفها من تناحرات ملوك الطوائف، ثم دخول الأندلس في دولة المرابطين ودولة الموحدين بعدهم، ثم الحروب الصليبية التي سميت بحروب الاسترداد وأدت إلى سقوط الأندلس.

ولكن كتاب الدكتورة مينوكال ليس كتاب تاريخ فحسب، أو ليس كتاب تاريخ بالمعنى التقليدي، فقد حاول رسم المسارات الثقافية للأندلس منذ دخول العرب إليها، عبر تصوير شخصيات فاعلة، شخصيات أسست لثقافة الحوار والتسامح وبناء المعنى الاجتماعي للثقافة وللإنسان؛ وعبر تتبع تواريخ بعض المآثر، وقد انطلقت المؤلفة من افتراض أن استقرار الأمويين بأوروبا يعد حدثًا حاسمًا أسّس أوروبا الحديثة وشكّلها، ولذلك فقد وقفت مليًا مع أشكال التأثير التي مارستها الحضارة العربية (الأموية بالخصوص) الغنية والمركبة والفريدة من نوعها في الثقافة الأوروبية الحديثة، ومن خلالها في الحضارة العالمية بأسرها»[6].

ولا ريب في أن الباحثة قد بذلت جهودًا كبيرة في سبيل تقصي مادة الكتاب، ولاسيما ما يتعلق منها بالشهادات، والنماذج والصور التي تبرز التفاعل بين الأديان الثلاثة، فقد سعت لإبراز العطاء الحضاري الكبير للأندلس العربية في شتى الجوانب، ويمكن القول إن الرؤية التي قدمتها الباحثة قد اتسمت بالموضوعية والإنصاف، وابتعدت عن التجني والإجحاف، إذ صورت المسلمين على أنهم أصحاب عطاء حضاري زاخر، وقد أثروا في أوروبا أيما تأثير في نهضتها، وإقلاعها الفكري والحضاري وذلك من خلال انتقال التراث العربي واليوناني من قرطبة التي كانت مركز إشعاع علمي ومعرفي إلى أوروبا.

الهوامش:

(1) ينظر: د.إبراهيم القادري بوتشيش: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس،نموذج من العطاء الحضاري الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية، عدد:11، رجب 1414هـ/1994م، تونس، ص : 22، وما بعدها، وينظر: د. بومدين كروم: ملامح الحوار الديني في الحضارة الأندلسية، أعمال الملتقى الدولي الحضارة الإسلامية بالأندلس، أيام:14، و15، و16 ربيع الأول 1428هـ/2، و3، و4 أبريل2007م، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر،2008م، ص:21 وما بعدها، وينظر: د. سعد بوفلاقة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة المنار الجديد، عدد مزدوج31/32، صيف، خريف 2005م، القاهرة، مصر، ص:53 وما بعدها.

(2) د. ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ترجمة: عبدالحميد جحفة ومصطفى جبّاري، منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط:01، 2006م، ص: 6 وما بعدها.

(3) د. ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص : 16.

(4) د. ماريا روزا مينوكال: المصدر نفسه، ص: 30 وما بعدها.

(5) المصدر نفسه، ص : 34 وما بعدها.

(6) المصدر نفسه، ص : 05.

تفاعل القصيدة الأندلسية مع الحياة الدينية

د. آمنة بن منصور
أستاذة محاضرة أ
المركز الجامعي عين تموشنت الجزائر
قسم اللغات و الأدب

مقدمة:

لا يخفى على أحد أن الشعر كان ومنذ القديم السلاح الثاني إلى جانب السيوف والرماح، ولطالما استعان الشعراء به متخذين إياه سيفًا يشهرونه في وجه خصومهم دفاعًا عن دينهم أو مذهبهم. وليس من شك في أن الخطاب الديني إذا كان شعرًا فأقوى منه إن كان نثرًا، لما في الشعر من جمال وقوة إقناع، حيث تصل الفكرة وتخترق شغاف القلب فإما تحييه وإما تهلكه. وهكذا استعان الشاعر الأندلسي بشعره في مواجهة الخطوب التي ألمت بالأندلس عمومًا وبالإسلام والمسلمين على وجه خاص.

وكما لا يخفى على أحد فقد واجهت الأندلس خلال الثمانية قرون التي قضاها المسلمون فيها، صراعات ونزاعات وحروب لم تنتهِ إلا بسقوط آخر معقل لهم: غرناطة.

ولم يقف دور القصيدة عند حد الرد على أصحاب الديانات الأخرى، بل إن الشاعر الأندلسي وقف، أحيانًا، الند للند أمام بني جلدته في محاولة منه للتصدي لبعض المذاهب التي أخذت تهدد استقرار الأمة الإسلامية في الأندلس. ويضاف إلى هذا أشعار الزهاد التي نظمت تباعًا عقب سقوط دويلات الأندلس، فهؤلاء كانوا على يقين أن البعد عن الدين والانغماس في الشهوات والمعاصي هو الذي آذن بسقوط وشيك للأندلس.

لم يقف دور القصيدة عند حد الرد على أصحاب الديانات الأخرى، بل إن الشاعر الأندلسي وقف، أحيانًا، الند للند أمام بني جلدته في محاولة منه للتصدي لبعض المذاهب التي أخذت تهدد استقرار الأمة الإسلامية في الأندلس، ويضاف إلى هنا أشعار الزهاد التي نظمت تباعًا عقب سقوط دويلات الأندلس، فهؤلاء كانوا على يقين أن البعد عن الدين والانغماس في الشهوات والمعاصي هو الذي آذن بسقوط وشيك للأندلس.

ولعل الجديد في الأمر أو لنقل ما شدني إلى كتابة المقال، هو الطريقة التي انتهجها الأندلسي في الدفاع عن دينه وثوابته، دافع عنها بالمناظرة والمجادلة وهو الآن يدافع عنها بالقصيدة، ولطالما سخر الشعراء شعرهم لتحقيق هدف شخصي في الغالب، من قبيل الفخر والمدح والرثاء والنقائض..

غير أن الشاعر الأندلسي أبى إلا أن يسخر شعره لخدمة دينه ثم بلاده، فهو ليس شعرًا دينيًا كالزهد مثلاً، ولكنه شعر يدافع عن الدين وهنا وجه الاختلاف، وهو ما سنحاول تسليط الضوء عليه.

وقد آثرت أن أعرج في البداية إلى صدى هذا النوع من الشعر في المشرق، ثم أتتبعه في الأندلس ليكون المنهج تاريخيًا وصفيًا.

بدءًا:

لا ينكر أحد أن الإنسان ومنذ فجر التاريخ مرتبط بربه، مخلص لدينه أيًا كان هذا الدين أو ذاك الإله، حتى إذا عرض أو فرض عليه التغيير ثار واستنفر قواه لمحاربة هذا البديل*.

والأدب مرآة الشعوب فهو يعبر عن تطلعاتها ويصور أحوالها ويتطرق إلى أعمق نقطة تخصها، وهو لم يتكفِ على نفسه بل عبر عن أكثر الأمور حساسية تلك التي تتعلق بحياة الأمة ووجودها إنه الدين، فأصبح يعرف بالأدب الديني.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا" ألصقت به صفة (الدينية)؟ هل ذلك راجع لرؤية قائمة على مفهوم التوازي بين ما هو (ديني) وآخر (لا ديني)؟ كما هو الشأن في موضوع (الديني) و(الدنيوي)، خاصة ونحن نتعامل مع نص من إبداع الإنسان بفضل خياله الطافح وذوقه الرفيع، ومن ثمة ما هي الحدود التي لا يمكن لهذا النوع من الأدب ألا يتجاوزها بخلاف (الأدب الآخر) الذي لا يعير اهتمامًا لهذه القيود، وبذلك يمكننا النظر

في مضمون هذا الأدب الديني عندما يحاول أي باحث في أي مجال أن يقف على لبنات الأساس الأولى، فهو بذلك يبحث في الأفكار والنظم والعادات التي شكلت النواة الأولى لذلك العلم أو الفن"[1]، وتبقى الأحكام نسبية بحسب الأمة، التي ينتمي إليها فما يعد عند شعب أمرًا مقبولاً باسم حرية التعبير، يعد عند شعب آخر أمرًا ممجوجًا وغير مقبول على الإطلاق كونه يتنافى مع شعائر دينه.

ولعل الأدب الديني بهذه الصفة يعد أقدم الآداب بالنظر لفطرة الإنسان على التدين بغض النظر عن حقيقة ما يدين به، فالمصادر التاريخية تشير إلى أن المصريين كان لهم باع طويل في الأدب الديني "الذي تناول العقائد الدينية ونظرياتهم عن الحياة الأخرى وأسرار الكون والأساطير المختلفة للآلهة والصلوات والأناشيد، ومن أقدم أمثلة الأدب الديني "نصوص الأهرامات و"كتاب الموتى"[2].

والأدب الديني عندنا مرتبط بدين الإسلام، بيد أنه لم يكن معروفًا بهذه التسمية كمصطلح وإن كان موجودًا على أرض الواقع، ولعله أول ما ارتبط بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بداية ظهور البعثة النبوية، فقد كان الشعر إذ ذاك حربًا ثانية إلى جانب الحرب المسلحة، بل وقد شجع النبي -عليه السلام- شعراء المسلمين وعلى رأسهم حسان بن ثابت لهجاء الكفار والرد على أشعارهم، التي حاربوا بها الإسلام، فكانت الأبيات الحسانية الخالدة ومنها:

لنا في كل يوم من مَعدّ
قتال أو سباب أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا
ونضرب حين تختلط الدماء
هجوتَ محمدًا فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء[3]

وفي العصر الأموي ارتدى الأدب الديني والشعر تحديدًا ثوب التشيع لآل البيت، فأصبح كل محب للدين ومدافع عنه ينحو هذا المنحى، فكانت هاشميات الكميت، ومنها قوله:

إلى النفر البيض الذين بحبّهم
إلى الله فيما نابني أتقرب
بني هاشم رهط النبي فإنني
بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضب
وأرمى وأرمي بالعداوة أهلها
وإني لأوذي فيهم وأؤنب[4]

ولما جنح كرسي الحكم لبني العباس انحسر ظل المتشيعين لآل البيت، وخفتت أصواتهم خلف التهديد والتخويف، وفي مقابل هذا ظهر على الساحة شعر الزهد منكرًا حياة المجون والانحلال الخلقي الذي عرفه المجتمع العباسي آنذاك، فكانت زهديات أبي العتاهية ومنها قوله:

أيا واها لذكر الله ... يا واها له واها
لقد طيّب ذكر الله ... ه أفواها[5]

وقوله أيضًا:

الناس في غفلاتهم ... والموت دائرة رحاه
فالحمد لله الذي ... يبقى و يهلك ما سواه[6]

ثم ظهر غرض شعري كان تحصيلاً لمراحل تأملية عديدة مر بها الشاعر، من الزهد إلى فلسفة الدين ثم التصوف، وفيه تفرغ تفرغًا كاملاً لله عبادة وارتقاء إلى ملكوته، فكان الشريف الرضي وكانت رابعة العدوية وكان الحلاج، ومن شعر هذا الأخير قوله:

عليك يا نفس بالتسلي
العز بالزهد والتخلي
عليك بالطلعة التي
مشكاتها الكشف والتجلي
قد قام بعضي ببعض بعضي
وهام كلي بكل كلي[7]

وفي بلاد الأندلس كان الشعر الديني قد قطع أشواطًا عدة، فقد وصل إلى مرحلة متقدمة من النضج والتطور، ووجد الأندلسي أمامه خلاصة تجارب الآخرين وأفكارهم وتوجهاتهم. وقد ذهب أكثر الدارسين إلى القول إن "شعب الأندلس شعب متدين، والمنفلتون فيه من ربقة الإيمان قلة وهم لتدينهم يجلون علماء الدين ويحترمونهم، ويعظمون الفقهاء ويوقرونهم"[8]، كما "كان الأدب الأندلسي أيضًا يتنفس في جو من التشبع الديني وهو ما يظهر في أشعار الزهاد والأتقياء"[9]، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال السميسر في قوله:

جملة الدنيا ذهاب ... مثل ما قالوا سراب
والذي منها مشيد ... فخراب ويباب
فاتق الله وجنب ... كل ما فيه حساب[10]

ومهما يكن فالإسلام في المشرق لم يتعرض لهجوم حاد على اعتبار أنها مهده الأول، بخلاف الأندلس التي دخلها الدين الإسلامي مع الفاتحين، فضلاً عن بعدها الجغرافي عن أرض العرب ومهد الرسالة، ويضاف إلى هذا كله احتواؤها إثنيات مختلفة وإيديولوجيات متباينة مردها الأديان التي تعايشت في ظل سماحة دولة الإسلام في الأندلس.

وما يعنينا في كل هذا هو الدور الفعال الذي أدته القصيدة الأندلسية في الدفاع عن الإسلام أمام تطاول المسيحيين واليهود على حد سواء.

وممن حدثته نفسه أن يسخر من القرآن ابن النغريلة اليهودي(**) الذي ألف كتابًا يدعي فيه أن هناك تناقضًا بين آي القرآن الكريم[11]، فوقف له ابن حزم بالمرصاد ورد عليه كلامه ودحض حججه واحدة واحدة[12]، على أن الذي ألب العامة على اليهودي لم يكن الإمام الظاهري وإنما قصيدة أبي إسحاق الإلبيري التي استطاعت إسكات هذا الصوت النشاز، ومما جاء فيها:

"والأدب الديني عندنا مرتبط بدين الإسلام، بيد أنه لم يكن معروفًا بهذه التسمية كمصطلح وإن كان موجودًا على أرض الواقع، ولعله أول ما ارتبط بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بداية ظهور البعثة النبوية، فقد كان الشعر إذ ذاك حربًا ثانية إلى جانب الحرب المسلحة"

"وفي بلاد الأندلس كان الشعر الديني قد قطع أشواطًا عدة، فقد وصل إلى مرحلة متقدمة من النضج والتطور، ووجد الأندلسي أمامه خلاصة تجارب الآخرين وأفكارهم وتوجهاتهم. وقد ذهب أكثر الدارسين إلى القول إن "شعب الأندلس شعب متدين"

"ولم يقتصر دور القصيدة الأندلسية على الدفاع عن الدين فحسب، وبخاصة بعد إيذان بسقوط الأندلس قريب، فأمام اكتساح المسيحيين" لأهم المدن الأندلسية ... لم يجد المسلمون بدًا من البحث عن بديل آخر، فاتخذوا لهم ميمّما الديار المقدسة .. طالبين التطهر من أدران الذنوب.. خصوصًا في العهد الموحدي"

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرين

مقالة ذي مقة مشفق

يعد النصيحة زلفى ودين

لقد زل سيدكم زلة

تقر بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافرًا

ولو شاء كان من المسلمين[13]

فأبو إسحاق يعيب على باديس صاحب غرناطة استوزاره لليهودي على المسلمين، فهذا في نظره خطأ جسيم، ويواصل فيقول:

فهلا اقتدى فيهم بالألى

من القادة الخيرة المتقين

وأنزلهم حيث يستأهلون

وردهم أسفل السافلين[14]

يضرب الشاعر مثلاً بالسابقين الأولين الذين عرفوا مكر اليهود فلم يأمنوهم على البلاد والعباد، بل أنزلوهم منازلهم التي يستحقون، ويضيف قائلاً:

أباديس أنت امرؤ حاذق

تصيب بظنك نفس اليقين

فكيف اختفت عنك أعيانهم

وفي الأرض تضرب منها القرون

وقد أنزل الله في وحيه

يحذر عن صحبة الفاسقين

وكيف استنمت إلى فاسق

وقارنته وهو بيس القرين[15]

وبنبرة عتابية يخاطب باديس مستنكرًا كيف خانته حنكته، واستأمن هذا اليهودي على أمور البلاد والعباد، كيف وقد تجرأ على السخرية من القرآن والمسلمين؟ يقول:

ويضحك منا ومن ديننا

فإنا إلى ربنا راجعون

فبادر إلى ذبحه قربة

وضح به فهو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه

فقد كنزوا كل علق ثمين

ولا تحسبن قتلهم غدرة

بل الغدر في تركهم يعبثون

وقد نكثوا عهدنا عندهم

فكيف تلام على الناكثين؟

وراقب إلهك في حزبه

فحزب الإله هم الغالبون[16]

وقد أحدثت هذه القصيدة ضجة منقطعة النظير، يقول غرسية غومث "لا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتًا من الشعر لعبت دورًا سياسيًّا مباشرًا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم، فكهربت العزائم ودفعت به في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السيوف للقتل، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة"[17]، والواقع أن القصيدة لم تحرك الحس السياسي لدى العامة بقدر ما حركت فيهم الغيرة على الدين.

"ويبدو أن صوت رسالة الإلبيري قد ظل قويًّا في الصدور، ولم يخفت صداه لدى مسلمي الأندلس فيما تلا ذلك من حقب، لأن اليهود كانوا يشكلون دائمًا مصدر توجس وإزعاج طيلة مدة الحكم العربي الإسلامي بالأندلس"[18].

ومهما يكن فإن فعل ابن النغريلة كان انفراديًّا مبعثه الحقد على هذا الدين وعلى المسلمين، ولم يكن هدفه نشر تعاليم اليهودية بخلاف بعض المسيحيين الذين أرادوا ضرب الإسلام ونشر دينهم بين المسلمين في الوقت نفسه، ومن الأساليب التي كانوا يلجؤون إليها تقديم الشبهات بين يدي المسلم ومحاولة زعزعة إيمانه وتعجيزه، ومثال ذلك ما قام به أحدهم و قد أطلق على نفسه اسم الذمي المتحير، فقال:

أيا علماء الدين ذمي دينكم

تحير دلوه بأوضح حجة

إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم

ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

قضى بضلالي ثم قال: أرض بالقضا

وهل أنا راض بالذي فيه شقوتي

دعاني وسد الباب دوني فهل إلى

دخولي سبيل بينوا لي قضيتي

إذا شاء ربي الكفر منه مشيئة

فهل أنا راض باتباع المشيئة[19]

تتضمن هذه الأبيات تشكيكًا واضحًا في العدالة الإلهية، وما هي إلا صدى لصيحات الفلسفة القائلة: هل الإنسان مخير أم مسير؟ وهل أفعاله بإرادته أم مفروضة عليه ؟ والذمي يؤمن بالأخيرة فكيف يسبق في كتاب الله أنه كافر ثم يحاسب على كفره، ويطالب بالتسليم بالقضاء الذي فيه شقاؤه؟

وقد أجاب هذا الذمي الشيخ ابن لب فقال:

قضى الرب كفر الكافرين ولم يكن

ليرضاه تكليفًا لدى كل ملة

نهى خلقه عما أراد وقوعه

وإنفاذه والملك أبلغ حجة

فنرضى قضاء الرب حكما وإنما

كراهتنا معروفة للخطيئة

دعا الكل تكليفا ووفق بعضهم

فخص بتوفيق وعم بدعوة

فتعصى إذا لم تنتهج طرق شرعه

وإن كنت تمشي في طريق المشيئة

وما لم يرده الله ليس بكائن

تعالى وجل الله رب البرية[20]

إن الله تعالى – وهو العدل- دعا الناس جميعًا لعبادته وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وإن كان وفق بعضهم إلا أن الدعوة إلى الله كانت عامة بلا استثناء، كما أن الله تعالى أمرنا باجتناب المعاصي، فكيف يعصي الإنسان وهو يعلم أن معصيته ستؤدي به إلى الهلاك، ثم يعلق كل شيء بالمشيئة الإلهية؟

ولم يقتصر دور القصيدة الأندلسية على الدفاع عن الدين فحسب، وبخاصة بعد إيذان بسقوط الأندلس قريب، فأمام اكتساح المسيحيين" لأهم المدن الأندلسية ... لم يجد المسلمون بدًّا من البحث عن بديل آخر، فاتخذوا لهم ميمّما الديار المقدسة .. طالبين التطهر من أدران الذنوب.. خصوصًا في العهد الموحدي، حيث سيبرز أكبر شعراء متصوفي الأندلس كابن عربي وابن سبعين والششتري وأبي العباس المرسي وغيرهم كثير"[21]

وقد أدى الرمز الصوفي دورًا فاعلاً في التعريف بالدين الإسلامي وبيان فضله على باقي الأديان، ويصدق هذا ما فعله الششتري في حواره مع القس[22]، يقول:

سألت عن الخمّار أين محله

وهل لي سبيل للوصول به أم لا

فقال لي القسيس ماذا تريده

فقلت أريد الخمر من عنده أملا

فقال ورأسي والمسيح ومريم

وديني ولو بالدر تبذل به بذلا

فقلت له دع عنك تعظيم وصفها

فخمرتكم أغلى وخرقتنا أعلى

على أننا فيها رأينا شيوخنا

وفيها أخذنا عن مشائخنا شغلا

وفيها لنا العذال لاموا وأكثروا

وآذاننا في لبسها تترك العذلا

فلما لبسناها وهمنا بحبها

تركنا لها الأوطان والمال والأهلا[23]

عباءة الشاعر أو كما سماها خرقته هي أغلى من خمرة القسيس، لأنها رمز التدين والتصوف، وهي "علامة الزهد في الدنيا والطلب للآخرة..إنه لباس التقوى الذي على كل مريد سالك أن يحترمه"[24] ويبدو أن الشاعر استطاع أخيرًا أن يغري القسيس الذي بدا متلهفًا على هذه الخرقة، فقال:

فقال عسى تلك العباءة هاتها

فقد أثبتت نفسي لها الصدق والعدلا

فقلت له إن شئت لبس عباءتي

تطهر لها بالطهر واضح لها أهلا

وبدل لها تلك الملابس كلها

ومزق لها الزنار و اهجر لها الشكلا[25]

فالششتري لما رأى تعلق القس بالعباءة عرض عليه أن يترك ما هو فيه، ويتطهر ليكون أهلاً لها، وقد رضي أخيرًا ومنحه الخمرة التي أراد:

فدونك خمري قد أبحتك شربها

وناولنيها في أباريقها تجلى

فقلت له ما هذه الراح مقصدي

ولا أبتغي من راحكم هذه نيلا

ولكنها راح تقادم عهدها

فما وصفت بعد ولا عرفت قبلا

أقر بأن الله لا رب غيره

وأن رسول الله أفضلهم رسلا

عليه سلام الله ما لاح بارق

وما دام ذكر الله بين الورى يتلى[26]

ويبدو أن القسيس لم يفهم مراد الششتري، فمنحه خمرًا معتقة، ولكن ما ذاك أراد الشاعر، إذ إن للمتصوفة "آدابًا مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم"[27]، فالخمر عندهم تلك النشوة التي يشعرون بها، وقد وصلوا إلى أعلى درجات الصفاء الروحي بعد التجرد التام من الدنيا، وكما يبدو أراد الشاعر أن يقنع القس بترك دينه واعتناق الإسلام بهذا الأسلوب.

والأندلسي الغيور على دينه لم يواجه أعداء الإسلام من نصارى ويهود فحسب، بل واجه بني جلدته ممن كانوا يتعاطون الفلسفة التي يراها عدوًا لا يقل شراسة عن الأعداء التقليديين، ولعلها تفوقهم جميعًا كون المقبلين عليها مسلمين مما يسهل على الآخرين التأثر بهم وبأفكارهم، فلقد حذر الكلاعي ابنه من الفلسفة، فقال:

وفلسفة الفلاسفة اجتنبها

يجعجعن الكلام ولا طحينا

وتنقض الأصول بكل شرع

وما هم عندنا مشرعينا[28]

هذا وقد ذكر المؤرخون أن من أهم الأسباب التي جعلت الناس يعارضون ابن حزم الفقيه الظاهري، اعتماده المنطق الذي يراه الأندلسيون خروجًا عن الدين، وعنه قيل:

وقد كان ابن حزم في ضلال

يقول بقولهم و يدين دينا

متابعة لفلسفة وكفر

وردًا للشرائع أجمعينا[29]

ولم يقتصر الباعث الديني على الدفاع فحسب، بل حمل الحكام والناس على حد سواء مسؤولية سقوط مدن الأندلس تباعًا، والسبب واضح وهو الابتعاد عن الدين والانغماس في الملذات الدنيوية، وهو ما عبر عنه الفقيه الزاهد ابن العسال بعد سقوط بربشتر، إذ قال:

ولقدْ رَمَانا المُشركُون بأسهم

لَمْ تُخْطِ لكنْ شأنُها الإصْمَاءُ

مَاتتْ قلوبُ المُسلمينَ برُعْبهم

فَحُماتُنا في حَربِهِم جُبناءُ[30]

و يقول أيضًا:

لولا ذنوبُ المُسلمينَ وأنّهُم

رَكِبُوا الكَبائرَ ما لهُنّ فنَاء

ما كانَ يُنصرُ للنصَارى فارسٌ

أبَدًا عليْكم فالذنوبُ الدّاء[31]

ويصور الشاعر المجهول الذي رثى طليطلة أسباب سقوطها فيقول:

أنأمَنُ أن يَحُلّ بنا انتقام

وفينَا الفِسْقُ أجْمَع و الفُجُور

وأكلُ للحَرَام و لا اضْطِ

إليه فيَسْهَل الأمْرُ العَسِير

يَزولُ السّترُ عَن قوْم إذا مَا

على العِصْيَان أُرْخيت السُّتُور[32]

هكذا أدت القصيدة الأندلسية دورًا فاعلاً في الدفاع عن الدين ورد الشبهات عنه، وبيان فضله على سائر الأديان، وعكست مدى تعلق الأندلسي بدينه وغيرته عليه غيرة يندر وجودها بالنظر إلى الظروف الخاصة التي مرت بها الأندلس.

الهوامش و الإحالات:

*- آمن الإنسان البدائي بقوة خفية مؤثرة في الحياة، وذلك بدافع الدهشة أو الخوف – ينظر: من المنظور الإسلامي: محمد الكتاني : 16

1 -عن مقال: الأدب الديني التأسيس والموضوع و المنهج لعلاء عبد الخالق المندلاوي، مجلة التآخي: عنوان:
Badirkhansindi@yahoo.com

2 - نقلاً عن موقع: knooz1.a3a3.com/vb/showthread.php?t=2357

3 - ديوان حسان بن ثابت: 08

4 - ديوان الكميت بن زيد الأسدي: 515-516

5 - ديوان أبي العتاهية:459

6 - نفسه: 461

7 - ديوان الحلاج: جمع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون: 24

8 - الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة: 73

9 - ينظر: دراسات في الأدب الأندلسي: إحسان عباس، وداد القاضي، ألبير مطلق: 10

**- ورد في مغرب ابن سعيد: ابن نغرله وفي ذخيرة ابن بسام: ابن الغريلى وعند دوزي: ابن نغداله وفي الأصل المخطوط من رسائل ابن حزم ابن النغريلة – ينظر: رسائل ابن حزم: 07

هذا وقد "ذهب كثير من الناس إلى أنه لم يكن على دين آبائه و أجداده، وأنه كان مستهترًا يحتقر الأديان جميعًا خاصة الدين المحمدي الذي كان يجهر بالغض منه، ويعيب أحكامه" – ينظر: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام : دوزي: 163

10 - الذخيرة في محاسن الجزيرة: ابن بسام الشنتريني: 1 : 556

11 - ينظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذاري : 3 : 265 ، هذا و قد تضاربت الآراء حول من سخر من المسلمين أهو إسماعيل أم يوسف؟ ولكن المؤكد أن من قتل بسبب ثورة العامة هو يوسف.

12 - ينظر: رسائل ابن حزم: 3 : 43 وما بعدها

13 -ديوان أبي إسحاق الإلبيري: 108

14 -نفسه: 109

15 -نفسه : 109-110

16 - نفسه:111

17 - مع شعراء الأندلس والمتنبي: إيميليو غرسيه غومث: 105

18 - في الأدب الأندلسي: أشرف نجا: 81

19 - ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية : عبد الحميد عبد الله الهرامة: 94

20 - نفسه: 95

21 -الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح: 298

22 - تجدر الإشارة بداية إلى أن حوار الششتري مع القسيس قد يكون حقيقيًا وقد لا يكون كذلك "فاللغة الصوفية هي باستمرار رمزية ولم تكن قط حرفية، فهي بغير شك لغة مجازية يستخدمها المتصوفة للتعبير عن تجاربهم" – التصوف والفلسفة: ولترستين: 354

23 - ديوان الششتري: 61-62

24 - التصوف الأندلسي: محمد العدلوني الإدريسي: 336

25 - ديوان الششتري: 62

26 - نفسه: 63

27 - مقدمة ابن خلدون: 433

28 - المناظرة في أصول التشريع الإسلامي: مصطفى الوظيفي: 150

29 - نفسه: ص ن

30 - الروض المعطار: الحميري: 40 وما بعدها

31 - نفسه: 40 وما بعدها

32 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد المقري: 6 : 240

ثبت المصادر و المراجع:

1 - الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة: دار العلم للملايين، بيروت، 1974

2 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذاري، دار الثقافة، ط2، بيروت 1980

3 - التصوف الأندلسي: محمد العدلوني الإدريسي، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 2005

4 - التصوف والفلسفة: ولترستين، ترجمة: إمام عبد الفتاح، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999

5 - دراسات في الأدب الأندلسي: إحسان عباس، وداد القاضي، ألبير مطلق، الدار العربية للكتاب، ليبيا / تونس، 1926

6 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، 1991

7 - ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986

8 - ديوان حسان بن ثابت، مطبعة المحمدية، المغرب

9 - ديوان الحلاج: جمع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون: 24

10 - ديوان الششتري، تح: علي سامي النشار، دار المعارف، ط1، الإسكندرية، 1960

11 - ديوان الكميت بن زيد الأسدي، تح: محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط1، 2000

12 - الذخيرة في محاسن الجزيرة: ابن بسام الشنتريني، تح: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1998

13 - رسائل ابن حزم – تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، ط1، 1981

14 - الروض المعطار: الحميري، مجلة التأليف، مصر 1937: 40 وما بعدها

15 - الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط1، المغرب، 1993

16 - في الأدب الأندلسي: أشرف نجا، دار الوفاء، ط1، الإسكندرية، 2006

17 - مع شعراء الأندلس والمتنبي: إيميليو غرسيه غومث، تعريب: أحمد الطاهر مكي، دار المعارف، ط2 ، مصر، 1978

18 - مقدمة ابن خلدون، شرح: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، لبنان، 2006

19 - ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية: عبد الحميد عبد الله الهرامة، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 1993

20 - ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام : دوزي، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، مصر، 1933

21 - من المنظور الإسلامي: محمد الكتاني، دار الثقافة، ط1، 1987

22 - المناظرة في أصول التشريع الإسلامي: مصطفى الوظيفي، مطبعة فضالة، المغرب، دط / دت

23 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد المقري، تقديم: مريم قاسم الطويل، يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 1995



سفيتلانا أليكسيفيتش:
الحرية درب طويل وشاق

حاورها: جولي كلاريني وبينوا فيتكين



ترجمة: د.سعيد بوخليط

مراكش - المغرب

تقديم: الكاتبة البيلوروسية سفيتلانا أليكسيفيتش، الفائزة بنوبل للآداب سنة 2015، تسبر بلا كلل أعماق الروح الروسية، ابتداء من حقبة الحرب العالمية الثانية، وصولاً إلى حقبة فلاديمير بوتين، تتويجها يوم8 أكتوبر، يعني أن الأكاديمية السويدية، كرست مشروعًا يستكشف الآثار المتوارية داخل الوعي، تبعًا للكوارث الكبرى التي تعود للعهد السوفياتي (الحرب العالمية الثانية، الحرب في أفغانستان، تشرنوبيل، تفكك الاتحاد السوفياتي).

استغلت جريدة لوموند مناسبة عبورها من باريس، كي تحاورها بخصوص طريقتها في الكتابة، وأساس عملها، ثم حمولته الميتافيزيقية، توجه سفيتلانا أليكسيفيتش، انتقادًا شديد اللهجة للسياسة التي يتبناها فلاديمير بوتين، وترصد مظاهر الحنين إلى الحقبة السوفياتية المهيمنة في روسيا، ثم خيبات الأمل المتعلقة بالانتقال الديمقراطي، وكذا البعد القومي الجديد، الذي فرضه الرئيس الروسي.

ستذهبون شهر ديسمبر إلى ستوكهولم، لتسلم جائزة نوبل في الآداب. هل، لديكم مسبقًا فكرة عن الخطاب، الذي ستلقونه هناك؟ ثم ماذا أحدث هذا الاستحقاق من تغير، بالنسبة لكم؟.

- أنا بصدد التفكير في الموضوع، أتطلع نحو إلقاء خطاب، يمزج بين التأملات الفلسفية والأدبية، والحديث عن الكائن الإنساني واليوتوبيا ثم الفن وما يخلقه من إمكانيات .أيضًا، أود استحضار، مساري الخاص، في جميع الأحوال، هذه الجائزة، لن تغير شيئًا، فيما يتعلق بأسلوب عملي، غير، أن الأمر يختلف من الناحية الاجتماعية، فقد أضحى لدي وضعًا آخر .لقد بعثت على سبيل الذكر، برسائل تضامن إلى "أوليج نافلني"Navalny (أخ المعارض الروسي أليكسي نافلني، المعتقل بسبب جنحة مالية) وكذا "نادية سافتشينكو"Savtchenko (مناضلة أوكرانية،حكم عليها في روسيا بتهمة جريمة قتل) .أشير إلى هذا، ونحن نعيش تحت رحمة نظام أوتوقراطي.

بحيث لا يمكنك امتلاك كثير من الخيارات. قد تحصل على ثلاثة جوائز نوبل، ثم لا يصير بعد وضعك مهمًا، كي يتم الاستماع إليك.

لقد صرحتم "أنا لست امرأة المتاريس". هل توخت لجنة نوبل الدفع بكم، دون رغبة منكم إلى هذا الدور؟.

– لا. أعتقد ما أثار اهتمام اللجنة، هو الجانب الأدبي، وكذا مشروعي، المنصب على دراسة: "الإنسان الأحمر". الإنسان السوفياتي، منذ تبلوره وحتى أفوله. نتمنى رحيله، لكنه ذهب وهو يصفق الباب، محدثًا شيئًا من الرعب. سؤالي الجوهري: ما الذي تراكم خلال الحقبة السوفياتية، في عمق الشعب، وماذا سيفرز ذلك؟ مع تسيد الرأسمالية المتوحشة، والبؤس المهيمن، يصعب التنبؤ بما سيحدث: ثورة شعبية أو قومية قوية جدًا. لقد لاحظت، بعد أسفاري إلى أماكن عدة في بيلاروسيا وروسيا وأوكرانيا وكازاخستان، أن الناس صاروا أكثر عدوانية.

يقول بعض الكتاب: إن كل إصدار يزيح سابقه، بينما أنتم تقدمون شعورًا معاكسًا، مفاده أن كل كتاب يمثل لبنة، ولديكم تصور قبلي، عن البناء الذي أنتم بصدد، إقامة أسسه؟.

– لدي الانطباع، بأني لا أنجز سوى مؤلفًا واحدًا، يروي تاريخ الروح الروسية والسوفياتية. حينما باشرت سنة 1978، ما سيشكل بعد ذلك، عملي الأول: ليس للحرب وجه امرأة. كنت في الثلاثين من عمري، وقد امتلكت منذئذ حدسًا أوليًا. لقد تبينت الأمر، حين تجميعي لشهادات عدد من النساء، حول الحرب العالمية الثانية، حيث لا زالت وقتها الأيديولوجيا السوفياتية متماسكة جدًا. فضلاً عن ذلك، تحقق الانتصار الروسي، مرده إلى صلابة هذا المثال الأعلى. لكن، حينما ذهبت إلى أفغانستان، سنوات قليلة بعد ذلك، وحاورت الناس هناك، اكتشفت تصدعًا لهذا المثال الأعلى، فأدركت، أن هذه الكتب ستشكل إذن مجموعًا. ثم سنة 1992، وبالضبط عقب البيريسترويكا، كنت شاهدة عيان بخصوص موجة الانتحارات (البيريسترويكا، قامت بها طبقة رفيعة من المثقفين، بينما كان الشعب تائهًا)، مما أوحى إليّ بكتابة: فتنتهم الموت .الذي كان خطوة أولى لعملي الآخر :نهاية الإنسان الأحمر(2013). هنا توضحت لدي نهائيًا، صيغة مخطط "الإنسان الأحمر"، من ولادته حتى أفوله. أعتبر الآن، أن هذه الدورة حول اليوتوبيا، قد انتهت. فالكتابة حول ما يجري حاليًا تحت حكم بوتين، لن يتجاوز إطار العمل الصحافي الخالص، نظرًا لانعدام مساحة التأمل الجوهرية. أعرف، بأني أريد حاليًا التكلم عن الحب والموت. حتمًا، دون ميلودراما. ثم مواصلة البحث في معاصري .لماذا نصبوا إلى السعادة، ثم نعجز عن تحقيقها؟ ربما هي ليست بحالة عامة، لكني سأهتم بالمتغير الروسي!.

> فالكتابة حول ما يجري حاليًا تحت حكم بوتين، لن يتجاوز إطار العمل الصحافي الخالص، نظرًا لانعدام مساحة التأمل الجوهرية

كيف تتأتى إليكم قيمة الكلام، وما الذي يضفي قيمة على نصوصكم؟.

– أسجل كل شيء، لأنه حينما نعاود الكتابة ثانية بالقلم، نضيّع الفوارق. يجب تناول عمق الأفراد، وليس مجرد كلماتهم. في كتابي "تضرّع" الذي تطرقت من خلاله إلى حادثة تشيرنوبل، فقد تحاورت مع خمس مئة شخص، لكني لم أحتفظ إلا بمئة. بالنسبة للشهادات الطويلة، أسعى للقاء الشخص عشرات المرات. أحاول بداية، التخلص قدر الإمكان، من المبتذل. يهمني أساسًا، تلك التفاصيل الصغيرة، التي لا نطرح دائمًا حولها أسئلة. بصفة عامة، يفتقد الحوار الأول للمادية .تلك التي نقرؤها في الصحف: الحسي غائب تمامًا كتفاصيل الأحاسيس. أنا أبحث مع الناس، عن المعنى العميق لما عاشوه. أحيانًا، قد لا يظهر ذلك، إلا بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على تسجيل ما .ثم، تأتي أهمية اختيار عنوان الكتاب، بحيث عندما أستلهم عنوانًا، أعلم بالضبط عن ماذا سيتحدث، فأجد له إيقاعه. ستصل ربما اللحظة، التي نتكلم فيها عن علاقات الإنسان بالعالم والحيوانات والكون .لكن العالَم الروسي، لا يزال بعد بربريًا، وسؤال العلاقة بين البشر، تبقى أولية ولها الصدارة .آنيا، كثيرة هي القضايا، التي تجد حسمها النهائي بالقتل. منذ ثلاثين سنة، وأنا منكبّة على قضايا مرعبة، وأحاول فهم معناها.

هل يمكن التحدث عن حمولة ميتافيزيقية، في عملكم؟

– هي الأهم، وإلا فلن يتجاوز الأمر نطاق الكتابة الصحافية. أضع الأفراد أمام ورطة: من هم؟ ماذا يصنعون؟ ويلزمهم الإجابة على هذه الأسئلة.

يبدو أن النساء، لعبن دورًا مهمًا، في بناء كتبكم؟

–أتذكر، وأنا صغيرة، حوارات بين نساء داخل المطبخ، ولا زلت حتى اللحظة أسمع تردد الصوت المعشوق لجدتي

> أنحدر من ثلاثة أصول: أوكرانية وبيلوروسية ثم الثقافة الروسية. بغير الثقافة والفلسفة الروسيتين، لم يكن بمقدوري الانتهاء إلى تحقيق وضعي الحالي، أو التمكن من إنجاز عملي: تضرّع. عالمي الروسي، مغاير لما يتصوره بوتين، إنه عالَم، شوستاكوفيتش وديستويفسكي وتشيخوف وروستروبوفيتش وأليكساندر إيرزين

الأوكرانية. نعم، يشغل الحكي النسائي، حيزًا مهمًا في خيالي. أجد صعوبة، كي أتموقع في الفضاء الذكوري. بوسع النسوة التكلم في المطابخ عن الحرب، لكن بطريقة مختلفة جدًا. أذكر، حين اشتغالي على كتابي: ليس للحرب وجه امرأة، أني التقيت زوجين لهما ذكريات على قدر من التباين، سيندهش كل واحد منهما حول ما يرويه الثاني بصدده. أما فيما يتعلق بحبهما، فالزوجة بقيت تتذكر كل شيء، أما زوجها فلا شيء.

هل يميل الروس إلى الاعتراف؟

– نعم، يمنحك الروس، إمكانية النفاذ إليهم، بشكل سهل جدًا. ربما، يعود هذا إلى الحياة السوفياتية، ويتصل بحياتهم الجماعية. حكاياتهم حميمية، لكنها في المقابل، تفتقد دائمًا لبعد شهواني. ومن ثم، عندما نتكلم عن الحب في الأدب الروسي، سيأخذ المفهوم منحى خاصًا جدًا: الجسد غائب تمامًا، بل لا وجود حتى لهذه الكلمة. غالبًا، الحب الروسي، هو امرأة تنتظر رجلاً، سيعود في حالة سيئة، من الحرب أو السجن أو تشرنوبيل. دائمًا، يجسد حب المرأة تضحية. مثلاً، في كتابي: تضرّع. تزور امرأة زوجها في المستشفى، الذي تعرض لنشاط إشعاعي، وبرغم حواجز الواقيات والستائر، الفاصلة بينهما، اقتربت منه، وتناولت تفاحة من يده. بعد مدة، أنجبت مولودة صغيرة، مشوهة الخلقة، لفظت أنفاسها، خلال أيام.

ماهي علاقتكم بالدين؟ وكيف تنظرون إلى استحواذه على المشهد الحالي؟

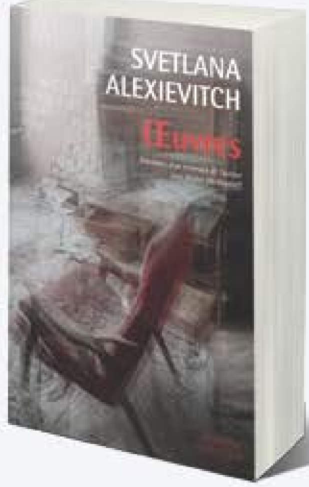
– انبعاث المعطى الديني، يشعرني بالخوف. صارت الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، عاملاً للتسلط والضبط، تربي عبيدًا. لقد سمعنا، مؤخرًا تصريحًا، للناطق باسمها، يقول: "لحسن الحظ، أننا تركنا خلفنا سنوات الرخاء، لأنها تؤدي إلى تحريف النفوس عن التضحية". بالموازاة، سيتباهى البطريرك بساعاته الجميلة وسياراته. فعندما أسافر على امتداد روسيا، ألاحظ كثيرًا من الكنائس الخورانية، يقابله تراجع لاستقلال فكر الرهبان، بحيث تنحّت جانبًا الشخصيات القوية. فيما يخصني، لقد عملت جدتي على تعميدي دون علم أبي، صاحب العقيدة الشيوعية. أملك حسًا إيمانيًا .لكن على طريقة الفنانين :حينما أرى حديقة جميلة، يثيرني المشهد. غير أني اخترت ببداهة وجهة الكنيسة، عندما توفيت أختي الصغيرة.

تتكلمون عن "العالَم الروسي"، هو ذات التعبير المستعمل من طرف فلاديمير بوتين، حين توخيه تحديد الفضاء الناطق بالروسية، الذي يقتضي منه مسؤولية .أنتم، باعتباركم كاتبة بيلوروسية باللغة الروسية، هل تقرون بهذا المفهوم؟

– أنحدر من ثلاثة أصول: أوكرانية وبيلوروسية ثم الثقافة الروسية. بغير الثقافة والفلسفة الروسيتين، لم







يكن بمقدوري الانتهاء إلى تحقيق وضعي الحالي، أو التمكن من إنجاز عملي: تضرّع، عالمي الروسي، مغاير لما يتصوره بوتين. إنه عالم، شوستاكوفيتش و دستويفسكي وتشيخوف وروستروبوفيتش وألكسندر إيرزين... فيما يتعلق بالعالم الروسي، الذي أتطلع إليه، فيمر عبر دعم متزايد لأوكرانيا من طرف الغربيين. سيمثل نجاح أوكرانيا وتحولها، أبلغ جواب ضد خطابات بوتين. لقد اعتبرت دائمًا، أن الحرب في 'دونباس'، مثلت عدوانًا عسكريًا ضد أوكرانيا واحتلالاً، بالتأكيد، بشكل شخص بوتين. أصل كل حرب أهلية في المنطقة. يمكن، الإتيان إلى بيلاروسيا بخمس شاحنات ممتلئة بالكلاشينكوف، ثم يتكرر السيناريو نفسه: نصادف دائمًا أشخاصًا مستعدين لإطلاق النار. حالة منطقة "كريمي" هي أكثر تعقيدًا، أعرف أشخاصًا أذرفوا الدموع سعادة، حينما سمعوا خبر ضمها. لكن لمعرفة ما يفكر فيه الشعب حقًّا، يلزم إجراء انتخابات حرة. ببساطة، اجتاح الروس الإقليم، واستولوا عليه.

الإحالة على الحرب العالمية الثانية، تحضر أيضًا بقوة في الخطاب الرسمي الروسي. على ضوء هذا النزاع؟

– تعد الحرب العالمية الثانية، الثراء الوحيد المتبقي للسلطة الروسية الحالية، ورأسمالها المطلق. حينما، أعلنت فائزة بنوبل، أسرعت الصحافة الروسية إلى نعتي بالمعادية للروس، ووصلي بفئة (القوميين الأوكرانيين الذين حاربوا إلى جانب النازيين). حينما كنت في أفغانستان، وقد مرت الآن أربعة وثلاثون سنة، سمعت وقتها كل هذه الإحالات على سنة1941، وكذا ثورنا التحريري. لكن فيما بعد لاحظت مستوى كره الروسيين هناك. فشكلت الواقعة صدمة.

هل توجد إيديولوجية "بوتينية" "Poutinisme"؟

– سنة 1991، استيقظ الشعب على بلد جديد وغير مفهوم، ثم صمت. عندما أغلقت المصانع أبوابها، ولم يعد يجد الأفراد ما يأكلونه، سوى البطاطس. شرعوا يظهرون استياء نحو "الديمقراطيين الليبراليين". بعد عشرين سنة من الصمت، تبوأ بوتين السلطة، معلنًا بقوله: "وحدهما الجيش والأسطول، أصدقاؤنا"، فخصص مختلف عائدات البترول والغاز، للجيش. ولم يصرح بأي كلمة يعلن من خلالها اعتزازه بديمقراطية ما، بل تكلم فقط عن روسيا الكبرى والاحترام الذي يكنه لها... خلال حقبة يلتسين، قلنا دائما أننا نحتاج إلى فكرة قومية، بهدف تمتين البلد والمجتمع، وها هو بوتين يعثر عليها، فأثار إعجاب الشعب. أما، نحن الأنتلجانسيا المعدودة، بدأ ينتابنا شعور بالخوف، لتطرفنا، شيئًا آخر، وليس مجرد شعارات وإعادة توزيع البترول، على الأوليغارشيات، وكذا أصدقاء بوتين.

منطلق هذا الخطاب، فكرة أن الغربيين احتقروا روسيا طيلة خمس وعشرين سنة. ألا تتبنون هذا الطرح؟

– بهذا الخصوص، نقف على جانب من الصواب. لقد، سبق لحلف شمال الأطلسي، أن وعد غورباتشوف، بعدم إقامته لصواريخ بجوار روسيا. لكن، عندما شعر الغرب بانتصاره، أقدم على ارتكاب أخطاء متعددة. إحساس الروس بالإهانة قائم حقًّا... حاليًا، يفسرون لهم عبر التلفزيون، أن الغرب يتوخى سرقة ما لدينا من بترول وغاز.

ترصدون على امتداد عملكم، تأثير الأيديولوجية السوفياتية على الأفراد. هل كرست سنتًا إيديولوجية بوتين، تأثيرًا على الإنسان السوفياتي؟

– نعم، لم أعد أتعرف على الأشخاص، بعد أن فقدت أصدقاء، لم تتنبه بما يكفي للأعراض الأولى. والتلفزة تعرض هذه الأفلام حول "تشيكا" (البوليس السياسي القديم) وستالين، بل، حاولوا تبرير ما قام به "بافلوفيتش بيريا" (رئيس جهاز المخابرات السوفياتية "NKVD"، السابق عن "KGB"). في مدينة بيرم الروسية، حولوا متحفًا كان مخصصًا لضحايا القمع، إلى متحف لعمال غولاغ، بمعنى كانوا مجرد حراس! لا تأتي، دائمًا المبادرات من أعلى سلطة أي بوتين، بل صدر بعضها من الشعب، السلطة السفلى. أندهش، خاصة لحال الشباب، فهم يقودون أفضل السيارات، ويرتدون أجمل الملابس، لكنهم يظلون عبيدًا. الجيل المنتمي لحقبة ما بعد 1990، يدعم بوتين بشدة، مرددًا خطاباته حول الاحتقار. ومن ثم الحاجة إلى زعيم صلب. أنا لا أتخيل، سوى أشخاصًا مختلفين يجسدون قيم الحرية. ذهنية ذلك الشباب، تجد سندها كثيرًا فيما سمعوه من حكايات آبائهم، حول الصحة المجانية والتعليم والارتقاء الاجتماعي السوفياتي... ربما، ينبغي الانتظار أكثر، أو ربما أيضًا، يلزم لتغيير عقلية العبيد هاته، إزاحة من يوجدون فوق. عمومًا، يكمن واجبنا في تنوير الشعب. النزول إلى الطرقات، من أجل إحراق الإطارات المطاطية، غير كاف. يعتقد الناس، أن وجود قائد جيد يدبر شؤونهم، يمكنه حل مشكلاتهم. خلال حقبة ما، خرجنا إلى الشوارع، مرددين: "يلتسين، يلتسين"!. غير أنه لم يتغير شيئًا. الحرية عمل طويل وشاق، إنه طريق. لذلك، عارضت الثورات والمتاريس. فالتغيرات يجب أن يصنعها أناس أحرار. والاهم، لن يكون سوى دمًا.

خلال الحقبة السوفياتية، شعرتم بانتمائكم إلى المجتمع الشيوعي؟ هل تتقاسمون نوستالجيا مع شخصياتكم هذه القيم المتوارية حاليًا، مثل فكر التضحية والإيثار واحتقار المال؟

– أحسست دائمًا بانتمائي إلى الهامش. لكنه العالم الوحيد الذي عرفته. اتصف الناس، خلال تلك الحقبة بازدواجية، كانوا على استعداد للوقوف في طوابير، من أجل اقتناء دواوين شعرية لأنا أخماتوفا، لكنهم في ذات الوقت، يكتبون وشايات يتم فحصها في المعسكرات. نتوخى أن يكون الشر، شيئًا بسيطًا: بافلوفيتش بيريا وستالين... لكن هذا الشر أكثر تفشيًا لدى كل واحد منا. من ثم أكتب ليس من أجل الكشف عن قائمة بالفظائع، وإرهاق القارئ، بل بغية أن يبحث كل واحد منا في داخله عن الجانب الإنساني، ويدأب على احتضانه. إنها اختيارات تختبر كل لحظة: عندما يدعونك للذهاب قصد التظاهر دعمًا لبوتين، عليك أن تطرح أسئلة!.

لقد عشتم لسنوات طويلة في أوروبا الغربية. هل تفهمون هذا الخوف الهوياتي، السائد داخل أوروبا، وفوبيا المستقبل؟

– خوف لا يرتبط فقط بأوروبا الغربية. مؤخرًا، انتخبوا في بولونيا، القوميين... يعيش رجل الشارع، خوفًا من الدولة الإسلامية والإرهاب وبوتين... أما بخصوص تضبيع هويتها، فلا أساس له. مليون لاجئ وسط ساكنة أوروبية تقدر بـ500 مليون، يبقى مجرد قطرة ماء. كنت منذ مدة قليلة في إيطاليا بمدينة فينيسيا، فعاينت كيف انتظمت حركة، بحيث أسرع الناس حفاة إلى الشارع، بهدف إظهار دعمهم للاجئين لحظتها، افتخرت بأوروبا.

هامش:

يمكن الرجوع إلى الملف الثقافي لجريدة: le Monde، السبت 7 نونبر 2015.

لَكِ أَيَّتُهَا الْحَيَاةُ أَعْتَذِرُ



صالح لبريني
المغرب

عُذْرًا
لَنْ أُقاسمك يقينَ الضجيج
ثرثرة العبور
رُيوبَ الليل
شروخ النهار
فيْ واضحة التيه
ومدائح الصمت
لَنْ أُحرضَ فيالقَ التَّباريح
كَتائبَ الرثاء
حشود النشيج
ضد أناشيد تنبع من ألق دمي
وترْتقي معارج فمي عُرْسَ غناء
لَنْ أَسْتَدْرج غريزة الرمل
نعيقَ الْيَبَاس
خريف الخرير
إلى مروج تَتَبَرَّجُ لِخَلْوةِ الهديل
لشغب الندى
لاختيال الأريج
لَنْ أَخُونَ صديقي القنديل
الذي أضاء لي مرايا الأسلاف
حكايا الجدات
وقاسمني حُرَقَ البياض
فيْ خلوتي هناك
هناك حيث بيتنا القديم
تَحُفُّهُ آيَاتُ الله
أوراد الشِّفاه
رأفة أُمِّي وهي تُرَبِّي
أُصُصَ الْحَبَقِ
أَرَجَ الْغُنْبَازِ
سوالف اللَّبْلَابِ
فيْ رعونة الخريف
أشجارًا من المحبة
نخيلاً من الصبر
فيْ عز النزيف
وترعى مديح رفاق
يلتحفون جبة الندم
يستظلون وارف الأسف
بهمهمة الدعاء
زفرة أبي وهو يحصي غنائم خيبته
ميراث حسرته
وعن ظهر سرٍ يحفظ الآه سيرة
ويغني غربته لطرق تجود بسحر
المتاه
تغفر مُجُونَ خُطاه
وأنا الصَّبُّ فيْ هدير الحشايا
أنتعل هجير الحنايا
أوقد رأسي حيرة
فيْ ليل يُزْهر بأقمار رؤاه
يرخي سدول ضناه
على طفولة حملته إليَّ
كفَنًا يضيء رهبة مثواه
فَيُعَمِّدُني أرقَ العبارة
وهو يرثي كَبْوَةَ مُنَاه
ويقودني حَمَأَ السؤال
إلى فيض رعاة ينثرون
أهازيج الحنين على بَيادِرَ
تُدَوِّنُ زَهْوَ ذكراه
وتُشَيِّعُني مناديل القبيلة
إلى مدن تَصُونُ جنون الغياب
ملاحم الهباء
تراجيديا الْيَبَاب
مراثي الخواء
كوميديا السقوط
فنطازيا الضجر
فَعُذْرًا
إنْ تركتك تندبين عثرة الحظ
تعضين أصابع الغيظ
من فرط اعتذاري
وفيْ فوْرة الأسى تعزفين
إيقاعات سوداء
تحرسين مراعي الوهم
مروج الظنون
من نزقِ اليقين
تخوضين حروبًا تَيْنَعُ
بْسَمَائِمِ الطوفان
تفتحين جبهات أخرى للموت
يقوده إيقاع الطبول، لعلعة المدافع،
ذاكرة المآسي

القنبلة: الوجوه المتعددة للنساء الإرهابيات للكاتبة مايا بلوم

Bombshell: The Many Faces of Women Terrorists by Mia Bloom

بقلم: الدكتورة مارلا بريت شنايدر*
MARLA BRETTSCHNEIDER



ترجمة: عمر عثمان جبق
محاضر في كلية المجتمع بالرياض

يُعد كتاب مايا بلوم MIA BLOOM بعنوان القنبلة: الوجوه المتعددة للنساء الإرهابيات إحدى الإسهامات المهمة في الأبحاث المتعلقة بالأدوار العديدة التي تلعبها النساء في شبكات العنف المنظم خلافًا لأدوارهن الرسمية المألوفة.

وكما تلاحظ السيدة بلوم فإن فهم طبيعة أدوار النساء، وفهم تغيّر أدوارهن فهمًا أفضل هو أمر مهم جدًا، ليس فقط لأسباب أكاديمية وحسب، بل من أجل رسم السياسات والإستراتيجيات، والمضي قدمًا في عالم معقد وعنيف على نحو مضطرد.

ففي الولايات المتحدة لم يكن القادة السياسيون و العسكريون مهيئين للأدوار المتزايدة والمتغيرة للنساء كانتحاريات يفجرن أنفسهن، ولأدوارهـــن بشكل عام في منظمات "إرهابية". ولقد منعتهم أفكارهم وأيديولوجياتهم وتوقعاتهم الذكرية من رؤية تلك التطورات؛ مما جعل الموقف ضعيفًا لمواجهة الأخطار المستقبلية.

تمت كتابة هذا الكتاب بغية وصوله للجمهور غير المتخصص، علاوة على المساهمة في المادة العلمية المتخصصة في هذا المجال، وتبتعد الكاتبة عن الكتابة بلغة متخصصة، وتقوم بتقديم سياق طويل وخلفية غنية، وتلقي الضوء على نتائج بحثها المختلفة في الدراسات السابقة، وتشير السيدة بلوم بشكل رئيسي إلى أن الإعلام والأبحاث السابقة تصور النساء كواجهة خلفية لمراكز حملات الإرهاب الحقيقية؛ أي كضحايا ساذجة يستغلها الرجال، والقادة من الرجال، وأصحاب الرأي من الرجال أيضًا. كما ويعد تحليلها خاليًا من الفوارق الدقيقة والطبقية، ويظهر دوافع النساء العديدة، والأدوار المهمة جدًّا التي تلعبها في مختلف الصراعات في العالم.

وفي النهاية تعطينا الكاتبة تحليلاً واضحًا ومتشعبًا عن ظروف النساء وأدوارهن المتغيرة بحيث لا ينبغي لنا طرح أسئلة بسيطة عن أدوار النساء في الصراعات الدينية السياسية مثل: هل النساء هناك بالإكراه أم باختيارهن؟

يقدم لنا عمل الكاتبة بلوم الإطارات المتداخلة لما تسميه "الكلمات الأربعة التي تبدأ بحرف R باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى الكلمة الخامسة" (ص234). وتوضح لنا الكاتبة بأن النساء تنخرط في الصراعات والجماعات المختلفة في العالم لأحد الأسباب التالية: الانتقام والخلاص والعلاقات والاحترام والاغتصاب (revenge, redemption, relationships, respect, and rape). وتتداخل هذه الأسباب تداخلاً كبيرًا فيما بعد.

تبدأ الكاتبة كتابها بنبذة مختصرة عن تاريخ الإرهاب بما في ذلك استعمال روبيسبير Robespierre المنهجي للإرهاب والعنف لأهداف سياسية، وطيار وكاميكازي Kamikaze اليابانيون الانتحاريون خلال الحرب العالمية الثانية، وتلاحظ الكاتبة أمثلة عن ادخال الإرهاب إلى القوى الغربية في الغرب، وفي فقرة "منطق الاضطهاد الخاص بها" توضح الكاتبة أنه "لولا مبالغة القوات الحكومية في ردة فعلها لما تمكنت الجماعات الإرهابية من الطموح لإعـادة ملء صفوف عملائها السريين الذين فقدتهم" (ص 19). علاوة على ذلك، يبدو أن الانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم يشكلون "خيار الملاذ الأخير عندما تصبح الجماعات ضعيفة جدًّا" (ص 19). ويعد الانتحاريون الذين يفجرون أنفسهم "القنبلة الذكية الأخيرة" لأنه بإمكانهم تعديل الأهداف والإستراتيجيات في الحال عند الضرورة.

وتفحص الكاتبة نمط النشاطات الإرهابية للنساء في كل فصل من فصول الكتاب من خلال دراسة جماعة معينة في منطقة محددة، ففي الفصل الثاني تدرس الكاتبة عملاء الشيشان المسلمين السريين ضد روسيا وتستطلع ما تسميهم "انتحاريات الأرملة السوداء" THE BLACK WIDOW BOMBERS، وهن نساء نشطات غالبًا ما يكن انتحاريات يفجرن أنفسهن، وقد تكون بعضهن حوامل، ومن غير الواضح علاقتهن بشخصية الأرملة السوداء في ثقافة البوب التي نشأت كجاسوسة روسية خيالية في كتب الرسوم الهزلية في ستينيات القرن العشرين المنصرم التي تلقاها جمهور القراء من الذكور كامرأة قوية ومثيرة جدًّا. وتقدم الكاتبة العميلات الشيشان في دراستها لأزمة رهائن دار الثقافة في دوبروفكا DUBROVKA كعميلات

من الدرجة الثانية مقارنة مع الرجال في تلك العملية. فقد كان الرجال يحظون بالقوة الرئيسة ويتخذون القرارات، وكان من المتوقع أن يهربوا؛ بينما تم إرسال النساء إلى الداخل وكان يتوقع موتهن.

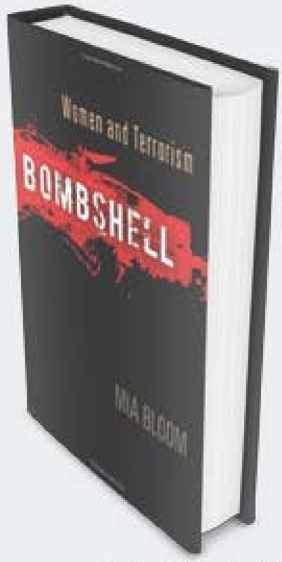
وفي الفصل الثالث نجد "الانتحارية الحامل"، حيث تقدم الكاتبة دراسة حالة الاقتتال المسلح العنيف لحركة المقاومة الكاثوليكية ضد الاحتلال البريطاني لإيرلندا، فقد قامت تلك النسوة بالتنكر كحوامل لإخفاء المواد وتجنب اكتشافهن من قبل الشرطة البريطانية، معتمدات في ذلك على الصورة النمطية الذكرية للنساء الحوامل على أنهن خارج نطاق الصراع السياسي العنيف. ومن خلال هذا المثال يمكننا ملاحظة أنه في المناطق التي تمتاز فيها النساء باستقلال أكبر قليلاً فإن النساء المنخرطات في الجماعات الإرهابية لديهن "فرصة أكبر" وخيارات أكثر أيضا للعب أدوار قيادية.

ومن ثم تقدم لنا الكاتبة دراسة حالة "الكشافة" بين المسلمين الفلسطينيين التي تعدّ إحدى الردود على الاضطهاد الإسرائيلي. وكما في الحالات الأخرى فإننا نرى هنا تشكيل شبكات من أعمار متفاوتة حيث يعدّ الذين يموتون في سبيل قضيتهم شهداء، ويتم تعليم الأولاد على تبجيلهم وتبجيل أهدافهم، لأنهم مقاتلون في سبيل الحرية. إلا أن صورة العديد من النساء الفلسطينيات المشتركات في المنظمات العنيفة تختلف عن صور نساء أخريات عديدة. وتشكل النساء الانتحاريات في حزب العمال الكردي الذي ينشط في تركيا والجماعات (المماثلة) في سيريلانكا و الشيشان نسبة ضخمة من الانتحاريين بشكل عام (40% و25% و43% على التوالي) مع أنهن يلعبن أدوارًا صغيرة في التخطيط للعمليات. ويتم تدريبهن تدريبًا قليلاً أيضًا (ص 137). وتصور الكاتبة النساء في الجماعات الفلسطينية التي تستخدم العنف كوسيلة وهنّ على درجة عالية من الثقافة والاشتراك في رسم الإستراتيجيات والحرب الأيديولوجية العقائدية.

ويركز الفصلان الخامس والسادس على "الانتحاريين المستقبليين" من خلال دراسة حالة المشاركين في جماعة النمر الأسود BLACK TIGER من بين الجماعة التاميلية الهندوسية HINDU TAMILS في سيريلانكا والجماعة الإسلامية اللتان تشكلان "روابط أساسية" وتسعيان لتشكيل نموذج معين من الدولة المسلمة في إندونيسيا وجنوب شرق آسيا. وتواجه النساء في هذه الأمثلة اضطهادًا جنسيًا أشد ضمن ثقافات أوطانها الأم تمامًا كالمجتمعات المماثلة لدراسة الحالة الأولى في الشيشان من حيث السلطة المتعلقة بالجنس البشري (الذكور أو الإناث) فأدوارهن في شبكات الإرهاب تقوم على تربية المحاربين وتعليمهم بحيث يقمن بنقل الأيديولوجية القومية والدينية إلى الجيل التالي. وغالبًا ما يتم المتاجرة بهن كما لو كن بيادق شطرنج، ويتزوجن من عملاء سريين لضمان علاقات أسرية أقوى بين أفراد المنظمات. ويلعب الاغتصاب والترمل أدوارًا مهمة بالنسبة للانتحاريات في هذه الجماعات، كما في الشيشان، حيث يضع الاغتصاب المرأة خارج حدود المجتمع، ويصبح الانتحار من خلال التفجير خيارًا في هذه الحالات، حيث يتم بيع النساء أو خطفهن في الغالب من قبل عصابات إرهابية؛ وهكذا ترى هذه النساء الانتحار كوسيلة جذابة نسبيًا لتخليص أنفسهن. ويعد الاغتصاب تهديدًا مستمرًا للنساء اللائي تعانين من الاحتلال. ويعتمد قادة الجماعات الإرهابية على ذلك لتجنيد النساء اللائي عانين من هذا العنف. ويعد اغتصاب النساء في مجتمعاتهن الخاصة إحدى الإستراتيجيات أيضًا التي تستخدمها العديد من جماعات المقاومة العنيفة لثبوت فائدته كأداة تجنيد فعالة.

وتقدم آخر دراسة حالة في هذا الكتاب تحليلاً للقاعدة ونمو شبكات الجهاد العالمية. وتركز الكاتبة هنا على أدوار النساء "كمجنّدات ومروّجات". ومع أن النساء ما تزال غير مسؤولة عن اتخاذ القرارات، إلا أنهن قد أظهرن فعاليتهن في إيصال الرسالة، وجذب أناس أكثر إلى الجماعات المتطرفة من خلال استعمالهن الإنترنت على وجه الخصوص.

تقدم الكاتبة في كتابها "القنبلة" نظرة واضحة عن المكانة المعقدة والمتغيرة للنساء في الجماعات الإرهابية في مختلف المناطق والصراعات؛ إذ تختصر قائلة: "تقدم الصور النمطية عن الجنسين جزءًا من التفسير؛ ويقدم الاحتلال جزءًا آخر، ويقدم الدين جزءًا ثالثًا". وتعدّ الصورة الكلية لدوافع النساء لهذه الأعمال وانضمامهن في تلك الجماعات "خليطًا معقدًا من العوامل الشخصية والسياسية والدينية تطلق شرارتها محرضات مختلفة في أوقات مختلفة" (ص235). وتلاحظ الكاتبة من خلال نظريتها عن الدوافع الأربع التي تبدأ بالحرف "R" باللغة الإنجليزية بأن السبب الذي يقدم للنساء مرارًا كي تلتحقن بالجماعات الإرهابية هو الثأر REVENGE" لموت أحد أفراد العائلة". وفي السياق الأيديولوجي، حيث تعيش النساء فإن بعضهن تفكر بالخلاص REDEMPTION من خطايا الماضي. وعادة ما تأخذ هذه الخطايا شكل العلاقات الجنسية التي قد تكون من اختيارهن في وقت سابق، أو تم إجبارهن عليها. وتلاحظ الكاتبة فيما بعد أن "أفضل مؤشر على أن المرأة ستشترك في أعمال عنف إرهابية هو علاقتها RELATIONSHIP مع أحد المتمردين أو الجهاديين المعروفين." وتكتب عن هذا قائلة: "يقدم أحد أقارب المرأة دخولها إلى المنظمة، ويضمن الاعتماد عليها" (235). وفي أثناء سعي النساء للحصول على الاحترام RESPECT داخل مجتمعاتهن "يمكنهن إظهار تكريس أنفسهن للقضية والتزامهن بها كالرجال" (236). ويمكن للنساء أن تصبح نماذج



عدد صفحات الكتاب: 240 صفحة
الناشر: C HURST & CO PUBLISHERS LETD
تاريخ النشر: أغسطس 2011   ISBN-10:1849041601

يحتذى بها ليس فقط في مجتمعاتهن وحسب، بل أيضًا في عالم تكون فيه خياراتهن محدودة بسبب الاضطهاد الجنسي.

يمكن تطبيق هذه الدوافع الأربع على الرجال ولكن بدرجات متفاوتة وطرق مختلفة أيضًا. إن الدافع الخامس الذي يمكن إضافته هو الاغتصاب RAPE الذي يتقاطع مع الدوافع الأربعة للنساء. وتلاحظ الكاتبة "وجود زيادة في استغلال النساء جنسيًا في الصراعات المنتشرة على امتداد المعمورة" (236). وتلقي الكاتبة بفرضية أن النساء لسن عنيفات بالفطرة إلى مزبلة التاريخ. ويعد السؤال فيما لو كانت النساء مكرهات أو مخيّرات على المشاركة في الأعمال العنيفة (الإرهابية) في سبيل حرية أوطانهن (أو الحكم الديني) سؤالاً أكثر تعقيدًا مما صورته وسائل الإعلام والدراسات الأخرى. وتقدم الكاتبة عملها هذا على أنه "مجرد مقدمة لتاريخ متواصل لعنف النساء على الأرض" (234). ويوضح الكتاب أهمية التحليل النقدي النسوي لفهم الاتجاهات المعاصرة في الجماعات الإرهابية والرد عليها. ونقترح على الكاتبة التفكير بضم دراسة حالة مسيحية في الولايات المتحدة في أعمالها المستقبلية، بالإضافة إلى إجراء مقارنة بالدعاية الحكومية التي تروج لدعم انضمام النساء للجيش ومشاركتهن بعمليات عنيفة.

*الدكتورة مارلا بريت شنايدر أستاذة الفلسفة السياسية في جامعة نيو هامبشير UNIVERSITY OF NEW HAMPSHIRE بالإضافة لاشتراكها في برنامج العلوم السياسية و دراسات النساء حيث تشغل منصب المنسقة لدراسات النساء.

رابط المراجعة الإنجليزية:
HTTP://WWW.E-IR.INFO/201410/01//REVIEW-BOMBSHELL-THE-MANY-FACES-OF-WOMEN-TERRORISTS/

تعرض "المجلة" على قرائها من أفضل الكتب المختارة.. كتب قيمة تستحق القراءة والتأمل.

أفضل 5 كتب عن مخاوف الذكاء الصناعي

إنّ الكتابة التي تدق ناقوس الخطر قد تعجّل بالركود المقبل، وتصرف الانتباه عن جانب للتطوير، يُعَدّ أكثر أهمية وواقعية، وهو جانب التعددية، إذ تُميِّز التعددية فئة ناشئة من الأنظمة، تعمل فيها مجموعات متنوعة من البشر جنبًا إلى جنب مع مجموعات متنوعة من الآلات؛ لحل المشكلات الصعبة، وتزدهر التعددية عند تقاطع الذكاء الاصطناعي مع تضخيم الذكاء، حيث تندمج حكمة الحشود مع قوة الحوسبة السحابية.

ومع ذلك وبرغم كل المخاوف والقلق، صدر عدد من الكتب الجديدة التي تفند هذه التوقعات منها:

1 - كتاب «آلات تتمتع بفضيلة المحبة» Machines of Loving Grace

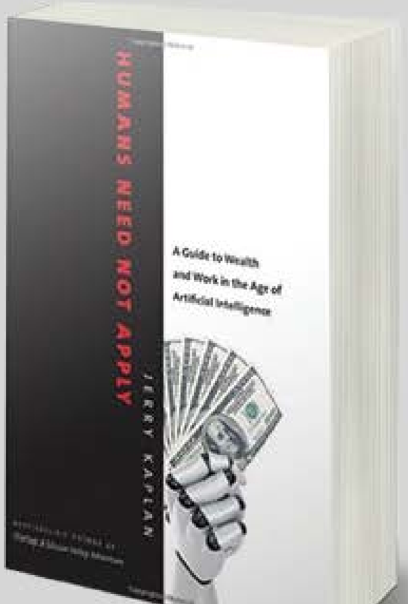


المؤلف: جون ماركوف

يسلط جون ماركوف . مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» في كتابه «آلات تتمتع بفضيلة المحبة» الضوء على التناقض الحتمي بين مجال الذكاء الاصطناعي، وتضخيم الذكاء، حيث يروي قصة التطور الإيجابي الرائع . والعكسي في كثير من الأحيان . لتطور هذين المجالين منذ عام 1956 ، عندما صيغ المصطلحان، وعلى مدى السنوات العشرين الماضية، دأب ماركوف على التفاعل مع كبار الباحثين، كما يوضح في كتابه، وبرغم التفاؤل في البداية، إلا أنه تبيّن أن ابتكار ذكاء اصطناعي أمر صعب للغاية، ولا يزال علم الروبوتات يواجه تحدي مفارقة مورافيك، التي تنص على أن: المهام التي يصعب على البشر أداؤها . مثل التوجيه على بقعة اللحام بدقة . سهلة على الروبوتات ، في حين تظل المهام السهلة على البشر . مثل رفع الأطباق عن مائدة الطعام بشكل ملائم . صعبة للغاية بالنسبة إلى الروبوتات، ويُعزى ذلك غالبًا إلى التعقيد الكامن في الآليات الميكانيكية للاحتكاك ، والتصادم ، والاتصال، فحساب مسار مُذنَّب بدقة أسهلُ بكثير من التنبؤ بمسار قدح من القهوة عند دَفْعه على سطح طاولة.

و«تضخيم الذكاء» هو المصطلح المفضل لدى دوجلاس إنجلبرت ، الذي تناولت أبحاثه قدرات أجهزة الحاسب على تضخيم قدرات الإنسان، وقد تطوّر ذلك إلى مجال التفاعل بين الإنسان والحاسب، حيث أنتج لنا فأرة الحاسب، والواجهات التي تحتوي على رسم، ويروي ماركوف قصص روّاد مميزين، مثل عالم الحاسب تيري وينوجراد ، وخبير الواقع المعزّز جاري برادسكي (وهي تقنية تحويل الصورة الحقيقية إلى صورة افتراضية على شاشة الحاسب) ، حيث أدرك كلاهما جوانب القصور في الذكاء الاصطناعي، ثم أصبحا دعاة لتضخيم الذكاء، ويتضمن كتاب ماركوف حججًا قوية على أن نجاح الذكاء الاصطناعي يتوقف على مدى التقدم في تضخيم الذكاء.

2 - كتاب «البشر لا يحتاجون إلى تطبيق: دليل الثروة والعمل في عصر الذكاء الصناعي» Humans Need Not Apply



المؤلف: جيري كابلان

وهو كتاب غير طويل يطرح قضية الذكاء الصناعي بطريقة مختلفة، ويتوقع تغييرات كبيرة ستطرأ على الطرق التي نعمل بها ، وعلى الوظائف التي نشغلها ، غير أن أهم ما تطرق إليه في كتابه هو الجانب القانوني من المسألة.

يبدأ الكتاب بفكرة أن التكنولوجيا تنشئ "عمالاً كاذبين" "وعقولاً صناعية" ستنجز الأعمال التي ينجزها البشر ، وبالفعل قام محام بإنشاء شركة تحمل اسم روبوت واسمها "روبوت وهوانغ" .

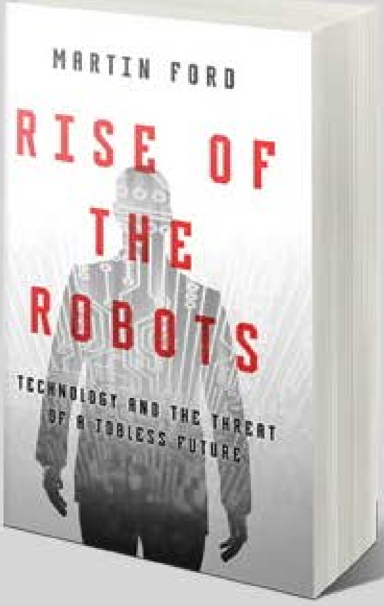
ويطرح الكاتب قضايا قد تبدو غريبة بعض الشيء مثل ما هي مسؤولية الروبوت القانونية إذا ما أخطأ؟

يتحدث الكاتب أيضًا عن مسألة فقد الناس أعمالهم بسبب الذكاء الصناعي، لكنه اقترح بعض الحلول مثل أن توافق شركة على أن يحصل شخص ما على قرض يخصصه للتدريب مقابل حصول الشركة على تخفيضات ضريبية، ومصدر القرض هو مرتبه الشهري الذي سيستلمه الموظف بعد التدريب وبدء العمل.

ويعتقد الكاتب أن المؤسسات التربوية والتعليمية ستكون في هذه الحالة على علم واضح بالمهارات التي يجب تعليمها لموظفي المستقبل.

وللتقليل من اللامساواة في الدخل، يقترح كابلان أن تحصل شركات على تخفيضات ضريبية إذا كانت ملكية أسهمها موزعة، ثم يفسر بالقول إن في إمكان الحكومة الأمريكية أن تسمح للناس باختيار الشركات التي يستثمرون فيها جزءًا من مبالغ الضمان الاجتماعي، ما يؤدي إلى توزيع الملكية بين أفراد عديدين، ثم توزيع الأرباح عليهم لحل مشكلة شركات عملاقة تستخدم ذكاءً صناعيًا، وتحقق أرباحًا خيالية، ولكنها تشغل عددًا قليلاً من الأشخاص.

3 - كتاب «صعود الروبوتات» Rise of the Robots

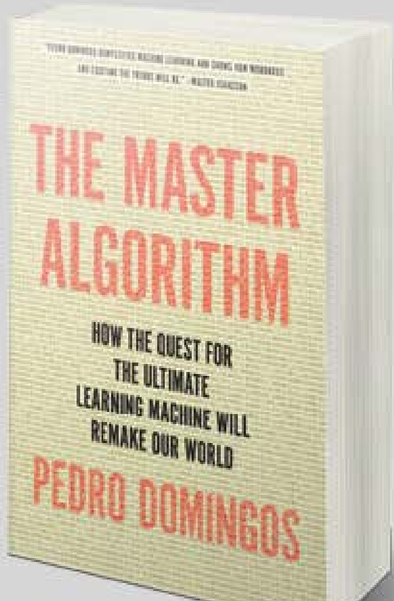


المؤلف: مارتن فورد

كتاب «صعود الروبوتات» لرائد الأعمال في مجال البرمجيات، مارتن فورد، الذي يؤكد أن الذكاء الاصطناعي والروبوتات على وشك القضاء على معظم الوظائف المتاحة للبشر، سواء وظائف موظفي المكاتب، أم وظائف العمال اليدوية. غير أن القراءة المتأنية للكتاب تُظهر أن الأدلة التي يقدمها سطحية للغاية، فقد ابتلع فورد الخطاب البلاغي لمتخصص المستقبليات راي كورزويل، وأكد بشكل متكرر أننا على وشك تحقيق تقدُّم كبير ومتسارع على أساس قانون مور، الذي يفترض أن قوة الحوسبة تتضاعف بشكل أسّي مع مرور الوقت. لكن بعض علماء الحاسب يأسفون لوجود هذه المغالطة الأسّية، من منطلق أن نجاح الدوائر المتكاملة جَلَب توقعات بشأن التقدم، متجاوزة بكثير ما يُقرّه مؤرخو التكنولوجيا من حتمية حدوث تسطيح لا مفر منه لمنحنى التقدم المتصاعد.

كما أن الاتجاهات التاريخية لا تدعم أيضًا مغالطة لودايت، التي تفترض أن هناك كتلة ثابتة من العمل، وأن التقنية تنشئ البطالة لا محالة. هذا النوع من التفكير يغفل النظر في الآثار التعويضية التي تنشئ فرص عمل جديدة، كما يغفل العوامل الكثيرة ذات الصلة، مثل العولمة، وإضفاء الطابع الديموقراطي على القوى العاملة. ويصف فورد أنظمة برمجيات تحاول القيام بعمل المحامين، ومديري المشروعات، والصحفيين، ومبرمجي الحاسب، والمخترعين، والموسيقيين. لكن غالبية الأدلة التي يسوقها على أن هذه الأنظمة ستصل قريبًا إلى مستوى الكمال، وتؤدي إلى عمليات تسريح بالجملة للعاملين، هي أدلة من مقالات نُشرت في دوريات شعبية.

4 - كتاب «الحلول الحسابية: كيف سيؤثر سعينا إلى صناعة آلة قادرة على التعلم على إعادة صياغة عالمنا» The Master Algorithm

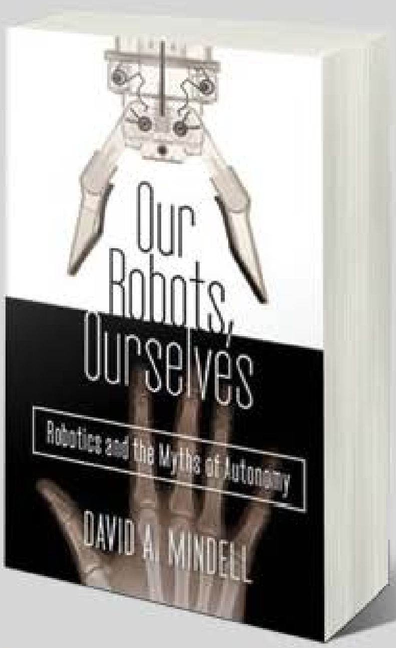


المؤلف: بيدرو دومنغوس

يحمل الكتاب تساؤلاً عمّا إذا كان سعينا إلى صنع أجهزة ذكية سيغيّر من عالمنا، ويركز المؤلف بيدرو دومنغوس على شرح الكيفية التي يتم فيها تلقين جهاز الكومبيوتر بطريقة مبسطة جدًّا، برغم أن هذه العملية معقدة في أساسها، ويتوقع الكاتب أن تطور الآلات إلى درجة أنه سيتم توقيع بروتوكولات جديدة في جنيف في أحد الأيام يمنع على أساسها البشر من المشاركة في عمليات قتالية.

يأخذك الكتاب في رحلة إلى 5 فئات لآلة التعلم (قواعد، الخوارزميات التطورية، النظرية الافتراضية، الشبكات العصبية، والقياس).

5 - كتاب «الروبوتات.. ونحن» Our Robots, Ourselves



المؤلف: ديفيد مندل

يشير ديفيد مِندل، عالم التحكم في الروبوتات عن بُعد، إلى أن أنظمة التحكم الذاتي ليست جديدة.، فمنذ السبعينيات، وهي تستخدم يوميًّا على ارتفاعات منخفضة جدًّا، وعالية جدًّا، وذلك في أعماق البحار، واستكشاف الفضاء، وكل الطائرات تقريبًا، وبناءً على خبرته الواسعة، يوضح مندل أنه على الرغم من تطور هذه الأنظمة، لا يزال كثيرون من الخبراء لا يثقون فيها.

وعلى سبيل المثال.، هناك مدرسة فكرية راسخة تعتقد أن أخصائيّي علم المحيطات ينبغي أن يتعاملوا مع الأعماق المظلمة مباشرةً؛ لفهم العجائب الكامنة هناك، مع أن الغواصات الروبوتية التي يتم تشغيلها عن بُعد، عن طريق كابلات الألياف الضوئية، تُعَدّ أكثر مرونة بكثير، وبوسعها القيام بأعمال الاستكشاف لأوقات أطول، ولا تتطلب شهادة توثيق باهظة الثمن لكل تعديل.

يستعرض مندل المبررات الحتمية التاريخية، والثقافية، والسياسية، والنفسية، والفلسفية، وكذلك المبررات من منظور العلاقات العامة، لإبقاء البشر في موقع السيطرة، ومن الأمثلة الحديثة: العريضة الدولية، التي قُدمت في يوليو 2015؛ لحظر أسلحة التحكم الذاتي، التي وقَّع عليها ما يقرب من 3,000 باحث، وانظر، على سبيل المثال، إلى إعلان شركة «جوجل» عن أنها عثرت على أكثر عنصر لا يمكن الاعتماد عليه في سياراتها ذاتية القيادة، وهذا العنصر هو: (السائقون البشر)، الذين يحاولون تولّي مسؤولية القيادة، وكان رد فعل «جوجل» أنْ أزالت عجلة القيادة، ويوضح مندل لماذا يُعَدّ هذا خطأ، فيما يسميه «أسطورة التحكم الذاتي الكامل»، حيث يشير مندل إلى أن الآلة يمكن أن تعمل بالتحكم الذاتي لأوقات، ولكن لا توجد آلة تعمل بشكل مستقل تمامًا.، فالمقاصد، والافتراضات، والمتغيرات البشرية، وجودها أمر مُسَلَّم به في تصميم جميع الآلات. وتنتهي تجربة مندل به إلى الاستنتاج نفسه الذي وصل إليه ماركوف، وهو أن التحدي الأساسي (والأصعب) هو تصميم واجهات تُبقي على البشر ضمن حلقة التحكم، حيث إن التقدم التكنولوجي لا يعمل بشكل حتمي محدَّد، فقد كانت هناك عدة دورات من الحماس غير المنطقي، الذي تَلَتْه خيبة أمل، وتبخُّر لتمويلات البحوث والتطوير، وهي مدة عُرفت باسم شتاء الذكاء الاصطناعي، ويبدو أن أحدث جولة حالية من التوقعات مُبَالَغ فيها كذلك.

التباهي والتفاخر 2-2



عبدالله بن محمد اليوسف

الرياض

يبحث الكثير عن التميز، وعن الجديد في عالم متحرك متجدد، ونجدد متغير.. نبحث عمّا نظنه الإضافات لذواتنا ... نحتاج لتكملة الفراغات في حياتنا .. مؤكد أن التميز حق مشروع لكل طموح راغب، ولكن لكل منا سمة أو قد لا توجد عند الآخر، وقناعة قد لا يأخذ بها الآخر، وقيم قد لا يبالي بها الآخر، انتشرت ثقافة التباهي بالمظاهر، وفلسفة التفاخر بالتكلف لتشمل فئة كبيرة من شرائح المجتمع رجال وإناث ونتيجة لذلك يقع بعضهم تحت ضغط الديون أو الظروف المادية الصعبة بالرغم من ذلك فإنهم يكلفون أنفسهم بشراء كل ما يجول في خاطرهم دون حساب حتى لو كان ذلك سيشكل قائمة جديدة لديون جديدة منهم شباب مغرمون بأرقام مميزة، ولوحات مبهرة.. عقولهم عاطلة، وجيوبهم فارغة وبعضهم مهووسون بالجلوس دومًا في مطاعم مكلفة أو مقاهٍ مرهقة .. فيدفعون الكثير وهم يعانون.

ومجتمعنا الخليجي مثلاً - نجد إنه في حالة السفر يستهلك ميزانيات ضخمة، حيث ذكرت بعض التقارير أنه تصرف ضعفي ما يصرفه السائح الأوروبي ويستمتع ويستفيد أكثر، والغريب أن الأموال تهدر في التجهيز فقط لملابسه وبعض تفاصيله، خصوصًا لدى بعض النساء، فيصرفن مبالغ ضخمة قيمة ملبوسات ومستلزمات متكلفة، وكذلك الرجال، فلا يوحي الأمر بأن الرجال سيستمتعون بالمناظر السياحية ومواقعها.

أن ثقافة التباهي مستوطنة عند كثير من الأسر لدينا، وخصوصًا المترفة، ويتبعهم من الشرائح الوسطى من يحاول التقليد، أو مسايرة متطلبات التفاخر، وثقافة التباهي حتى وإن كانت الكلفة كبيرة، والنساء محرك أساسي في قضية التجديد وتضخيم مثل تلك المتطلبات لكثرة اتباعهن للموضة ..

ومن مظاهر التباهي والتفاخر، ظاهرة التفاخر بالأحساب والأنساب، ظاهرة التباهي والتفاخر والبذخ والتبذير.

ظاهرة الطبقات في المجتمع والنظرة الدونية: وأرى هذه من أخطر الظواهر والأمراض الاجتماعية، لأنها تتشعب وتتعدد آثارها على المجتمع والأمة.

ولا يخلو مجتمع من المجتمعات منها، ولدينا في عالمنا العربي وخصوصًا المشرق منه نجد التفاخر بالأنساب والادعاء برفعة بعضها عن بعض، وهذا أمر منهي عنه شرعًا ومحرم دينًا، وهو من خصال الجاهلية المذمومة، وقد جاء الإسلام بإبطاله والنهي عنه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ الحجرات:11، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات:13، وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في

النسب، والنياحة على الميت"، وروى أيضًا في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة..".

ولا حرج أن يتعلم الرجل نسبه، بل يطلب منه ذلك شرعًا ليعرف أرحامه وأقرباءه ويصلهم، وقد روى الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر".

•وهذه الظاهرة لها تبعات وآثار سلبية على المجتمع كالنظرة الدونية لبعض المهن، ومن منا لا يعرف أن العمل هو آية الحياة ودليل الوجود، ولولا العمل لما أثبت كل إنسان في هذا الكون وجوده، ليصبح أداة نافعة لها دورها الفعال في المجتمع، فها نحن نرى أن مجتمعنا كالجسد الواحد، ولكل عضو فيه دوره الذي لا يمكن للحياة أن تستمر دونه، والعضو العاطل في هذا الكيان ما هو إلا عبء ثقيل، بل يبدو في جلية الأمر كماء آسن ينوء بحمله كل إناء.

لقد قدس الإسلام العمل ورفع شأنه، ونبذ البطالة والتعطل، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جدًا منها:

قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ التوبة: 105، ويروى في السيرة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم قبل يد أحد الصحابة رضي الله عنه وكانت خشنة من كثرة العمل وقال عليه الصلاة والسلام: "هذه يد يحبها الله ورسوله". وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأرى الرجل فيعجبني، فإذا سألت عنه فقيل: لا حرفة له، سقط من عيني.

وغني عن البيان أن الأنبياء عليهم السلام كان يعمل كل منهم بحرفة، منهم من كان نجارًا، ومن كان خياطًا.. وخاتمهم صلى الله عليه وسلم اشتغل بالرعي وبالتجارة، وكان الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح كانوا يحترفون أعمالاً مختلفة، بجانب أنهم كانوا يطلبون العلم وينشرونه..

ويقرر علماء الإسلام دور الدولة في وجود الحرف الصغيرة، فيقول ابن تيمية في مؤلفه "الحسبة في الإسلام" ما مفاده: أنه إذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم صار هذا العمل واجبًا، يجبرهم ولي الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل، ولا يمكنهم من مطالبة الناس بزيادة عن عوض المثل.

ويقول الغزالي في مؤلفه "إحياء علوم الدين": إن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش، وهلك أكثر الخلق، فانتظام أمر الكل بتعاون الكل، وتكفل كل فريق بعمل، ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهكذا.

ويقرر محمد شلتوت في كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة" أن ما لا يستغنى عنه من قوام أمور الدنيا فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية، ومن ذلك أصول الصناعات كالفلاحة والخياطة والحياكة.. وكل ما هو ضروري لحياة الناس. ولا ريب في أن هذه الحرف والصناعات ضرورية للحياة، والضروريات من أعلى مراتب مقاصد الشريعة، وتحصيل الضروريات واجب، ولن تحصل إلا بتعلم تلك الحرف وممارستها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وبلا شك أن هذه الحرف الصغيرة تسهم في النهاية في التنمية الاقتصادية، وترفع من مستوى معيشة أصحابها، وبالجملة كله يصب في صالح الاقتصاد القومي.

وصدق عمر بن الخطاب حين قال: والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة. (موقع المنتدى التعليمي باختصار)

آثار البطالة على الفرد والمجتمع:

الجانب الأمني: إن البطالة لها آثارها على المستوى الاجتماعي والسياسي والأمني أيضًا باعتبار أن البطالة ترتبط البطالة بانقطاع الدخل ومن ثم صعوبة الحياة نتيجة العجز في تلبية الحاجات الإنسانية الضرورية مما يترتب عليه الجنوح إلى الجرائم الاجتماعية والإرهاب والعنف.

الجانب الاقتصادي: الإنسان هو المورد الاقتصادي الأول ، ومن ثم فإن أي تقدم اقتصادي يعتمد أول ما يعتمد على الإنسان بإعداده علميًا حتى يتحقق دوره في الإسهام في نهضة المجتمع .

الجانب النفسي والاجتماعي والصحي: تؤدي حالة البطالة عند الفرد إلى التعرض لكثير من مظاهر عدم التوافق النفسي والاجتماعي ، إضافة إلى أن كثيرًا من العاطلين عن العمل يتصفون بحالات من الاضطرابات النفسية والشخصية فمثلاً، يتسم كثير من العاطلين بعدم السعادة وعدم الرضا والشعور بالعجز وعدم الكفاءة، مما يؤدي إلى اعتلال في الصحة النفسية، كما ثبت أن العاطلين عن العمل تركوا مقاعد الدراسة بهدف الحصول على عمل، ثم لم يتمكنوا من ذلك، يغلب عليهم الاتصاف بحالة من البؤس والعجز ، والأمراض وحالة الإعياء البدني كارتفاع ضغط الدم ، وارتفاع الكولسترول، الذي من الممكن يؤدي إلى أمراض القلب .

وتنعكس البطالة التي يعاني منها الأفراد على سلوكهم وتلقي بظلالها على المجتمع الذي يعيشون فيه حيث بدأت تظهر في مجتمعنا صورة متكاملة لأوضاع شاذة في شكل تعاطي المخدرات والسرقة والاغتصاب والإحساس بالظلم الاجتماعي، وما تولد عنه من قلة الانتماء والعنف وارتكاب الأعمال الإرهابية والتخريبية، وهناك فئة أخرى تقوم بالكبت بداخلها مما يتحول بمرور الوقت إلى شعور بالإحباط وينشئ شبابًا مدمرًا نفسيًا وعضويًا، وأن نسبة كبيرة من العاطلين عن العمل يفتقدون تقدير الذات ويشعرون بالفشل، وأنهم أقل من غيرهم، كما وجد أن نسبة منهم يسيطر عليها الملل، وأن يقظتهم العقلية والجسمية منخفضة، وأن البطالة تعيق عملية النمو النفسي بالنسبة للشباب، الذين ما زالوا في مرحلة النمو النفسي. كما أن البطالة تولد عند الفرد شعورًا بالنقص بالإضافة إلى أنه يورث الأمراض الاجتماعية الخطيرة كالرذيلة والسرقة والنصب والاحتيال، وتضيف أن الفرد العاطل يشعر بالفراغ وعدم تقدير المجتمع فتنشأ لديه العدوانية والإحباط، والبطالة تحرم المجتمع، من الاستفادة من طاقة أبنائه، وكذلك في الأسر التي يفقد فيها الزوج وظيفته، فإن التأثير يمتد بدوره إلى الزوجات سلبًا وينعكس الأمر على العلاقة الأسرية ومعاملة الأبناء .

كما أن البطالة قد تسبب تفاقم مشكلة الهجرة، ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين هناك فرد واحد من كل خمسة وثلاثين شخصًا حول العالم يعيش مهاجرًا، وإننا إذا جمعنا كل المهاجرين في مكان واحد فإنهم سيكونون دولة هي الخامسة على مستوى العالم من حيث تعداد السكان.

و تشكل هجرة الكفاءات العربية خسارة فادحة للوطن العربي على المدى القريب والبعيد، ويكرس مزيدًا من التبعية للغرب، مما يتطلب وضع إستراتيجية عربية عاجلة يتضافر فيها الجميع، وترتكز على تشجيع الإبداع والمبدعين، وتطوير نظم التعليم، ووضع الفرد المناسب في المكان المناسب، والعمل على استعادة العلماء، وتسهيل تبادل الكفاءات بين الأقطار العربية المختلفة.

إن مشكلة البطالة من أخطر المشكلات التي تواجه وطننا العربي نظرًا لما لها من آثار سلبية خطيرة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية، فعلى المستوى الاقتصادي تفقد الأمة عنصرًا مهمًا من عناصر التنمية ألا وهو عنصر الموارد البشرية وذلك سواء من خلال عدم الاستفادة بهم وتهميشهم أو من خلال هجرتهم إلى الخارج أما اجتماعيًا فإن البطالة توفر الأرض الخصبة لنمو المشكلات الاجتماعية وجرائم العنف والسرقة والقتل والاغتصاب والانتحار ..إلخ، وأمنيًا تؤدى إلى انتشار ظاهرة الإرهاب الذي يجد في أبنائنا العاطلين عن العمل ملاذًا له، مما سبق نجد أن مشكلة البطالة تحتاج منا إلى الوعي جيدًا بخطورتها والعمل على إيجاد الحلول الكفيلة بالقضاء عليها، كما إن البطالة تؤدي إلى السخط الشعبي، علاوة على التوترات والأخطار السياسية والاجتماعية التي تنجم عن حالة اليأس والضياع التي يعيشها العاطلون (منتدى ستار تايمز باختصار).



كن فطنًا وتطوّع

بلقيس بوعلي

الرياض

في زحّام عجلات الحياة للقرن الواحد والعشرين، وما نشهده من تحرك سريع في مختلف المجالات على جميع الأصعدة الثقافية والصحية والعلمية والتعليمية والسياحية والترفيهية والاقتصادية والتكنولوجيا، نشاهد المجتمع يعج بطفرات مختلفة من تعدد المهارات والمواهب للطاقات البشرية على مستوى ريادة الأعمال في التألق والتميز.

لذا نرى من الضروري توعية المجتمع بالمساهمة في صناعة التغيير بتعزيز أول خطوة، وهي نشر ثقافة العمل التطوعي وقيمه السامية.

يعد التطوع رمز المجتمعات المتقدمة ودلالة، بل مبدأ لدى الدول المتقدمة، فالأوطان تستثمر الطاقات الإنسانية في غرس مبدأ التطوع منذ الصغر في أجيالها حتى تصبح ثقافة العمل التطوعي عادة في الكبر بين شرائح مجتمعاتها المختلفة.

التطوع بمفهومه العام توظيف طاقاتك في استثمار جزء من وقتك لاكتشاف مواهبك لعطاء، لكي تصبح فعالاً في الخدمة المجتمعية.

ربما يغيب عن أذهان البعض الثمرات والمنافع الجمة التي ستجنيها من آثار تطوعك من أبرزها تعزيز الثقة بالنفس وتحفيز الإحساس بالمسؤولية وتنمية القيم كحب العطاء والتعاون ومساعدة الآخرين، بل ستصبح مُلهمًا بتواصلك مع مختلف الشرائح التي من خلالها ستبني علاقات جيدة على كافة الأصعدة.

فأنا شخصيًا ممن جربت العمل التطوعي في برامج مختلفة، وكان له كبير الأثر على المستوى الشخصي والمهني في حياتي.

قد لا تجد في بعض الأوقات من يكتشف مواهبك أو من ينميها لك، لكن بمجرد تقديرك لقيمة العمل التطوعي والتحاقك به ستتاح لك فرصًا جمة وستعيش شغفك، وسيصنع منك شخصًا مميزًا.. ستنظر لنفسك اليوم نظرة مختلفة جدًا عما كنت تنظر لها من أعوام ماضية، حينها ستشعر بالراحة وأثر العطاء على النفس، سيرتفع لديك هرمون السيروتونين Serotonin المسؤول عن السعادة بتحقيق أول إنجاز في يومك التطوعي منها ستكتشف أهمية إدارة الوقت واستثماره في مجالات الحياة، بل ستبحث عن فرص للمشاركة مرات عديدة حتى تصبح من الحدث.

نجد أن أكثر من 6 مليون شخص على موقع لينكد إن LinkedIn أعدوا أنفسهم للتطوع، ولديهم استعداد تام في ممارسة هذه الثقافة المجتمعية، التي باتت مسؤولية خدمية ووطنية تدعو لها الشعوب والأديان من مختلف القيادات، لتعزيز هذه الظاهرة الصحية "التطوع" في المجتمع.

من المؤسف وردنا هذا التصريح من قبل المؤسسات التطوعية التي تشير فيه الإحصائيات إن 80 % من الطلاب العرب يجهلون قيمة العمل التطوعي في الإجازات.

لم يتبق أمامنا متسع من الوقت للتباطؤ في نشر



صناعة (ثقافة العمل التطوعي) ابتداءً من كل فرد من أفراد الأسرة الواحدة، و وصولاً إلى الرؤساء التنفيذين وأصحاب القيادات في مواكبة عجلة التقدم بالانخراط في أهمية التكافل الاجتماعي وقيم العمل التطوعي.

فالوطن بحاجة إلى صناعة جيل واعد مبتكر مبدع مثقف في مواجهة تحديات العصر وتطلعاته المستقبلية.

التطوع خدمة اجتماعية، بل أصبح من هذه اللحظة مسؤولية فردية نسعى إلى تعزيزها في أوساط المجتمع المختلفة، حيث نشاهد في الدول المتقدمة تسمو مجتمعاتها بتعزيز هذه الظاهرة، فعلى سبيل المثال نجد في كندا تصل أعداد الجمعيات التطوعية إلى 16 ألف جمعية، يعمل فيها 2 مليون موظف، يساندهم 12 مليون متطوع، كما نشير هنا إن ثقافة العمل التطوعي منتشرة في أغلب الدول المتقدمة منذ أعوام ماضية.

نجد في عام 2000 تشير الإحصائيات إلى أنه في كندا وجد أن الأعمار التي تتجاوز 15 سنة يصل عدد المتطوعين إلى 91 % بينما في ألمانيا 45 % أما الشباب العربي التي تتراوح أعمارهم ما بين (15 – 30) سنة هم أقل الشرائح اهتمامًا بالعمل التطوعي.

قيمة العمل التطوعي تبرز في المخرجات التي سوف تتركها في نفوس المبادرين، هناك الكثير من قصص الملهمين الذين مارسوا العمل التطوعي، وأصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية.

فبالتطوع سنبني مجتمعًا صحيًا راقيًا مميزًا مسؤولاً مبادرًا لحب العمل الخيري وقادرًا على العطاء والسخاء.

ربما يتبادر إلى أذهان القراء أين أتطوع .. ؟ وما هي الفرص المتاحة للالتحاق بالعمل التطوعي، وما هي الأوقات الممكنة للتطوع؟

سنجد أغلب الشركات الحكومية والأهلية والمراكز الخيرية والثقافية والمؤسسات الناشئة والكبيرة أخذت على عاتقها أهمية تفعيل قسم المسؤولية الاجتماعية في منشآتها حيث لا تقل أهميتها عن الأقسام الأخرى من الإدارات المختلفة، كما أولته أولوية خاصة استجابة للأمر الملكي السامي.

فالتطوع يفتح مصرعيه لجميع المبادرين وأصحاب الكفاءات والناجحين، ليضعوا بصماتهم على أرض الوطن.

في رسالتي الأخيرة "كن فطنًا وكن جزءًا من العمل التطوعي" برنامج فطن برنامج وطني وقائي متكامل لجميع شرائح المجتمع من مختلف الأعمار والأجناس يضم كافة مجالات الحياة المختلفة، فلنساهم أنا وأنت في إنجاحه عن طريق استثمار جميع الطاقات البشرية بالمشاركة المجتمعية الوطنية النابعة من كل فرد في هذا المجتمع حتى يتسنى لنا بناء أمم تؤمن أن العمل التطوعي قيمة من ضمن المبادئ والقيم الاخلاقية.

"80 % من الطلاب العرب يجهلون قيمة العمل التطوعي في الإجازات."

"لم يتبق أمامنا متسع من الوقت للتباطؤ في نشر صناعة (ثقافة العمل التطوعي) ابتداءً من كل فرد من أفراد الأسرة الواحدة و وصولاً إلى الرؤساء التنفيذين وأصحاب القيادات في مواكبة عجلة التقدم بالانخراط في أهمية التكافل الاجتماعي وقيم العمل التطوعي"

"في عام 2000 تشير الإحصائيات إلى أنه في كندا وجد أن الاعمار التي تتجاوز 15 سنة يصل عدد المتطوعين إلى 91 % بينما في ألمانيا 45 % أما الشباب العربي التي تتراوح أعمارهم ما بين (15 – 30) سنة هم أقل الشرائح اهتمامًا بالعمل التطوعي"

المرئي أم المكتوب

قراءة في لوحة هذا ليس غليونًا لرينيه ماغريت



د. بدر الدين مصطفى
أستاذ علم الجمال - آداب القاهرة

كانت، وربما لا زالت، إشكالية العلاقة بين ما هو مرئي وما هو مكتوب، أو بمعنى آخر النص-الصورة، من الإشكاليات الحاضرة باستمرار في تاريخ الفكر، وقد اتخذت أشكالاً عديدة، وفقًا للحقول المعرفية التي تمت مناقشتها من خلالها، ففي الابستمولوجيا طرحت هذه الإشكالية في سياقات عديدة، خاصة في الابستمولوجيا المعاصرة، وكان السؤال عن الكيفية التي تتم بها عملية المعرفة واكتساب الوعي هو منطلقها: أيهما يمتلك الأولوية والسيادة على الوعي.. اللغة أم المرئي؟ هل التفكير يتم بواسطة اللغة؟ أي هل العقل يترجم كل ما يراه إلى لغة؟ ومن دون هذه العملية تفقد الأشياء دلالتها، أم أن المرئي له لغته الخاصة، التي تتجاوز وتعلو على أي صياغة لغوية حتى ولو تمت؟ هل اللغة تستوعب ما هو مرئي، بحيث تنوب عنه في غيابه؟ أم أنها مجرد قوالب وصياغات تحفز الذهن على استحضار الصورة والمشهد؟ خاصة مع الوضع في الاعتبار، الأسبقية الأونطولوجية للمرئي، وأن التفكير يتم بالصورة أولاً قبل أن يتم باللغة. في اللغويات حظيت هذه الإشكالية باهتمام كل اللغويين، وكان أبرز من تناولها بالدرس والتمحيص أهم تيارين في اللغويات المعاصرة: السيميولوجيا والسيميوطيقا، وعلى الرغم من وجود أوجه تشابه بين كلا التيارين في نواح عديدة، إلا أن الخلاف بينهم كان واضحًا بصدد هذه المسألة، ففي حين جعلت سيميولوجيا سوسير من النظام اللغوي نمطا متسيدًا على كافة الظواهر والأنماط المعرفية الأخرى؛ فإن سيميوطيقا بيرس Pierce قد أفسحت الطريق أمام أنظمة علاماتية أخرى مستقلة تمامًا عن النظام اللغوي، بمعنى أنها تمارس دورها بطريقة لا لغوية. وفي الحقل السيكولوجي، كانت هذه الإشكالية حاضرة، في سياق شبيه بالسياق الابستمولوجي، في المناقشات التي دارت حول تطور الوعي والسلوك، ومراحل اكتساب المعرفة. أما في الفن، فقد دارت سجالات عديدة حول هذه المسألة، في سياق المقارنة بين أنماط الفنون: الفنون المرئية، الفنون اللغوية، الأدب والتصوير، الموسيقى والعمارة، السينما والسرد... إلخ.

كان الرسام البلجيكي رينيه ماغريت (1898 - 1976) من بين الرسامين القلائل الذين كانت تشغلهم مثل هذه الإشكاليات الفكرية، وكان يسعى باستمرار لتجسيدها عبر خطوط لوحاته، لهذا قيل عنه أنه الرائد الأول لما عرف بعد ذلك باسم الفن المفاهيمي Conceptual painting، ومن بين أعماله التي أراد أن يطرح فيها تلك العلاقة الملتبسة بين اللغة والمرئي أو بين الكلمة والصورة، تلك اللوحة المسماة هذا ليس غليونًا Ceci n'est pas une pipe 1929، وقد أثارت تلك اللوحة شأن بقية أعماله، جدلاً كبيرًا لدى النقاد التشكيليين، لدرجة دفعت الفيلسوف وعالم الاجتماع ميشيل فوكو وكتب عنها مقالته خيانة الصورة trahison de l'images ، ودارت بينه وبين ماغريت نقاشات عديدة حولها.

كل من يلقي ببصره على لوحة ماغريت، سيفاجأ، لا محالة، بغرابة هذه اللوحة التي تتقيد إلى أقصى حد بقواعد التمثل مع أن كل ما فيها "يقول" بعكس "ما تصوره"، يتعلق الأمر بهذه اللوحة التي تجسد في فضائها لوحة أخرى وقد رسم داخل إطارها غليون، وتحت هذا الغليون المجسد في اللوحة المرسومة، كتب بحروف بارزة: "هذا ليس غليونًا" ceci n'est pas une pipe، وفوق اللوحة المرسومة والمحمولة بمسند، يظهر غليون آخر كبير معلقًا في الفضاء لا يخالف الموضوع المرسوم سوى في لونه المائل إلى السواد.

ما يرمي إليه ماغريت هنا في هذه اللوحة هو إزالة كل




رينيه ماغريت

علاقة تمثيلية بين "المكتوب" و"المرئي"، فكأن للأول نظامًا آخر لا يتقاطع مع نظام الثاني برغم أن الفضاء الذي يسبح فيه هذان الطرفان (أعني العبارة المكتوبة والغليون المرسوم) هو فضاء التمثل الكلاسيكي، لأن لا شيء فيه يخالف الفضاء المعتاد.

بالفعل ماغريت يتعمد بث التباين بين "الكلمات" و"الأشياء" ويواصل إبراز هذا التباين بأشكال مختلفة. فما من مرة قام فيها برسم شيء يحوي بداخله كلمات أو جمل إلا وتعمد التركيز على الاختلاف الذي ينخر "المكتوب" و"المرئي". لكنه بدل أن يقف عند هذا الحد فهو يمضي إلى حيث يكون بالمستطاع الوقوف على "تباين التباينات" écart des écarts حاذفًا- مثلما يفعل بورجيس- القاعدة التي تستطيع توحيدهما في هوية مشتركة، وكأن ما يهمه بالدرجة الأولى ليس هو أن يتعرف المشاهد في موضوعاته المرسومة على نماذج أصلية، بل هو أن يطلق العنان لبناء صور تشبه دومًا الموضوعات الواقعية لكنها لا ترتبط بها بأي رباط ماهوي.

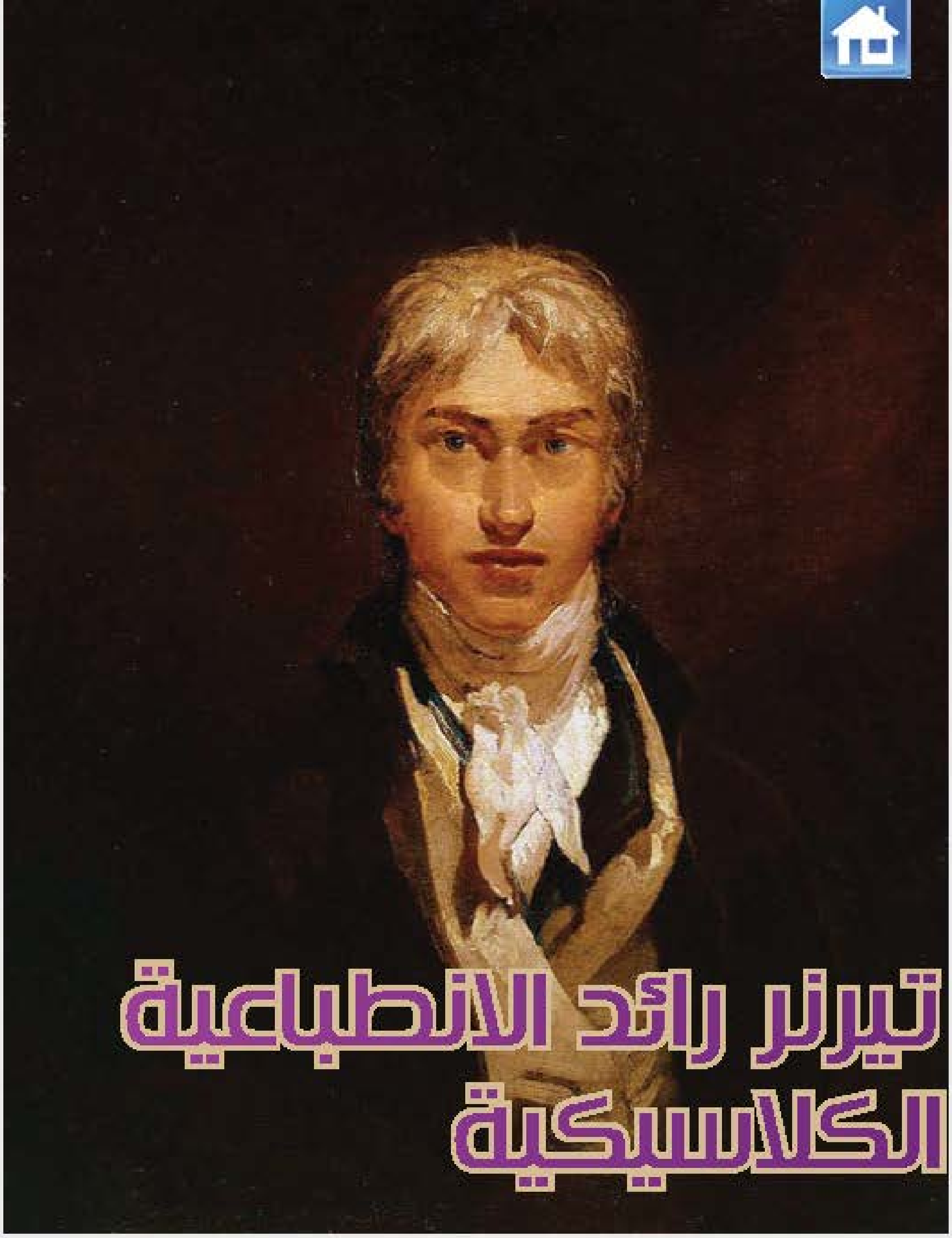
لا داعي إذن لأن نبحث للغليون المرسوم في إطار اللوحة عما يطابقه في الواقع فهو ليس إلا رسمًا، ولا داعي لأن نجد للغليون المعلق في الفضاء عن موضوع ينطبق عليه، فهو ليس إلا "تشابهًا ضبابيًا" une similitude nuageuse كما يقول فوكو، مثلما أنه لا داعي للبحث للعبارة "هذا ليس غليونًا" عن موضوع تحيل عليه، فهي ليست إلا عبارة مكتوبة لا تشبه سوى نفسها، ولا تمثل سوى ذاتها. أجل، إن كل هاته الموضوعات لا تعدو أن تكون سوى سيمولاكرات. ولهذا يصر فوكو في تعليقه على اللوحة نفسها بأن التشابهات عند ماغريت "لا تثبت ولا تمثل أي شيء خارجها"

ما يحدث هو أن المشاهد للوحة ماغريت "هذا ليس غليونًا"، دون أن يقرأ التنويه الذي يخترق اللوحة من أن الذي تشاهده ليس غليونًا، يتبادر لذهنه على الفور أن ما يشاهده هو صورة لشيء مألوف ومتعارف عليه بـ"الغليون"، لكن ما أن يقرأ تنويه ماغريت حتى تبدأ قناعاته القبلية في الاهتزاز، ليسأل نفسه إذا لم يكن هذا الذي أراه غليونًا فأي شيء يكون؟ وما يلبث أن يحاول جاهدًا التدقيق في اللوحة من جديد حتى يكتشف سبب هذا التنويه، أي محاولة للبحث عن الاختلافات التي قد تكون موجودة في الرسم بين الغليون "الذي هو ليس غليونًا" والشيء المتعارف عليه في الحياة بأنه غليون، والتي دفعت الرسام لأن يضع تنويهه، لكن هذا التدقيق لن يسفر إلا عن خيبة أمل، إذ إن ما يشاهده في اللوحة هو غليون بالفعل. لكن المفارقة هي أن المشاهد لن يترك اللوحة وهو مقتنع أتم الاقتناع بصدق ويقين ما رأته عيناه، سوف يتركها وهو ما يزال في حالة من الالتباس، باحثًا عن سر هذه العبارة التي تخترق اللوحة؟ وعما إذا كان ما رأته عيناه هو الحقيقي أم أن العبارة لها مبررها ومن ثم تكتسب مصداقية أكبر من الصورة المجسدة؟ وإذا ما سألنا المشاهد بعد ذلك عن موضوع اللوحة هل هو الغليون؟ لن نجد إجابة واثقة، وإنما سيأتي الرد بربما.. ربما تكون غليونًا، وربما لا.

أيهما يمتلك الأولوية، الصورة أم الكلمة؟ المرئي أم اللغة؟ بالتأكيد هذا هو التساؤل الذي كان يقصده ماغريت من لوحته، إذ لم يهدف ماغريت تقديم نوع من الخدعة البصرية المتعارف عليه في بعض التصاوير والتي فحواها "أن هذا الذي تشاهده يحتوي على شكل آخر إذا غيرت الوضع الذي تنظر من خلاله للوحة"، كما لم يقصد إثارة نوع من الالتباس والحيرة لدى المشاهد، إنما هو فقط أراد أن يطرح التساؤل السابق لكن بالرسم، يعضد هذا الرأي أن ماغريت لم يجعل من عبارته تعليقًا أو اسمًا للوحته، كما هو الحال في لوحات أخرى، بل جعل العبارة حاضرة في فعل التلقي ذاته، في قلب الصورة ذاتها، بحيث يصعب تجاهلها، والاكتفاء بفعل المشاهدة.

ثمة مغزى آخر للوحة ماغريت، إذ يمكن النظر إليها على أنها تحمل رسالة مفادها "هذا ليس غليونًا، إنه رسم". فالغليون المرسوم، ليس غليونًا بالفعل؛ إن هو إلا صورة غليون. مجرد رسم للغليون. وتلك هي الخيانة؛ لأننا لن نقدر في النهاية أن نمد أيدينا ونحشو الغليون تبغًا، وندخنه، أو أن نقضم التفاحة (في لوحة هذه ليست تفاحة). وهذا المعنى، الذي أراد ماغريت أن يقدمه يتقاطع مع العديد من أعماله الأخرى التي حاول أن يناهض من خلالها فكرة التمثل في الفن. ففي كثير من أعمال ماغريت يحضر موضوع المرآة التي لا تعكس الواقع بل تنتج ما تشاء دونما التزام بقواعد الانعكاسية.

إن مرايا ماغريت لا تعيد إنتاج موضوعاتها وفق مبادئ التمثيلية التي تأسس عليها فن الرسم الكلاسيكي، بل إنها تعمد إلى إنشاء عوالمها الخاصة، بما فيها الواجهات الخفية التي لا تستطيع المرايا الواقعية التقاطها، مما يعطي الانطباع منذ الوهلة الأولى بأننا لم نعد أمام مرايا تنسخ الأشياء كما هي ولا أمام تمثلات حقيقية بل أمام قوة شيطانية Une force diabolique توالي إنشاء السيمولاكرات (الصور المزيفة)، وتوسع الهوة بين موضوعات الرسم وموضوعات الواقع.



جوزيف تيرنر رائد الانطباعية الكلاسيكية

اشتهر الفنان الرومانسي الإنكليزي جوزيف تيرنر Joseph Turner برسوماته حول الطبيعية ومائياته والطبعات الفنية، ولد في 14 أيار/مايو 1775، توفي في 19 كانون الأول/ديسمبر 1851، لعائلة متوسطة الحال، فقد عمل والده حلاقًا.

عاش تيرنر أغلب طفولته مع عمه، في برينتفورد، ثم مدينة صغيرة على ضفاف نهر التايمز غرب لندن، خلال هذه الحقبة، بدأت تظهر مواهب جوزيف تيرنر في رسمه للطبيعة التي وجدها من حوله بكامل النقاء، بداية استخدم في رسم لوحاته قلم الرصاص، التي لون داخلها بالألوان البسيطة، في وقت لاحق شكلت تلك المدة أساس أسلوب العمل الفني لكامل لوحاته.

كانت العديد من رسومات جوزيف تيرنر في وقت مبكر عبارة عن دراسات أو تمارين في المنظور المعماري وكما هو معروف أنه عندما كان شابًا كان يعمل لدى عدة مهندسين معماريين، وبحلول نهاية عام 1789 كان قد بدأ أيضًا بدراسة العلوم الطبوغرافية تحت يد توماس مالتون.

دخل الأكاديمية الملكية لمدارس الفن في عام 1789، قدم جوزيف تيرنر أول معرض فني له وهو في الخامسة عشر من العمر، حيث استخدم فيه الألوان المائية، عرض لوحاته في المعرض السنوي للأكاديمية الملكية، وقد برز في لوحاته فهم تيرنر القوي لعناصر المنظور، مما يدل على إتقانه الشامل لأسلوب الطبوغرافية.

كان تيرنر مثير للجدل في حياته، إلا أنه الآن يعد الفنان الذي سما بالرسم الطبيعي إلى مستويات تناطح مكانة الرسم التاريخي، وله تاريخ حافل بالإنجازات الفنية، فهو من قلب موازين الفن في عصره، حتى أصبحت لوحاته تاريخية، اشتهر برسوماته الزيتية كما يعد من كبار رسامي المائيات البريطانيين، واشتهر بلقب "رسام الضوء". وتعد أعماله مقدمة رومانسية للفن الانطباعي، كما وسمت بعض رسوماته بخانة الفنون التجريدية قبل بزوغها في بدايات القرن العشرين.

يعد جوزيف تيرنر برأي الكثيرين أعظم رسّامي الطبيعة ومناظر البحر الرومانسية في بريطانيا خلال







القرن التاسع عشر.

لكنه أقلّ الفنانين حظًّا، نظرًا لأن النقاد انصرفوا عنه رغم موهبته وميله للتجديد واهتمّوا بغيره من الفنانين الأقل شأنًا وموهبة.

ولا بدّ وأن ميله للعزلة بعد جنون والدته ومن ثم موتها هو أحد الأسباب التي أدّت إلى ابتعاد النقاد عنه.

لوحته الجميلة "البارجة تيميرير" تعد أحد أعظم أعماله الفنية التي يصوّر فيها السفينة الحربية التي لعبت دورًا مشهودًا في معركة الطرف الأغر، وهي تُسحب بعيدًا عن البحر من قبل سفينة من النوع الجديد آنذاك الذي يعمل بالبخار.

هذه اللوحة وغيرها من أعمال تيرنر حاول فيها الفنان تسجيل بعض مظاهر تحوّل بريطانيا إلى الثورة الصناعية والتغيّرات التي رافقت ذلك وأثرت على وسائل المواصلات وغيرها من أوجه الحياة.

وكانت "المقاتلة الشرسة" تحمل 98 مدفعًا وأبلت بلاءً حسنا في القتال، وظلت في الخدمة حتى تقرر إحالتها للتقاعد وتفكيكها في العام نفسه الذي رسم فيه تيرنر اللوحة تقديرًا لمكانتها في قلوب البريطانيين آنذاك.

كان تيرنر يدرك أهميّة هذه اللوحة ولذا فقد كان يرفض بيعها على الدوام منذ أن ظهرت لأول مرّة في العام 1838م.

وقرر تيرنر بعد ذلك إهداء لوحته للأمة، واحتلت مكانها المميز منذ ذلك الحين في "المتحف الوطني للفنون" في بريطانيا.

في زمانه تعرّض تيرنر للهجوم والسخرية، إذ إن الجمهور في تلك الأيام كان يطمح في رؤية أعمال فنية واقعية وقريبة جدًّا من الصور الفوتوغرافية في تعاملها مع الأجسام المادية.

في حين أن تيرنر كان يركّز على اكتشاف التفاعل الوثيق والمبدع بين الضوء والجوّ، وهو ملمح طبع جميع لوحاته.

وبعد أن تغيّر الحال أصبح الناس يقدّرون دور الفنان في ترجمة الأشياء والإحساس الكامن فيها، بدلاً من الانشغال بالحقائق والمفردات المادية والمجرّدة.

تعد لوحة الصيادون في البحر التي عرضها جوزيف تيرنر في الأكاديمية الملكية عام 1796 أول لوحة زيتية له، كذلك تعد لوحته روما الحديثة، والتي عرضت في متحف دالاس للفنون، من أوائل اللوحات التي رسمها على القماش، كما سافر تيرنر إلى فرنسا وسويسرا والبندقية، ورسم هناك لوحته "مشهد عاصف" ومن أعماله الأخرى صياد سمك، مدينة المطر، قطار الغرب العظيم، قناة تشستر، أمواج شاطئ نورثمبرلاند، قلعة برغهام، جسر أبفيبريدج، حتى أصبح خلال العقد الثاني أحد أشهر فناني أوروبا، ورائدًا من رواد الانطباعية الكلاسيكية.

توفي جوزيف تيرنر في لندن في العام 1851 م.

جولة في مدينة ميونيخ
الروح البافارية



هي ثالث أكبر مدن ألمانيا وعاصمة ولاية بافاريا. تقع المدينة في جنوب ألمانيا على نهر إيسار على بعد حوالي ساعة بالسيارة من جبال الألب. تدعى أحيانا بالعاصمة الخفية لألمانيا.

تؤكد الخلاصة الشائعة بأن ولاية بافاريا بتاريخ مملكتها العريقة، تنفرد بكيان وهوية خاصة عن بقية ألمانيا، وهي الولاية الأكثر ثراء ومساهمة في الاقتصاد الألماني، الأكثر متانة في العالم.

عند وصولك لمطار ميونيخ تشاهد ما يقدمه من خلاصة لكفاءة الماكنة الألمانية، برحابة فضاءاته المفتوحة والتوظيف الدقيق للمساحات من أجل أقصى انسياب وراحة لعبور العدد الكبير من المسافرين، الذي يصل إلى 35 مليونا سنويًا.

تشتهر ميونيخ عالميًا بأنها مدينة ثقافية عالمية الطابع، إذ إنها تمتلك مئات المتاحف والمعارض الفنية، والقصور الأثرية، والكثير من الكنوز الثقافية والفنية التي تجعل منها من البقاع المميزة على مستوى العالم. ومن المعالم الشهيرة هناك المسرح الوطني (Nationaltheater) ومبنى بلدية ميونخ القديم (Altes Rathaus ألتس رات هاوس) ومكتب تسجيل الاختراعات الألماني ومكتب تسجيل الاختراعات الأوروبي ومبنى بلدية ميونيخ الجديد وصالة فيلدهيرن وملعب أليانز ارينا والكثير من الأماكن التي تشمل كل جوانب الحياة.

وعند التجول في شوارع المدينة، تلاحظ أن ملامح غالبية سكانها تختلف عن بقية سكان ألمانيا، إذا أن معظمهم من أصول سلتية ورومانية، وملامحهم من ملامح سكان حوض البحر المتوسط، برغم اختلاطهم بهجرات القبائل الجرمانية.

وعند التجوال في المدينة تشاهد هناك العشرات من المطاعم العملاقة، وصولاً إلى مركز ومعرض شركة بي.أم.دبليو، الذي يستقبل نحو 2.3 مليون زائر سنويًا، ليكون أكثر معلم سياحي استقبالاً للزوار في ألمانيا.

ومن أقدم هذه الفنادق في العالم، وأكثرها فخامة حتى اليوم، وهو فندق بايريشير هوف Bayerischer Hof الذي أقام فيه جميع الملوك والقياصرة والرؤساء الذين زاروا ميونيخ منذ عام 1841.

وتوفر الجولة السياحية في الفندق الشاسع الذي يضم 340 غرفة وجناحًا، مقسمة إلى 15 فئة، إطلالة فريدة على تاريخ الولاية، من خلال قصص الزعماء الذين أقاموا فيه والأعمال الفنية الفريدة والتصاميم النادرة.

لا يمكن اكتمال زيارة ميونيخ دون زيارة قصور مملكة بافاريا التي تعود إلى نحو ألف عام، وبلغت أوج تاريخها في القرن التاسع عشر، لتنتهي بنهاية الحرب العالمية وقيام الجمهورية الألمانية، ولايزال لها أمير هو لويتبولد أوف بافاريا، من أسرة فيتلزباخ، التي حكمت بافاريا لأكثر من 8 قرون.

كما لاتزال العائلة الملكية تحتفظ بمكانة رمزية، إضافة إلى الإقامة في 3 من قصورها التاريخية، في حين آلت القصور الأخرى ويصل عددها إلى 70 قصرًا إلى الحكومة المحلية، لتتحول إلى متاحف تستقطب السياح من أنحاء العالم.

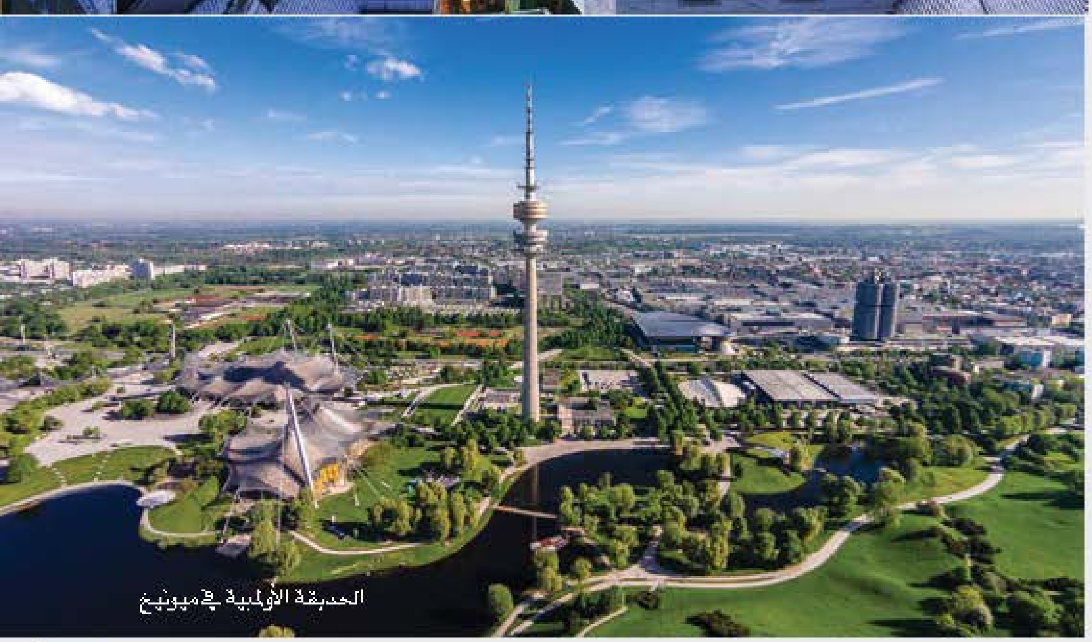
وتنافس ميونيخ بتلك القصور، أكبر المدن الأوروبية الرئيسية، خاصة أنها تضم التاريخ الفريد لولاية بافاريا، التي كانت لأوقات طويلة من أكثر بقاع أوروبا ازدهارًا وخاصة في القرن التاسع عشر.

منها قصر ريزيدينز الكبير افتتح المجمع في العام 1385م على طرف بلدة ميونخ القديمة، ويصنف من بين أهم المتاحف في أوروبا للتصميم الداخلي، وكونه مر بالعديد من التوسيعات، يضم المتحف أيضًا الخزينة ومسرح كافيليوس على نمط الروكوكو الرائع، ومن القصور الموجودة في ميونخ والقريبة من قصر ريزيدينز هناك قصر بورشا وقصر بريسنغ وقصر هولنشتين وقصر الأمير كارل.

ويعد قصر نيمفينبورغ، الذي كان مقرًا للحاكم البافاري "فيتلسباخ" لسنوات طويلة، أهم مقصد سياحي في المدينة، وأكثر ما يلفت الانتباه إلى مبنى القصر هو الحدائق الشاسعة التي تضم عددًا من نافورات المياه وجداول المياه وقلاع صغيرة متوارية في جنبات الحدائق الخلفية، وفي المنطقة الشمالية لميونيخ يقع قصر "شلايس هايم" الذي تم تشييده على طراز الباروك المعماري، حيث نلمس هنا كل أنواع وألوان ترف وبذخ الحياة الملكية، وقد شهد القرن الثامن عشر بناء هذا القصر الذي كان مقرًا صيفيًا لأمير بافاريا، وفي وسط ميونيخ بالقرب من دار الأوبرا، يقع "قصر ميونيخ" وهو مقر الإقامة الشتوية سابقًا، والذي تم بناؤه وترميمه وتجديده وإعادة بنائه على مدار الخمسة قرون الماضية، ويُعد هذا القصر، الذي يتألف من مجموعة من البنايات، من أعظم القصور في أوروبا ويضم عددًا من الكنوز التي لا تقدر بثمن، كما يوجد في المناطق المحيطة بمدينة ميونيخ عدد كبير من القصور الشهيرة، والتي تستحق بلا شك الزيارة، ويمكن زيارة هذه القصور في يوم واحد، حيث يستطيع الزائر الوصول إليها في مدة تتراوح بين ساعة وساعتين من الزمن.

ويصاب الزائر بمفاجأة كبرى حين يعلم أن معظم تلك القصور دمرت بالكامل خلال الحرب العالمية الثانية، لتتم إعادة بنائها بالأحجار نفسها وبأدق مواصفاتها





الحديقة الأولمبية في ميونيخ



قصر ريزيدينز الكبير افتتح المجمع في العام 1385م على طرف بلدة ميونخ القديمة

الأصلية، لتختفي جميع آثار إعادة الإعمار.

المتحف الألماني:

يعد المتحف الألماني من أقدم متاحف التاريخ الطبيعي والتقني وأكبر متاحف العالم، حيث إن مساحته تبلغ حوالي 50 ألف متر مربع، كما أنه من المتاحف التي تتمتع بأكبر عدد من الزائرين، ويضم سفن شراعية ونماذج نووية وطواحين هواء وكبسولات فضائية وقاطرات ديزل، وأناس آليين مستخدمين في مجال الصناعة، وآلات الأرغن، وسفن إنقاذ وغيرها الكثير.

وعند زيارتك لميونيخ لا بد من زيارة متحف بافاريا القومي (Bavarian National Museum) الذي يحتوي على القطع الأثرية تعود إلى عدة عصور كالعصر القوطي وعصر الباروك والروكوكو وعصر النهضة، كما يضم العديد من التحف والأعمال الفنية المصنوعة من العاج، وتضم المقتنيات المتنوعة بالمتحف مشغولات فنية يدوية وتراثية وأعمالاً فنية من خارج ولاية بافاريا.

متحف مدينة ميونيخ (Munich City Museum) الذي يقام في هذا المتحف العديد من المعارض المؤقتة والدائمة التي تتيح الاطلاع على الوثائق والسجلات التي تتناول تاريخ المدينة، كما تقام فيه معارض خاصة حول تاريخ الحضارات والثقافات المختلفة، تشمل نشاطات المتحف نطاقًا فنيًا واسعًا، سواء أكان الأمر يتعلق بفن التصوير الفوتوغرافي أو فن الأزياء والإكسسوارات أو فن العمارة أو اللوحات الفنية والنحت والأشغال اليدوية أو الآلات الموسيقية.

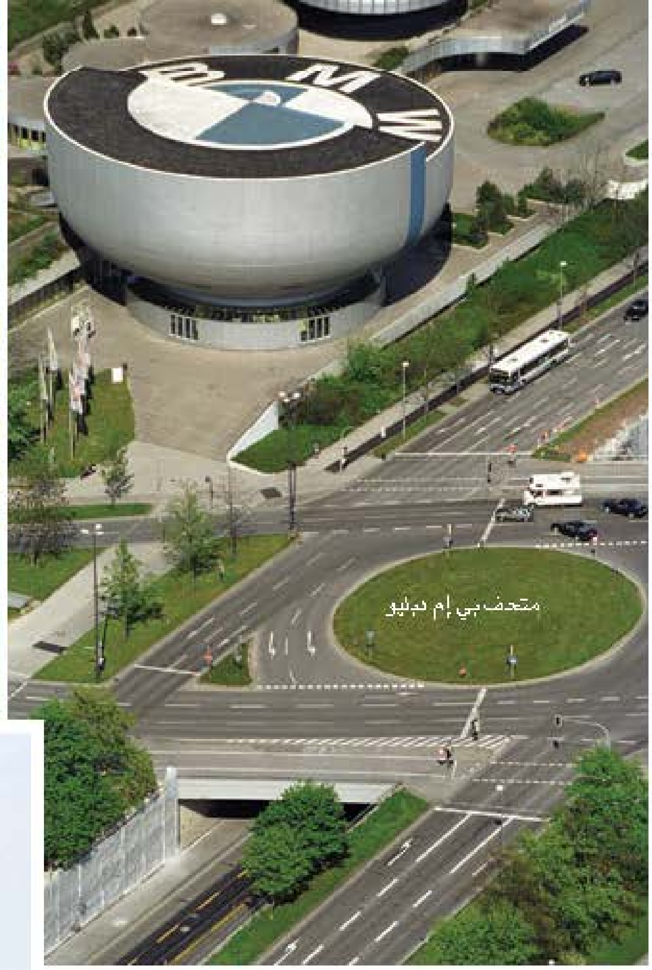
متاحف اللوحات الفنية (Art Galleries) تضم ميونخ العديد من المتاحف الفنية، بداية بالمتاحف الثلاثة المخصصة للوحات والرسومات الفنية في شارع بارر شتراسه في منطقة شفابينج؛ حيث يضم المتحف القديم أكثر من 800 لوحة من أعمال أشهر الفنانين الأوروبيين، ومنهم تيزيان وجيوتو وروبنز ورمبرانت، وعلى أمتار قليلة منه يقع المتحف الجديد الذي يحتوي على مجموعة مهمة من الأعمال الفنية الأوروبية من نهاية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين، ومنها على سبيل المثال لوحات لفان جوخ ومونيه، وعلى أمتار قليلة منه يقع المتحف الجديد الذي يحتوي على مجموعة مهمة من الأعمال الفنية الأوروبية من نهاية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين، ومنها على سبيل المثال لوحات لفان جوخ ومونيه وديغاس وغوغان وسيزان. أما المتحف الثالث فهو متحف الفن الحديث الذي افتتح عام 2002، والذي يعطي فكرة شاملة عن أعمال الفن التصويري والتشكيلي والتطبيقي في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

دار الفن تقوم دار الفن، التي تقع بجوار الحديقة الإنجليزية، بعرض مقتنيات فنية وتاريخية ترجع إلى مختلف العصور الفنية، وقد اكتسب المبنى الذي تم بناؤه عام 1937 شهرة كبيرة أثر قيامه، عقب استيلاء أدولف هتلر على السلطة، بعرض مجموعة الأعمال التي قدمت تحت اسم "فن بلا قيمة فنية" ، أما اليوم فتقوم دار الفن بعرض الأعمال الفنية للفنانين المعاصرين من مختلف أنحاء العالم.

متحف بي إم دبليو (BMW) يوجد قرب مبنى برج بي إم دبليو ويعرض في هذا المتحف كل شيء أنتجته بي إم دبليو من سيارة الديكسي (Dixie) من أيام ما قبل الحرب وسيارة الإزيتا (Isetta) الفقاعية وسيارة السبق، معروض أيضًا تشكيلة هائلة من المحركات والآلات الهوائية والدراجات النارية والسيارات من كل



الطبيعة في بافاريا



متحف بي إم دبليو



قلعة رابونزيل

الأنواع، باريس- داكار (Paris-Dakar) مركونة بكل فخر إلى جانب دراجات السبق التاريخية من أيام ما قبل الحرب، سيارات سياحية إلى جانب ماكينات الفورميولا وان، منتجات مميزة ومحدودة مثل بي إم وي آرت كارس (BMW Art Cars) التي صممت من قبل فنانين مشهورين في الـ 41 سنة الماضية إلى جانب سيارات من أفلام هوليوود، كل هذا وأكثر من 400 نوع وتصميم توفر ذهول وتعمق في تاريخ الهندسة والإنتاج وفي تقاليد بي إم وي إلى يومنا هذا.

مبنى لنباخ وفن العمارة:

مبنى لنباخ هو أحد المنازل الذي تم بناؤه للرسام "فرانس فون لنباخ" على الطراز التوسكاني في القرن التاسع عشر، ويضم عددًا كبيرًا من الأعمال الفنية التي تنتمي إلى مجموعة الفنانين التعبيريين "الفرسان الزرق"، بالإضافة إلى الاستمتاع بمشاهدة لوحات كبار الفنانين من أمثال بول كليه وفرانس مارك وأوجست ماكا أو فاسيلي كاندينسكي، وبالإضافة إلى ذلك، يقوم المتحف منذ سبعينيات القرن الماضي بجمع الأعمال الفنية التي تؤرخ لحركة تطور الفن المعاصر، ولذا فإن المتحف يضم أعمالاً لأكثر الفنانين تأثيرًا على الحركة الفنية في العالم من أمثال يوسف بويز وآندي وارهول وأنسليم كيفر ودان فلافين وجيف وول، كما يفسح المتحف بأقسامه المتعددة المجال ليس فقط لعرض الأعمال الفنية المشهورة، بل لأنه يعرض أيضًا أعمال الفنانين المعاصرين التي تلقى أعمالهم اهتمام الرأي العام.





مهارات تظهر واضحة جلية في رحلة الغوص على اللؤلؤ، يقوم مجموعة من الرجال بالكثير من المهام المتكاملة المنسجمة التي تؤدي في نهاية المطاف إلى رحلة غوص ناجحة، من هؤلاء الرجال: (النوخذة) وهو ربان السفينة والمسؤول الأول والمباشر عن رحلة الغوص، وقد يكون في الغالب مالكًا لسفينة الغوص... ومن أهم السمات التي يجب أن يتمتع بها أن يكون صاحب خبرة كبيرة في مجال عمله، كأن يكون قد عمل لمدة طويلة في مجال الغوص. وأن يكون على علم ودراية بالأماكن التي يتواجد فيها اللؤلؤ (الهيرات). وأن تتوافر لديه معرفة كافية بعلم الفلك؛ فعن طريق النجوم يعرف اتجاه السير؛ فيقود سفينته بنجاح. وأن يمتلك شخصية قوية؛ ليستطيع إدارة العمل، والسيطرة على جميع العاملين في السفينة. وأن يكون على علم بكل الأدوات الموجودة على ظهر السفينة، وطرق استخدامها. وأن يمتلك أمر بيع اللؤلؤ المستخرج للتجار ولديه مصادره التي تعينه على البيع. أما الرجل الثاني فهو المقدمي (المجدمي): رئيس البحارة، والمسؤول عن العمل في السفينة، والأمين على حاجاتها. والشخصية الثالثة على متن سفينة الغوص هو الغيص (الغواص) حيث يغوص في البحر لجمع المحار. أما الشخصية الرابعة المهمة على متن سفينة الغوص فهو السيب والذي يقوم بسحب الغيص (الغواص) من قاع البحر. ثم يأتي دور السكوني وهو من يمسك بدفّة السفينة ويستجيب لأوامر (النوخذة) في توجيه السفينة. ثم يأتي دور المرفه عن فريق السفينة إنه النهّام (النهيم) الذي يغني لطاقم السفينة؛ فيخفف عنهم رحلة غربتهم، ويحفزهم على العمل. ثم يأتي دور الجلّاس (اليلّاس)، حيث يقوم بفتح المحار لاستخراج حبات اللؤلؤ منها. غير أن مهنة الغوص انتهت بسبب عدم جدواها الاقتصادية، وأن ما يحصل من إعادة المهنة للجيل الحالي هو إعادة اشتغال الذاكرة بمهنة الغوص حتى لا تندثر، بل تبقى معالمها بين الأجيال، لذا يسعى قطاع السياحة في البحرين لإحياء هذه المهنة بين جيل الشباب لحفظ تراث الأجداد من الاندثار. ويسعى القائمون على هذا المشروع إلى إحياء مهنة الغوص للبحث عن اللؤلؤ التي تلاشت مع تنامي اكتشاف النفط في الخليج خلال النصف الأول من القرن الماضي، التي كانت تعد أحد أهم الاقتصادات في دول الخليج. وفي ذلك دعوة مجانية إلى ماض تهادى بثقله على موروثات ثقافية تراثية تروي بصمتها العميقة ألف حكاية وحكاية من حكايات ذلك الزمن الغابر وهذه الأيام الحاضرة بكل ما بها من تغيرات وتقدم وحضارة.





متحف ديل برادو في مدريد

متحف ديل برادو في مدريد العاصمة الإسبانية هو متحف ومعرض الفنون وأحد أهم المتاحف على مستوى أوروبا إذ يحتضن العديد من الكنوز الفنية واحدة من أروع مجموعات العالم من الفن الأوروبي، إذ يحتوي على أكثر من 7.600 من الأعمال الفنية من القرن الثاني عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر، على أساس جمع الملكية الإسبانية السابقة.

ويُعد أحد مناطق الجذب السياحية الأكثر شعبية في مدريد. يرجع الهيكل للقرن 18 الذي صممه المهندس المعماري خوان دي فيلانوفا.

شيد المتحف في عهد شارل الثالث ليضفي على مدريد الحيز الحضري في عام 1785 ليكون في الأصل مقرًا لمقتنيات معهد العوم الطبيعية، "برادو" (معنى المرج بالإسبانية). توقف العمل على بناء متحف ديل برادو بين عهد شارل الثالث وخلال حرب شبه الجزيرة وبدأت مرة أخرى في عهد حفيد شارل الثالث فرديناند السابع افتتح يوم 19 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1819 خلال حكم فرناندو السابع.

أسس متحف ديل برادو للوحات والنحت، كما يحتوي على مجموعات مهمة من أكثر من 5000 رسومات، العملات المعدنية والميداليات، وتقريبًا 2000 قطعة زخرفية وتحف فنية. ويمثل النحت أكثر من 700 قطعة.

أصبح متحف البرادو استراحة لعمالقة الفن الأسباني، وقد تضافرت حضارات عريقة، وعلى رأسها الحضارة الإسلامية العربية، لتحول أسبانيا إلى دولة ذات ثراء على صعيد الحياة الفنية بين دول أوروبا.

وقد ظهر في أسبانيا الكثير من الفنانين الذين نافسوا عمالقة الرسم في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وتتجسد عبقرية هؤلاء الفنانين الأسبان في اللوحات الزيتية والمنحوتات العديدة، التي يضمها متحف البرادو في قلب العاصمة الأسبانية مدريد، وتزيد هذه الأعمال عن الثلاثة آلاف رسم زيتي لأشهر عمالقة الرسم في العالم، بالإضافة إلى ما يربو على 400 منحوتة، ومجموعة من المجوهرات وقطع نادرة من البورسلين والكريستال والمشغولات الذهبية.

ويقدم متحف البرادو نماذج عديدة لمدارس الرسم الأسباني، الإيطالية، الفلمنكية، الفرنسية، الألمانية، الهولندية، الإنجليزية.

وفي الواقع فإن زيارة متحف البرادو تفتح الباب على مصراعيه للتعرف على أصول وإنجازات الفن الغربي بأكمله.

اشتهر ملوك إسبانيا في عصورها الوسطى بحبهم للأعمال الفنية وخصوصًا من اللوحات الزيتية التي كانت تزين جدران قصورهم، ويذكر لهم أنهم سمحوا لكل مشتغل بالفن أو حتى من الهواة إسبانيا كان أو أجنبيًا أن يزور مجموعاتهم في قصورهم وأن ينتفع به، ولكننا لا نعرف لهم متحفًا عامًا بالرغم من ذلك.

سقطت إسبانيا تحت ضربات جيوش نابليون، وتم تعيين جوزيف بونابرت ملكًا عليها، وكان عمه يريد أن يقلد سيرة الفاتحين الأوائل مثل الاسكندر الأكبر، فكان أن أراد نابليون أن يضئ في الشعوب المقهورة شعلة الثقافة وحب الفن والجمال، وجاء قرار بونابرت بإنشاء متحف البرادو على أن تكون نواته مجموعة التاج الأسباني القديم، وكذلك الأديرة والكنائس، وكان هذا في عام



1809. إلا أن حكم بونابرت سقط بعدها بحوالي خمس سنوات وجاء ملك إسبانيا فرديناند السابع، وأعاد افتتاح المتحف في سبتمبر 1839.

ولقد أراد الملك وعلى حد قوله مجدًا لأسبانيا ومنفعة للناس وكل الناس وحتى الأجانب إلا أن متحف البرادو في بداية سنواته الأولى لم يكن إلا مجموعة خاصة للملك يرعاها ويتكرم بالسماح للناس بزيارتها وكانت الزيارة ليوم واحد في الأسبوع، ثم سارت يومين هما الأربعاء والسبت.

ويذكر لمبنى المتحف فخامته وضخامته واللتان فاقتا كل وصف، إلا إن إضاءته كانت غير ملائمة مثل باقي المتاحف القديمة.

وعندما نشبت الحرب الأهلية الأسبانية في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي، تم تعيين الرسام العبقري بابلو بيكاسو أمينًا على المتحف، لكنه لم يستطع النجاح بهذه المهمة، وتم نقل مقتنيات المتحف عندما أغلق يوم 3 آب/أغسطس 1936، إلى فالينسيا في البداية، ثم إلى كتالونيا قبل أن تودع في النهاية في جنيف تحت رعاية عصبة الأمم، وظلت هناك حتى عادت في عام 1939 إلى مدريد.

شهد متحف البرادو مرحلة تاريخية جديدة، وجرى تحسين وتطوير العديد من قاعات المبنى التي تم تزويدها بالمواد الواقية من الحريق لمنع وقوع أي حوادث يمكن أن تأتي على المجموعة بأكملها، وحصل المتحف بعد ذلك على العديد من القطع الفنية سواء من خلال الإهداءات أو المشتريات وكانت تلك القطع الفنية محصورة فقط لأعمال رسامي البلاط ورسامي (البورتريه) الرسميين، الذين ينتمون إلى البلاط الملكي منذ عهد فيليب الثاني وحتى عصر كارلوس الرابع، كذلك أعمال الفنانين الأسبان حتى نهاية القرن الثامن عشر، ثم اقتنى المتحف في وقت لاحق أعمالاً لرسامين ينتمون إلى المدرستين الفلمنكية والإيطالية.

ومع ذلك فإن أهمية مجموعة ألبرادو برزت بوضوح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما ضم المتحف محتويات متحف دي لاترينداد السابق، وهي مقتنيات يغلب عليها الطابع الديني لمدرستي مدريد وطليطلة.

وتزايدت محتويات المتحف بالتدريج بعد أن خرج من محاولات إحراق متعددة وعمليات سرقة عديدة قبل نهاية القرن التاسع عشر، وإبان الحرب الأهلية الأسبانية.

في عام 1946 ضم المتحف ولأول مرة لوحات رومانية، كما ضم العديد من الأعمال الفنية لمدارس (الباروك) في قرطبة، غرناطة، أشبيلية، وفالنسيا، مما ساهم في توسيع الإطار التاريخي والفني لهذا المتحف العريق.

وتعد قاعة ريبيرا، قاعة الجريكو، قاعة فيلازكيز، قاعة موريللو، وقاعة جويا من أهم قاعات المتحف.

مجموعات من الرسوم الزيتية

تضم قاعات متحف ديل برادو العديدة مجموعات من الرسوم الزيتية، تعد الأكثر استكمالاً في العالم، وتزيد هذه الأعمال عن الثلاثة آلاف رسم زيتي لأشهر عمالقة الرسم في العالم، بالإضافة إلى ما يربو على 400 منحوتة، ومجموعة من المجوهرات وقطع نادرة من البور سلين والكريستال والمشغولات الذهبية. والرسوم الزيتية التي تضمها قاعات المتحف المختلفة أبدعها عمالقة هذا الفن من جميع أنحاء العالم.. فهناك 83 لوحة أبدعها العبقري روبنز، 40 لوحة بريشة بروجل، 36 لـ (تيتيان)، 14 لـ (فيرونيز)، 6 لوحات و05 رسمًا تخطيطيًا للرسام هيرونيموس بوش، من بينها حديقة المباهج الأرضية.

تأسس كمتحف من اللوحات و النحت ، كما أنه يحتوي على مجموعات مهمة من أنواع أخرى من المصنفات. تم التوسيع بإنشاء جناح جديد ، افتتح مؤخرًا في منطقة العرض بنحو 400 لوحه ، ويتم استخدامه حاليًا أساسًا للمعارض المؤقتة، برادو هو واحد من أكثر المواقع زيارة في العالم، ويعد من بين أكبر متاحف الفن.

يضم المتحف الأعداد الكبيرة من أعمال فرانسيسكو دي غويا، تم جمع أكثرها على نطاق واسع، ودييغو فيلاسكيز، تيتيان، بيتر بول روبنز وهيرونيموس بوش هي من بين أبرز ما تم جمعة للفنانين.

تضم المجموعة الموجودة بمتحف ديل برادو حاليًا حوالي 7.600 من اللوحات والمنحوتات 1.000 ، 4.8000 ، للمطبوعات و 8.200 من الرسومات ، بالإضافة إلى عدد كبير من الأعمال الفنية الأخرى والوثائق التاريخية.

بحلول عام 2012 قام متحف ديل برادو بعرض حوالي 1.3000 الأعمال في المباني الرئيسية ، في حين أن حوالي 3.100 الأعمال هي على سبيل الإعارة المؤقتة لمختلف المتاحف والمؤسسات الرسمية. ما تبقى في المخازن، استقبل المتحف 2.8 مليون زائر في عام 2012 ، ولذلك يشكل المتحف مصدر اقتصادي مهم في مدينة مدريد.

سعود الهواوي:

عالم التقنية وغيره ساهم في كسر هذا الحاجز بتوفير محتوى عربي يغطي مجال التقنية

كل تطبيق أو خدمة أو شبكة اجتماعية وتجد السعودي يكون من أوائل المستخدمين

في ظل الثورة الرقمية أصبحت التقنية من الأشياء الضرورية للإنسان في القرن الحادي والعشرين، وتتسابق الشركات والمختبرات العالمية لإنتاج وتطوير أجهزة العصر من الحاسبات الإلكترونية والهواتف الذكية التي باتت تشكل العنصر الأساسي في رجل هذا العصر، وأصبح المتلقي يجد الصعوبة في البحث عن بعض المراجعات لهذه التطبيقات التي لا تتوافر إلا في المواقع الأجنبية وقل توافر في مواقع عربية تقدم مادة علمية لمراجعة هذه التقنية وشروحات لتلك التطبيقات حتى باتت تمدنا بما هو جديد في عالم التقنية..

عالم التقنية من المواقع النشيطة والثرية بالمعلومات الذي يضعنا دائمًا في قلب الأخبار لكبريات الشركات العالمية المصنعة والمنتجة للعديد من التقنية.. يقف خلف هذا الموقع سعود بن عبدالرحمن الهواوي - الذي التقته مجلة فكر الثقافية وطرحت عليه بعض هذه التساؤلات التي تكونت في هاجس العديد من المتابعين للتقنية.

نرحب بالأستاذ سعود الهواوي :

- ما الدوافع الرئيسية لإطلاق موقع عالم التقنية؟

بالبداية أرحب بقراء المجلة، وأشكركم جزيل الشكر على استضافتي.

كان ولا يزال الدافع الرئيسي لإطلاق عالم التقنية هو حبي لمتابعة التقنية بشكل عام، فقد كانت لدي مدونة خاصة كنت أنشر فيها بعض الأخبار والمقالات التقنية، وبعد ذلك تحول هذا الجهد إلى تأسيس موقع عالم التقنية مع زميلي عبدالملك الثاري الذي كان له نفس الطموح والتوجه.

- موقع التقنية بلا حدود نفس الاهتمامات والأفكار لعالم التقنية لماذا تم إطلاقه؟

موقع تقنية بلاحدود أطلقها مؤسسه سلطان القحطاني الذي لا زال يديره، وكل ما قمنا به أنا وشركائي هو الاستثمار فيه ودعمه وضمه لنا لمجموعة مواقعنا التي ندير ها، والحمد لله كان الاستثمار رائع، ويُعد الآن موقع تقنية بلاحدود من المواقع الناجحة على الصعيد التقنية.

- هل تعتقد أن المواقع الخاصة بالتقنية مثل موقعكم أضاف شيئًا جديدًا للمتلقي السعودي بشكل خاص أو العربي بشكل عام، وما هي تلك الإضافات؟

طبعًا، كما تعلم هناك مشكلة أن المعلومة التقنية التي تكون عبارة عن أخبار أو تقارير يكون أغلبها من المواقع الأجنبية، ووجود موقع تقنية مثل عالم التقنية وغيره ساهم في كسر هذا الحاجز بتوفير محتوى عربي يغطي مجال التقنية، وهذا ماجعل أيضًا المحتوى نفسه يتطور بحيث أصبحت هذه المواقع تنتج مقالات تقنية بنفسها، وتصل إلى مستوى المواقع الأجنبية.

ولذلك الآن هناك جمهور كبير يتلقى المعلومة مباشرة من المواقع العربية بدلاً من انتظارها وتلقيها من المواقع الأجنبية.

- ما مدى جودة المحتوى الذي ينشر على موقعكم بمعنى هل لديكم أسس أو شروط يجب توافرها وتطبيقها على ما ينشر؟

نهتم بجودة المحتوى في عدة نقاط أهمها، جودة اللغة العربية، ذكر مصدر الخبر، ذكر مصدر الصورة، وأيضًا أن يكتب الكاتب الخبر أو المقال بأسلوبه، وهذا ما نهتم له في رفع مستوى جودة المحتوى في الموقع.

- هل تم التعاون بينكم وبين المواقع العالمية مثل ماشبل وتك كرنش وغيرها من المواقع المتخصصة في التقنية؟.

للأسف لم يحصل أي تعاون مع هذه المواقع، ونتمنى أن نتعاون معها في المستقبل القريب.

- الملاحظ أنكم تقومون بمراجعات فقط للهواتف وبعض التطبيقات هل لديكم طموحات أكبر من ذلك؟

نعم، نسعى دائمًا لتطوير أنفسنا، فمثل ما تعرفون بدأنا باثنين من الكتاب، والآن لدينا فريق عمل يتكون من 7 كتاب ناهيك عن كتاب ضيوف وصار عددهم يفوق 100 كاتب.



- يقال إن مواقع التقنية العربية ما هي إلا نسخة من مكررة من مواقع أجنبية مثل ماشبل وغيرها، كيف ترد على هذا الإدعاء؟

هذا الاتهام دائمًا يذكر لنا وفي الحقيقة هذا الاتهام غير صحيح لعدة نقاط:

■ المواقع هذه تحصل على الخبر من مصادر الرسمية للشركات وهذا ما نحن نقوم به، فمثلاً عندما تعلن قوقل عن منتج لها فهي تعلن عنه من خلال مؤتمراتها أو مدوناتها الرسمي، ولذلك تجد عالم التقنية وماشبل وغيره من المواقع الأخرى تحصل على هذا الخبر من مصدره الرسمي، ولذلك نحن هنا نتبع الأسس كما يتبعها أي موقع آخر.

■ في عالم التقنية نقوم بتغطية مؤتمرات عربية وأجنبيهة كثر وباستقلالية تامة عن المواقع الأجنبية، ويكفي معرفة تغطيتنا المؤتمرات للشركات ورعاية المؤتمرات عربية مثل عرب نت، ولذلك نحن لا نتشابه لأننا نركز على جمهورنا العربي.

- ما هي القيمة العلمية التي قدمها سعود الهواوي من خلال عالم التقنية؟

الحمد لله قدمت تجربه تأسيس موقع، ومن ثم الاستمرار في تطويره والصبر على مواجهة العوائق، ومن ثم تحقيق النجاح، هذه التجربة التي أفتخر بها تحفز من يريد تأسيس موقع جديد له بأخذ الدروس من موقعنا، ومن مواقع زميلة لنا اشتركت في أمر واحد وهو الاستمرارية والصبر.

- كيف ترى مستقبل التقنية في العالم؟

التقنية الآن هي جزء من حياتنا، وفي المستقبل سوف تكون كل شيء في حياتنا، فكل التقارير والتوجهات سواء من الحكومات والشركات تشير إلى أن التقنية سوف تسيد حياتنا، فسوف نستخدم التقنية في عملنا، وبيوتنا وحتى في الحروب والمعارك بين الدول والتي أتمنى أن لا تحدث.

وسوف تشاهد التقنيات التي سوف تنقلك من بيتك إلى عملك وتكون تقنية تمامًا مثل السيارات والطائرات.

- كيف ترى تطور التقنية في السعودية عموماً؟

التطور التقني في السعودية رائع بكل ماتعنيه الكلمة، فنحن من الدول التي يعد الاتصال بالانترنت متقدم جداً، ناهيك عن الإقبال السعودي الكبير على دخول الإنترنت واستخدام الشبكات الاجتماعية والتطبيقات، ولقد نشرنا تقرير مؤخرًا يشير على أن السعودي يتعاطى التقنية أكثر من بعض الشعوب مثل الألمانية والبريطانية وحتى أمريكا.

وكذلك دعم الحكومة للتقنية بشكل كبير، فكل جهة حكومية الآن تعمل على تطوير خدماتها وتحويليها إلى تطبيقات ومواقع تقوم من خلالها بتنفيذ ما تريد بدلاً من زيارتها

ولنا مثال على خدمة أبشر من وزارة الداخلية والتي تتيح لك تجديد الجواز وحجز المواقع واستخراج التأشيرات كله من خلال موقعهم أو تطبيق أبشر.

- ما رأيك بجيل التقنية من الشباب السعودي؟

جيل مدمن على التقنية، فكل تطبيق أو خدمة أو شبكة اجتماعية، وتجد السعودي يكون من أوائل المستخدمين، وهذا بسبب قدرتنا بكل سهولة على الاتصال بالإنترنت، وهذا الجيل يحفز الحكومة ومعها الشركات بتوفير خدماتها التقنية، لأن هذا الجيل يرفض استخدام أي شيء لم يتطور أو يتحول للتقنية.

- ماهي خطط سعود الهواوي المستقبلية؟

التوسع في شبكة مواقعنا، فأنا وشركائي نسعى لأن تكون شركتنا من الشركات الرائدة في مجال المحتوى.

الأمر الآخر هو تطوير نفسي في عدة مجالات عملت فيها ولا زلت مثل التسويق الرقمي ودعم ريادة الأعمال والاستشارات.

ترشيد وحسن استخدام الكهرباء



أ.د: عبد الله بن محمد الشعلان

قسم الهندسة الكهربائية - كلية الهندسة
أستاذ كرسي الزامل لترشيد الكهرباء
جامعة الملك سعود - الرياض

الكل مني يعي بأن في قرآننا المنزل آيات كريمة تنبذ الإسراف، وتنهى عن التبذير، وتحث على المحافظة على النعم التي أنعم بها علينا الإله جل علاه، واستخدامها الاستخدام الأفضل. ومن هذه الآيات قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ الفرقان: 67، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأعراف: 31، وقوله عز من قائل: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الإسراء: 26، ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء: 27.

ولعل من هاته النعم الكثيرة التي أفاء الله بها علينا نعمة الكهرباء، والتي كان لاكتشافها أثر عميق في تغيير مناحي الحياة الإنسانية وتغيير أنماطها ومستوياتها، ومنذ ظهور ذلك الاكتشاف العظيم سار ركب التقدم والمدنية قدمًا مع تطور الاكتشافات والاختراعات التي استجدت تباعًا في مجالات الكهرباء واستخداماتها وتطبيقاتها المتعددة، فإذا اعتبرنا أن الماء والهواء هما العنصران الأساسيان لاستمرار الحياة، فإن الكهرباء – بلا شك- هي العامل الأساس لاستمرار التقدم والرخاء، فقد دخلت الكهرباء كل أنماط الحياة وازدادت الحاجة لها والاستفادة منها والاعتماد عليها في المنازل وفي المدارس والمكاتب والمتاجر وفي المشاريع الصناعية والتجارية والزراعية واستخدمت في وسائل النقل والاتصالات والطب والتدفئة والتسخين والتبريد وفي شتى مجالات الحياة، ذلك لأن الطاقة الكهربائية تتحول بسهولة إلى أشكال من الطاقة وبمردود ذي كفاءة عالية كالطاقة الحرارية والحركية والصوتية والضوئية، إلخ.

ونظرًا لميزات الطاقة الكهربائية التي من أهمها إمكانية نقلها إلى أماكن نائية وبساطة استخدامها وسهولة التحكم فيها ونظافتها وعدم وجود مخلفات لها ومستوى موثوقيتها العالية فقد تزايد استخدامها بشكل سريع حتى إنها أضحت تسهم حاليًا (في كثير من البلدان) بما يعادل 60 % من إجمالي الطاقات المستخدمة، وعلى المستوى العالمي فإن الطلب على الطاقة الكهربائية قد نما، وسيستمر في النمو وبمعدل أعلى من الطلب على الطاقات الأخرى، كما سيشهد المستقبل تزايد نسبة استخدام الطاقة الكهربائية، حيث إنها تمثل العنصر الأساس للتطور والنماء والعمود الفقري للتنمية والرخاء.

وبناء على ذلك فإن برامج إدارة الطلب على الكهرباء والترشيد تعد الآن من أهم الاعتبارات التي تؤثر ليس فقط على إستراتيجيات شركات الكهرباء ولكن أيضًا



على خططها وبرامجها. ولقد أثبتت الدراسات (في بعض الحالات) أن برامج إدارة الطلب على الكهرباء وترشيد الطاقة يعد بديلاً منافسًا ومجديًا مقارنة بالخيار الذي يعتمد على إنشاء محطات التوليد ومد خطوط النقل وتوسع شبكات التوزيع، بل يمثل حلاً مثاليًا لمواجهة النمو المطرد في الأحمال الكهربائية المستقبلية.

ظهر مفهوم ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية منذ ثلاثة عقود، وخلال هذه المدة بدأ هذا المفهوم يتسع ويتبلور حول المحافظة على هذه الطاقة وحسن استخدامها وتطوير كفاءة الأجهزة والمعدات الكهربائية المستهلكة للطاقة. وبالإضافة إلى ذلك برز عامل مهم مؤثر على إستراتيجيات الطاقة الكهربائية يتمثل في ضرورة المحافظة على البيئة وحمايتها من التلوث والحد من ظاهرة الاحتباس الحراري وتخفيض انبعاثات الغازات السامة، ومنها غازاتأكاسيد الكربون والكبريت والنيتروجين المنبعثة من جميع المصادر ومن بينها محطات توليد الكهرباء، التي تعمل بالوقود الأحفوري (الفحم والغاز والبترول ومشتقاته). ولقد عزز هذا المفهوم برامج ترشيد الطاقة وإدارة الأحمال والاتجاه نحو زيادة الاعتماد على مصادر الطاقة والمتجددة، (أي ما يعرف بالطاقات النظيفة والصديقة للبيئة).

وتدل التجارب دائمًا على أن سن القوانين ووضع القواعد لحسن استخدام الطاقة الكهربائية وترشيد استهلاكها بالطرق المثلى، قد لا يكون وحده كافيًا لتوعية وتعويد وتطويع المستهلكين على اتباع أفضل الطرق وأجداها لاستغلالها وحسن استخدامها، إذ لابد أن تكون ثمة قوة فاعلة لإنفاذ تلك القواعد والقوانين. لقد أصبح من المؤكد أن ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية قد أضحى من القضايا المهمة التي باتت هاجسًا يشغل بال كل من جهة الإمداد (شركة الكهرباء) وجهة الطلب (المشتركون)، بحيث يمكن القول بأن دراسة هذا الموضوع بشكل علمي وتطبيقي وتوعوي أصبح مطلبًا ملحًا لمجابهة ظاهرة النمو المتسارع في الطلب على الطاقة الكهربائية، ومن ثم تحقيق الاستخدام الأمثل لإمكانيات النظم الكهربائية وتخفيض نفقاتها الرأسمالية والتشغيلية، كذلك تحقيق الاستخدام الاقتصادي الأمثل للوقود مما سيؤدي حتمًا إلى تقليص التكاليف عن كاهل شركات الكهرباء ومشتركيها على حد سواء بالإضافة إلى حماية البيئة من الغازات والتلوث.

إننا نحن مستهلكو الطاقة الكهربائية لنا دور مهم ومحسوس في عملية ترشيد استهلاك هذه الطاقة الثمينة وعدم هدرها وإضاعتها وأنها كأي طاقة أو مادة حيوية يجب أن تراعى وأن لا تصرف إلا في وجهات ومناح سليمة، وربما أن البعض (هداهم الله) قد لا يدرك الجهود الكبيرة التي تضافرت والأموال الطائلة التي أنفقت في سبيل إيجاد هذه الطاقة المهمة لتتاح سهلة ميسورة للجميع، ثم يعمد غير واع أوعابئ بالإسراف في استخدامها وإهدارها وتبذيرها فيما لا يجدي ولا يفيد، لذا يجب سن ضوابط وأسس لترشيد الاستهلاك ووضعه ضمن إطار منظم يوفر للمستهلك وضمن حدود استطاعته التمتع بهذه الطاقة (بل النعمة) في حياته ومعاشه ولكن عليه في ذات الوقت أن يتحمل تبعة أي إسراف أو هدر قد يحدث من جانبه.

ولعله يجدر بنا – ونحن في هذا السياق عن ترشيد الكهرباء – أن نعي ونتذكر أن الله تبارك وتعالى قد أفاء على بلادنا، وحباها بنعم وخيرات كثيرة لا تعد ولا تحصى، ومن أعظمها وأهمها بعد نعمة الإيمان والأمن توفير الكهرباء التي أصبحت تمس كافة جوانب حياتنا اليومية مما حدى بالدولة إلى استثمار أموال ضخمة في إنشاء مشاريع البنى التحتية وتأمين كافة الاحتياجات والمتطلبات لقطاع الكهرباء، الذي بات يشهد تناميًا متسارعًا عامًا بعد عام مما يعني الحاجة إلى المزيد من الاستثمارات والنفقات لمواكبة الطلب على هذه الخدمة الأساسية التي يجب علينا حسن استخدامها وترشيد استهلاكها والمحافظة عليها.

وفيما يلي استعراض شامل للقوانين والتشريعات واللوائح والتعليمات التي صدرت عن جهات حكومية مسؤولة بخصوص الإجراءات الرئيسية اللازم تبنيها وتطبيقها والالتزام بها لترشيد الطاقة الكهربائية والمحافظ عليها في مملكتنا الغالية.

تطلب هذا الأمر التفكير جديًا من قبل جميع الإدارات المعنية في قطاع الكهرباء (حكومية وأهلية) بالتعاون والتنسيق معًا بما يحقق توعية المستهلكين بترشيد

"الطلب على الطاقة الكهربائية قد نما وسيستمر في النمو وبمعدل أعلى من الطلب على الطاقات الأخرى، كما سيشهد المستقبل تزايد نسبة استخدام الطاقة الكهربائية حيث إنها تمثل العنصر الأساس للتطور والنماء والعمود الفقري للتنمية والرخاء"

"ظهر مفهوم ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية منذ ثلاثة عقود وخلال هذه المدة بدأ هذا المفهوم يتسع ويتبلور حول المحافظة على هذه الطاقة وحسن استخدامها وتطوير كفاءة الأجهزة والمعدات الكهربائية المستهلكة للطاقة"



استهلاك الكهرباء والحد من هدر تلك الطاقة الثمينة والحفاظ عليها من جهة والسعي نحو رفع كفاءة الاستهلاك وتحسين أداء الأجهزة الكهربائية وتوفير الخسائر والتكاليف من جهة أخرى، وفيما يلي بعض الجهود التي بذلت في هذا السياق.

أولاً: الخطط والنظم والتشريعات المعمولة

1-1 الخطة الوطنية لترشيد استهلاك الكهرباء بالمملكة

تطلب هذا الأمر التفكير جديًا من قبل وزارة المياه والكهرباء القيام بإعداد خطة وطنية شاملة في مجال ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية تهدف إلى الحد من هدر تلك الطاقة الثمينة والحفاظ على مصادرها من جهة والسعي نحو رفع كفاءة الاستخدام وتحسين أداء الأجهزة الكهربائية وتوفير الخسائر والتكاليف من جهة أخرى، لذا شرعت الوزارة في إعداد هذه الخطة الوطنية الشاملة لترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية في المملكة للقطاعات السكنية والتجارية والصناعية والحكومية وكافة المرافق الخدماتية الأخرى، ومن المأمول أن تحقق هذه الخطة الوطنية جدوى فاعلة في تقليل الزيادة المطردة في الأحمال القصوى وتحسين أداء وكفاءة الأجهزة والمعدات الكهربائية وتخفيض تكاليف التركيب والتشغيل والصيانة لمرافق الكهرباء، كما أن الوزارة قامت بإطلاق حملة توعية حول أهمية تطبيق العزل الحراري في المنشآت العمرانية نظرًا لما للعزل من أهمية كبيرة ودور فاعل في توفير الطاقة الكهربائية والمحافظة عليها. كما أنشأت في الوزارة إدارة مختصة بالتوعية والترشيد قامت بجهود كبيرة وخطوات حثيثة في هذا المجال برزت في العديد من المحاضرات والكتيبات والأفلام والصور والمعارض والحملات التوعوية والندوات والمطبوعات، أيضا قامت الوزارة بإطلاق حملات توعية في جميع أرجاء المملكة بالتثقيف والتبصير بأهمية ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية ورفع كفاءة استخدامها تستهدف تخفيض الهدر وتوفير الطاقة على مدى سنوات قادمة.

1-2 كود البناء السعودي

صدور قرار مجلس الوزراء السعودي الموقر بشأن العمل نحو إعداد كود بناء موحد من شأنه تطوير قطاع البناء والتشييد والرقي به في ظل الظروف والتطورات التقنية والعلمية المستجدة محليًا وإقليميًا وعالميًا، واستجابة لهذا القرار فقد تم العمل فعلاً بإعداد كود البناء السعودي الموحد على أسس تكفل ملاءمته لظروف المملكة وإمكاناتها واحتياجاتها. ولقد أشرفت على إعداد وصياغة هذا الكود وزارة الشئون البلدية والقروية بالتعاون مع جهات مختلفة من الدوائر الحكومية ذات العلاقة والجامعات والشركات والقطاع الخاص والمكاتب الهندسية والاستشارية. ويشتمل كود البناء السعودي على مجموعة من القوانين والنظم الإدارية والفنية المتعلقة بالبناء والمبنية على القواعد العلمية والهندسية الحديثة، وذلك لضمان الحد المقبول من معايير السلامة والصحة والجودة والراحة والتكلفة، مع الأخذ في الحسبان خواص المواد والظروف الطبيعية المحلية ومتطلبات الحماية من الحريق والأخطار الطبيعية كالزلازل والأمطار والرياح والعواصف البرقية.

1-3 المواصفات القياسية لكفاءة الطاقة للأجهزة الكهربائية

جاءت الحاجة الملحة لإعداد مواصفات قياسية لكفاءة استهلاك الطاقة لبعض الأجهزة الكهربائية المنزلية الشائعة الاستخدام (مثل الثلاجات والمجمدات والغسالات والمكيفات) من خلال دراسة مكثفة وشاملة مبنية على احتياجات المستهلك والسعي نحو تثقيفه وتوعيته عند شرائه لتلك الأجهزة الكهربائية والتعرف على مدى كفاءتها وجودتها وأدائها بالمقارنة بأمثالها في السوق المحلي قبل إتمام عملية الشراء. وفي هذا السياق قامت الجهة المسؤولة في هذا الشأن، وهي الهيئة السعودية للمواصفات والمقاييس والجودة بمساع حثيثة في مجال إعداد مواصفات قياسية تركز على تطوير وإيجاد بطاقات (على شكل ملصقات) تبين مستوى كفاءة تلك الأجهزة حين الاستخدام، مقارنة مع منتجات أخرى مماثلة لها. إن تصميم المعلومات والبيانات التي تحتويها البطاقة مبنية ومعتمدة على المواصفات المحلية المعدة لتلك الأجهزة، كما تشتمل بطاقة كفاءة استهلاك الطاقة على معلومات وبيانات متعلقة بالمنتج ذاته من شأنها أن تعكس فاعلية كفاءة استهلاك الطاقة لتوعية وتثقيف المستهلك، الذي يعد في حد ذاته أحد أهم الآليات نحو التطبيق العملي في إدارة الطاقة وترشيدها. وتعد هذه البطاقات بمثابة الدليل الذي يمكن وضعه في مكان بارز على المنتج لتسهل قراءة البيانات التي يحتويها من قبل المشتري (المستهلك). لقد جعل الهدف من هذه البطاقة أن تكون أداة مرنة وطيعة لتبين وبشكل جلي واضح حجم وكمية استهلاك الطاقة الكهربائية لبعض الأجهزة الكهربائية المنزلية الشائعة الاستخدام وبخاصة نسب مستويات كفاءة الطاقة للجهاز والمعروف بـ: ”Energy Efficiency Ratio, EER“، وهذه البطاقة يتم وضعها على شكل ملصقات على الأجهزة والمعدات الكهربائية

الشائعة الاستخدام مثل المكيفات والغسالات والثلاجات والمجمدات التي يتم تصنيعها محليًّا أو استيرادها من بلدان أخرى.

1-4 تبني وتطبيق معايير لإزاحة الأحمال وترشيد الطاقة

قامت هيئة تنظيم الكهرباء والإنتاج المزدوج بالتنسيق مع الشركة السعودية للكهرباء نحو تطبيق دراسات تجريبية في إزاحة الأحمال وترشيد الطاقة لكافة فئات المشتركين (مستهلكو الطاقة الكهربائية)، كذلك البدء في تركيب وتشغيل العدادات الذكية التي تقوم بحساب الاستهلاك حسب وقت الاستخدام (TOU) مما ينعكس على جودة الخدمة وعدم انقطاعها وتخفيض تكاليفها، كذلك التنسيق مع شركتي أرامكو وسابك، وهما أكبر الشركات الصناعية في المملكة للعمل نحو تصحيح معامل القدرة للمعدات والتركيبات الكهربائية لديها مما يوفر قدرات كبيرة وتكاليف باهظة بالنسبة لجهة الإمداد (الشركة) وجهة الطلب (المشتركون).

ثانيًا: المراكز الناشئة لتعزيز مسيرة ترشيد الطاقة والمحافظ عليها

لدعم وتعزيز مسيرة ترشيد الطاقة وحسن استخدامها والمحافظة عليها ظهر عدد من المراكز التي اهتمت بسياسات وبرامج الترشيد وسن قواعد وتشريعات ونظم من أجل تبنيها وتطبيقها والالتزام بها إلى جانب تنسيق جميع الجهود لذلك الغرض بين الجهات الحكومية وغير الحكومية، ومن بين هذه المراكز والبرامج ما يلي:

2-1 المركز السعودي لكفاءة الطاقة (SEEC)

أنشئ المركز السعودي لكفاءة الطاقة (Saudi Energy Efficiency Center) بعد أن تحول من البرنامج الوطني لإدارة وترشيد الطاقة (NEEP) والذي أنشئ سابقًا بمبادرة من البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة وبتعاون مع مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية لتبنيه والإشراف عليه، بموجب قرار مجلس الوزراء الموقر رقم 16 و تاريخ 1431/1/17هـ (2011/12/12)، ليقوم بدور رئيس وفاعل في قضايا ترشيد الطاقة بوجه عام والطاقة الكهربائية بشكل خاص، وقد قام المركز بإعداد دراسات وتنظيم لقاءات وعقد ندوات تهدف إلى زيادة الوعي بأهمية ترشيد الكهرباء وحسن استخدامها والمحافظة عليها وعدم إهدارها، ومن المهام المناطة به أيضًا تنفيذ البرنامج الإلزامي لرفع كفاءة استخدام الطاقة، الذي يستهدف تخفيض استهلاك الطاقة في ثلاثة قطاعات استهلاكية رئيسية هي المباني والصناعة والنقل، كما يقوم بمتابعة عمليات تطبيق اشتراطات ومتطلبات هذا البرنامج من قبل تلك القطاعات المعنية.

2-2 البرنامج السعودي لكفاءة الطاقة (SEEP)

تأسس المركز بقرار من مجلس الوزراء الموقر في أواخر عام 1431 هـ ضمن الإطار التنظيمي لمدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية تحت لجنة إدارية تضم ممثلين لجميع الجهات ذات العلاقة برئاسة رئيس المدينة من أجل ترشيد وتطوير كفاءة استهلاك الطاقة بالمملكة العربية السعودية، وتنسيق جميع الجهود بين الجهات الحكومية وغير الحكومية، ولوضع برنامج وطني لترشيد ورفع كفاءة استهلاك الطاقة، كذلك اقتراح النظم واللوائح التي تحقق الترشيد، أيضًا متابعة تنفيذ التشريعات والسياسات والخطط المتعلقة بالترشيد كذلك المشاركة حسب الحاجة في تنفيذ بعض المشاريع الريادية.

2-3 كرسي مجموعة الزامل لترشيد الكهرباء

يمثل كرسي مجموعة الزامل لترشيد الكهرباء أحد كراسي جامعة الملك سعود البحثية التي تعنى ببث الوعي الثقافي والسلوكي وتنميته لدى الناس في كيفية استهلاك الكهرباء بالشكل المعقول المنافي للإسراف والتبذير. وقد تم افتتاح هذا الكرسي وتمويله بتاريخ 1429/3/23 هـ (2008/3/31م). وخلال الأربع سنوات الماضية قام الكرسي بمجهودات كبيرة في مجالات ترشيد الكهرباء تمثلت في إصدار كتب وعقد ندوات والقيام بحملات توعوية لترشيد الكهرباء في مختلف مناطق المملكة، ولقد عني الكرسي أن يكون مرجعًا متميزًا وقاعدة معلوماتية قوية في قضايا ترشيد الكهرباء على المستوى المحلي خاصة والعالمي عامة وأن يكون مشاركًا فاعلاً مع الجهات المعنية في إيجاد مجتمع معرفي مزود بثقافة وسلوك ترشيدي ناضج، كما ساهم الكرسي أيضًا خلال الحقبة الماضية بجهود بحثية وتثقيفية واجتماعية في ترشيد الكهرباء، منها ما يلي: تنمية الوعي بأهمية الكهرباء وترشيد استهلاكها، المساهمة في حل مشكلات الهدر الكهربائي، زيادة المحافظة على الطاقة الكهربائية بما يخدم الاقتصاد الوطني، إثراء البحوث والدراسات والتدريب والتثقيف في ترشيد الكهرباء، جمع المعلومات في قاعدة بيانات قوية وتوفيرها للمستفيدين، تقديم الاستشارات والتدريب، عقد المؤتمرات والندوات وحضورها، دعم طلاب الدراسات العليا في مجالات ترشيد الكهرباء، التعرف على التجارب الدولية والاستفادة منها، التعاون مع الجهات المعنية لتحقيق الأهداف المشتركة، التعرف على أسباب ومصادر الهدر الكهربائي، رفع مستوى التوعية لدى الناس بأهمية الطاقة الكهربائية، تحسين كفاءة وأداء المعدات والأجهزة الكهربائية والمائية، المشاركة مع وزارة المياه والكهرباء وكافة الجهات المعنية بقضايا الترشيد في الدراسات والأبحاث المتعلقة بالترشيد، تقديم الاستشارات وإقامة الندوات وورش العمل.

ثالثًا: دعم الدراسات والأبحاث في مجالات ترشيد الكهرباء

كان للكثير من الجهات المعنية دور كبير في دعم وتمويل الدراسات والأبحاث الموجهة نحو ترشيد استهلاك الكهرباء سواء ما يتم إجراؤه في مراكز البحوث بالجامعات أم ما تقوم به جهات متخصصة ومكاتب استشارية من القطاع الخاص. ومن الجهات التي كان لها دور كبير في الدعم والتمويل وزارة المياه والكهرباء حيث أشرفت ومولت الكثير من الدراسات والأبحاث التي عنيت بتدقيق الطاقة وترشيد الكهرباء والحفاظ على البيئة، كما قامت مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بدعم دراسات متعددة في مجالات الطاقة بمفهومها الشامل بل وأفسحت المجال لجهات معنية في قطاع الكهرباء بالإشراف والمشاركة في تلك الدراسات والأبحاث والاستفادة من أساليبها ونتائجها، كما أن الجامعات السعودية كان لها دور بارز في دعم وتمويل الكثير من المشاريع والأبحاث في مجالات تحسين الخدمة الكهربائية وترشيد استهلاكها وتقليل هدرها، كما كان للشركة السعودية للكهرباء دور محسوس في تمويل الكثير من الدراسات، التي عنيت بإزاحة الأحمال وترشيد الاستهلاك وتوعية المشتركين باتباع الطرق المثلى في استخدامات الطاقة الكهربائية وترشيد استهلاكها، ومن الجدير بالذكر أن لدى الشركة إدارة خاصة تعنى بتوعية المشتركين بأهمية الطاقة الكهربائية وحسن استخدامها وترشيد استهلاكها والحفاظ عليها. كما أن للشركتين العملاقتين أرامكو السعودية وسابك باعًا طويلاً وإسهامات مشهودة في دراسات وأبحاث الطاقة والمحافظة عليها وقد تم إنشاء كراسي بحثية متخصصة في هذا الشأن في كثير من الجامعات السعودية تحت رعايتهما ودعمهما.

الخاتمة:

وختامًا، علينا أن ندرك بأن الكهرباء نعمة من النعم الوفيرة والكثيرة التي أفاء الله بها علينا، كما علينا أن نعي أيضًا بأنها تنتج بتكاليف باهظة، وتصل إلينا كمستهلكين ومستفيدين سهلة وميسرة، فيجب علينا إذن أن نحرص على حسن استخداماتها والتعامل معها حتى نحافظ عليها، وننعم بمزاياها ومنافعها محققين وممتثلين لقول الرب تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦﴾ الإسراء: 26. ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ٢٧﴾ الإسراء: 27.



أضرار التكنولوجيا الحديثة

منة الله عبدالمنعم

كاتبة ومترجمة علمية وفيزيائية
بمعهد الكبد القومي
جامعة المنوفية - مصر

لا يمكن إنكار الفوائد الهائلة التي ساهمت بها التكنولوجيا الحديثة بكافة أنواعها في حياتنا اليومية؛ وتحديدًا "الإنترنت" والهواتف المحمولة؛ التي ساهمت في يسر الاتصال والتعلم والعمل والاقتصاد وكافة نواحي الحياة. لكن لكل شيء أضراره كذلك؛ لذا يستعرض المقال الراهن بعض الدراسات الحديثة عن التأثيرات السلبية لبعض هذه التقنيات.

أضرار تصفح البريد الإلكتروني بعد العمل

أصبح البريد الإلكتروني من أهم وسائل الاتصال الحالية؛ إذ لا غنى عنه في أغلب مجالات العمل وغير العمل؛ فسواء كان المستخدم صغيرًا أو متقدمًا في السن؛ أو كان يتلقى يوميًّا مئات مقابل آحاد الرسائل، فإن دراسة حديثة أكدت أن كيفية التعامل مع هذه الرسائل وتلقيها يؤثر على مستويات التوتر ونواحي صحية أخرى؛ فقد أجرى فريق من مركز أعمال المستقبل البريطاني دراسة شملت ألفين شخص من مختلف المهن والأدوار الوظيفية المتنوعة. وقام برصد كيفية تعاملهم مع "الإيميلات" وإدارتها وتلقيها، وكيف يؤثر ذلك على مستويات التوتر. وجدت الدراسة أن الأشخاص الذين قضوا وقتًا أطول للتعامل مع البريد الإلكتروني هم الأكثر عرضة للتوتر والأضرار الصحية الناتجة عنه.

يقول "ريتشارد ماكينون" أحد أعضاء الفريق البحثي أن البريد الإلكتروني سلاح ذو حدين، وأن الأشخاص الذين شملهم البحث واعتبروا أنهم الأكثر استفادة من البريد الإلكتروني هم كذلك الأكثر تعرضًا لمستويات الضغط النفسي والتوتر الناتج عنه. ولا يعد التوتر مجرد تغير في المزاج، ولكنه يسبب عدد من الاضطرابات النفسية والجسدية الأخرى مثل أمراض القلب زيادة الوزن وضعف الذاكرة واضطرابات الهضم والاكتئاب.

ووجدت الدراسة أن هناك عادتين ترتبطان بالتوتر الناتج عن البريد الإلكتروني، وهما أن يكون تصفحه آخر ما يقوم به الشخص قبل الخلود للنوم أو أول ما يقوم به فور الاستيقاظ. وكذلك أن أقل من نصف المشاركين هم من يطفؤون تطبيقات بريدهم الإلكتروني بعد العمل في حين نسبة 62 % يتركون تطبيقاتهم تعمل طول اليوم وأن المديرين يعانون من الضغط الناتج عن البريد أكثر من المرؤوسين.

واعتمدت الدراسة في توصياتها بدراسة سابقة أجريت في جامعة ستانفورد الأمريكية أن طول أوقات العمل لا يعد بالضرورة ذو إضافة انتاجية ولكن إرهاق مباشر



الاتصال الدائم بالبريد الالكتروني يؤذي صحتنا

فالدراسة السابقة قالت إن العمل حوالي 70 ساعة أسبوعيًا لا يمثل زيادة كبيرة عن 55 ساعة بالأسبوع، لذا أوصت الدراسة البريطانية بعدم تصفح البريد الإلكتروني بعد مواعيد العمل أو على الأقل تنظيم التعامل معه بدلاً من هدر الصحة والإنتاجية[1].

الإنترنت يصيبنا بالشك

الإنترنت يعد مصدر المعرفة الأول على مستوى العالم، ولكن لأنه لا زال حديثًا لذا لا تتواجد دراسات كثيرة عن آثاره المؤكدة ولكن يحاول العلماء بدراسات وإحصاءات كثيرة كل يوم، ومن أحدث الدراسات دراسة بجامعة واترلو الكندية تؤكد فكرة سابقة، هي أن الإنترنت يصيبنا بالشك في دقة معلوماتنا، فمثلاً إذا سألت عن عاصمة بريطانيا وكنت تعرف الاجابة فستميل إلى البحث على الإنترنت للتأكد من إجابتك وهذا ما حدث في الدراسة الكندية التي شملت مئة شخص ثم سؤالهم أسئلة معلومات عامة وقام حوالي نصفهم بتصفح الإنترنت للتأكد من إجاباتهم.

وهناك دراسة أمريكية حديثة كذلك تؤكد إن واحدًا من كل خمسة أمريكيين يبقى متصل بالإنترنت على مدار اليوم وإن حوالي 73 % من الأمريكيين يتصلون بالإنترنت يوميًا، ويقلق العلماء من هذا الاتصال المباشر وتأثيره على الذاكرة فبوجود الهواتف الذكية المتصلة بالإنترنت دومًا يميل الأشخاص لتسجيل الأرقام والتواريخ والأحداث عليها بدلاً من تذكرها كما السابق مما يؤدي لزيادة مستويات ضعف الذاكرة أكثر من الماضي[2].

الهواتف الذكية لها أضرارها الجسيمة كذلك

الهواتف المحمولة تعد من أبرز مظاهر التكنولوجيا الحديثة، التي تعمقت في الحياة اليومية حتى وصلت إلى الهواتف الذكية التي كأنها كمبيوتر كامل لا يفارق جيوبنا ومنذ ظهورها لم تتوقف الأصوات التي نادت بأضرارها.

وفي مقالة كتبتها آمي كودي الكاتبة والأستاذة بكلية الأعمال بجامعة هارفارد لدورية نيويورك تايمز بينت أضرارًا غير مألوفة لهذه الهواتف أبرزها هو وضع الانحناء المتخذ للنظر في الهاتف يؤذي الرقبة بشكل مرعب، حيث يشابه حمل وزن 27 كيلوجرام على منطقة الرقبة، وكذلك أن كثرة البقاء على وضع الانحناء قد يسبب الإصابة بالكآبة وضعف الثقة بالنفس وهو ما أكدته دراسات نفسية سابقة عن آثار الحالات الجسدية على الحالة النفسية بشكل مباشر، وكذلك تسبب الانحناء المتكرر بضعف الذاكرة على عكس الأوضاع.

وأشار المقال إلى دراسة أجريت بجامعة هارفارد أفادت أن استخدام هواتف بشاشات أصغر يعرض لمزيد من الضغط النفسي والأخطار الصحية، ويوصي المقال باستخدام شاشات كبيرة أكثر وممارسة التمارين الرياضية المقوية لعضلات الرقبة والأكتاف باستمرار[3].

مدمني الألعاب الإلكترونية يعانون من اختلاف في المخ

الألعاب الإلكترونية وألعاب الفيديو لا يعدها البعض مجرد رفاهية، بل أداة تعلم وتنمية مهارات، فرغم التأكيد على أضرارها تتصاعد كل حين أصوات ودراسات مؤكدة فوائدها من زيادة معدلات الاستجابة وتقوية الذاكرة لكن دراسة حديثة شملت مئتي مراهق بين العاشرة والتاسعة عشر يعانون من إدمان ألعاب الإنترنت نتائج مقلقة، حيث بينت الفحوصات اختلافات غريبة في مناطق معينة من المخ، وزيادة معدلات قصور الانتباه والتركيز لديهم.

واعتمدت الدراسة إجراء فحص رنين مغناطيسي دقيق للمخ لفحص الوظائف العصبية وتأثرها بالألعاب الإلكترونية، وأظهر الفحص تحسن في بعض مناطق المخ وهي المناطق المسؤولة عن تحديد الأمور المهمة وتوجيه الوظائف الجسدية نحوها مثل الابتعاد عن سيارة تقترب منا في الحياة اليومية.

ولكن على صعيد آخر وجدت الفحوص تغيرات في المخ مشابهة لحالات مصابة بالشيزوفرنيا ومتلازمة داون والشرود المرضي، وهذا يشير إلى أن مدمني ألعاب الإنترنت قد يصابون أكثر بنقص الانتباه وفقدان التحكم بالنفس، ويقول القائمون على الدراسة برغم أن دراستهم تعد الأكثر تركيزًا في هذا المجال حتى الآن إلا أنه لا بد من التعمق أكثر لمزيد من التوضيح وبرغم الايجابيات التي وجدوها إلا أن السلبيات الشديدة لا يمكن التغاضي عنها[4].

المصادر:

1 - http://www.sciencealert.com/here-s-how-your-smartphone-could-be-ruining-both-your-body-and-your-mind

2- http://www.thejournal.ie/access-to-the-internet-makes-us-doubt-2492646-Jan2016

3- http://www.nytimes.com/201513/12//opinion/sunday/your-3-iphone-is-ruining-your-posture-and-your-mood.html?_r=3

4-http://www.techtimes.com/articles/11997820151229//scans-of-compulsive-gamers-brains-show-theyre-wired-differently.htm





إتقان الثورة الصناعية الرابعة

لاري هيثواي

كبير الاقتصاديين في GAM القابضة

ترجمة: فريق مجلة فكر الثقافية

يثير الابتكار التقني على الدوام ردود فعل متناقضة تمامًا: الإعجاب بالاحتمالات الجديدة بالنسبة للبعض والخوف من التغيير المزعج للبعض الآخر، ولكن معظمنا حتى لا يدرك ما الذي يحصل فنحن نأخذ التغيير على أنه أمر مفروغ منه.

إن براعة الإنسان لا تحظى بالكثير من الاعتراف والتقدير، وخاصة في الأسواق المالية، فالمستثمرون يشعرون بالقلق فيما يتعلق بمخاوف باهتة: الخوف من الهبوط الحاد في الصين، وتداعيات هبوط أسعار النفط، والمخاطرة بأن تحصل صدمة ما يمكن أن تصيب الاقتصاد العالمي الهش بالركود أو الانكماش مجددًا.

بالطبع، فإن المخاوف المتعلقة بظروف الطلب العالمي هي مخاوف مشروعة ولكن آخر شيء يحتاجه الاقتصاد العالمي الآن هو تجدد الشعور بالقلق ولكن على الرغم من القلق الذي ينتابنا من الدين الزائد على الحد وعدم كفاية السياسات، فإنه لا يوجد شيء يضاهي أهمية براعة البشر في تحقيق مستويات معيشة أفضل وفرص استثمارية. إن التقنيات الجديدة تحمل لنا الوعد بثورة صناعية رابعة، وهي العنوان الرئيس لاجتماعات المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس.

لقد بنيت الثورة الصناعية الأولى على المحرك البخاري. لقد ساهم اختراع جيمس واط سنة 1775 في امتداد الصناعة في القرن التاسع عشر من جذورها في إنجلترا إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. أما الثورة الصناعية الثانية من الثلث الأخير من القرن العشرين وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى فلقد قامت بفضل التطورات في الكهرباء والنقل والكيماويات والحديد وخاصة الإنتاج والاستهلاك على نطاق واسع . لقد انتشر التصنيع بحيث وصل لليابان بعد أحياء إمبراطورية ميجي ولروسيا، التي كانت تعيش حالة ازدهار في بداية الحرب العالمية الأولى. لقد وصلت الثورة الصناعية الثالثة في نهاية القرن الماضي مع تصنيع وانتشار تقنية المعلومات.

إن الوعد بثورة صناعية رابعة يتألف من التقدم الذي تم إحرازه في تصنيع الإنسان الآلي وربط الأشياء مع بعضها البعض عن طريق الإنترنت والبيانات الكبيرة وتقنية الهاتف النقال والطباعة ثلاثية الأبعاد وطبقًا لإحدى التقديرات فإن التبني الناجح لتلك التقنيات الجديدة يمكن أن يعزز الإنتاجية العالمية بنفس القدر الذي حققه الكمبيوتر الشخصي والإنترنت خلال أواخر التسعينيات وبالنسبة للمستثمرين فإن الثورة الرابعة تعرض فرصًا للربح تشبه تلك التي قدمتها الثورات التي سبقتها وبالفعل فإن أصحاب التقنيات في هذا المرحلة المبكرة من الثورة



الصناعية يطلبون أسعارًا كبيرة جدًّا لتقنياتهم .

إن العصور الجديدة من تصاعد الاستثمار والتقنية وأساليب المعيشية هي ليست فقط ممكنة بل محتملة، حيث تتكرر بوتيرة متزايدة، وهي نتاج البراعة البشرية، ولكن العصور الجديدة تتطلب أكثر من العلوم الأساسية أو العمل الريادي من مرآب للسيارات، فحتى تكون التقنية تحويلية يجب تطويعها للاستخدام في الحياة اليومية.

إن القول أسهل من الفعل، ففي بداية التصنيع عانى واط ماليًّا، ولم ينجح في تسويق المحرك البخاري الخاص به، حتى قام بتشكيل شراكة مع المصنع الإنجليزي ماثيو بولتون.

إن الأهم من ذلك إن التاريخ يشير بأن الحماس – من حيث الاقتصاد الكلي والأسواق- يسبق الواقع . إن المرء لا يحتاج لأن يكون "متشائمًا فيما يتعلق بالإنتاجية" (بحيث يجادل على سبيل المثال بأن المرحاض الداخلي هو آخر اختراع عظيم للإنسان)، حتى يقر بأن العديد من التقنيات الجديدة تحقق نتائج أقل من تلك الموعودة أو تكافئ المستثمرين فقط بعد أوقات تأخير طويلة.

إن من الجدير ذكره أن الطاقة البخارية المبكرة سبقت بولتون وواط بقرن من الزمان تقريبًا أن الأمر استغرق أكثر من نصف قرن حتى تمكن اختراعهم من تجاوز الطاحونة المائية التقليدية كعماد للإنتاج الصناعي للقرن التاسع عشر. لقد اكتشف فولتا لأول مرة الخلايا الكهربائية سنة 1800، ولكن استغرق الأمر ثمانية عقود أخرى قبل تقديم التيار المباشر كوسيلة لنقل الكهرباء.

لقد تم تطوير إنياك – أول كمبيوتر إلكتروني- بشكل سري خلال الحرب العالمية الثانية. لقد نمت القدرة والاستخدام الحاسوبي أضعافًا مضاعفة خلال العقود التالية في القرن العشرين ولكن حتى في أواخر الثمانينيات كان الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد روبرت سولو يتهكم قائلًا: بأن عصر الكمبيوتر موجود في "كل مكان باستثناء إحصائيات الإنتاجية" .

بالنسبة للمستثمرين فإن هذا الاعتبار يحمل تداعيات مهمة، ومن بينها الحاجة للصبر ومقاومة غراء أن ندفع أكثر مما هو مستحق في مرحلة مبكرة. إن تحديد الخاسرين (من يتذكر كمبيوترات وانج ؟) يمكن أن يكون بأهمية تحديد الرابحين.

إن من الأهمية بمكان أن نفهم كيف يمكن للتقنية أن تكون بمثابة نقطة تحول لصناعات تبدو أنها غير ذات علاقة. إن ظهور القدرة الحاسوبية مكن متاجر التجزئة الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية – وول مارت وستابليز وهوم ديبوت وغيرها- من أن تحل مكان محلات مام آند بوب وسلاسل البيع بالتجزئة في الخمسينيات والستينيات. إن القدرة الحاسوبية مع التقدم في لوجستيات النقل والتخزين والتوزيع عملت على تمكين تجارة التجزئة، لتصبح بهذا الحجم الاقتصادي الكبير الذي لا يمكن تصوره.

لكن اليوم فإن محلات التجزئة الكبرى نفسها تعاني بسبب تجارة التجزئة على الإنترنت، التي تعد باقتصادات أكبر حجمًا وفعالية لوجستية مما يعني أنها تقدم أسعار تنافسية مقارنة بأكثر عمليات المحلات التجارية فعالية.

إن البراعة مهمة ولكنها مدمرة كذلك في إعادة صياغة لكلام جوزيف شومبيتر وفي لغة اليوم، فنحن نتكلم عن "التقنيات المعطلة "ولكن يجب أن لا ينخدع المرء بالمصطلحات فالوسائل الجديدة لإنتاج الأشياء عادة ما تقتل الصناعات والوظائف القديمة قبل أن تظهر الفوائد الكاملة لنمط الإنتاج الجديد وفي نهاية المطاف فإن درجة محددة من العنف ترافق التقدم البشري.

ولهذا السبب يجتمع المديرون التنفيذيون في دافوس هذه الشهر (يناير 2016) لمناقشة كيفية "إتقان" الثورة الصناعية الرابعة، فمع كل هذه الوعود المذهلة بالتقدم التقني فإن وعودهم هي مصدر قلق ملائم.

المصدر:

https://www.project-syndicate.org/commentary/fourth-industrial-revolution-01-innnovation-by-larry-hatheway-2016

أضخم انفجار سوبرنوفا يضيء مجرة درب التبانة

اكتشف علماء فلك ما يصفونه بأنه أضخم انفجار سوبرنوفا على الإطلاق، حيث يتفوق في شدة توهجه على مجرة درب التبانة بأكملها.

وسوبرنوفا هو حدث فلكي نادر يحدث في المرحلة الأخيرة من عمر نجم ضخم، يكون مداره العنيف على شكل انفجار أخير بالغ الضخامة، ولمدة مؤقتة يتسبب ذلك في ظهور نجم "جديد" متوهج في الفضاء، قبل أن يتلاشى عن الأنظار بعد عدة أسابيع أو أشهر.

ولم يشاهد أحد بالعين المجردة سوى ثلاثة انفجارات سوبرنوفا في مجرة درب التبانة خلال الألف سنة الأخيرة، برغم أن انفجارات عديدة شوهدت عبر المناظير في مجرات أخرى.

وقد كشف فريق دولي من علماء الفلك في 14 كانون الثاني/يناير 2016 في مجلة "سايانس" عن "أقوى انفجار سوبرنوفا رُصد في تاريخ البشر"، واستخدموا شبكة من المناظير حول العالم لرصد هذا السوبرنوفا الهائل العام الماضي.

ومع ندرة انفجارات السوبرنوفا، فإن هذا الحدث نادر على وجه الخصوص لأن إضاءته تزيد مرتين عن إضاءة أي انفجار سوبرنوفا تم رصده حتى الآن، بما في ذلك تلك التي تحمل الرقم القياسي بشدة توهجها.

ففي أوج شدته، يعتقد العلماء أن إضاءته وصلت إلى عشرين ضعف إضاءة مجرة درب التبانة بأكملها، ويرفع آخرون هذه التقديرات إلى خمسين ضعفًا، وبتعبير آخر فإن إضاءته تزيد في ذروتها بنحو 570 مليار مرة عن إضاءة شمسنا.



صورة تعبيرية تبين شدة إضاءة "أساسينز" كما تبدو من كوكب في المجرة التي يتبع لها السوبرنوفا (أسوشيتد برس)

وأطلق العلماء اسم "أساسينز" على هذا السوبرنوفا الذي وقع في مجرة تبعد عنا نحو 3.8 مليارات سنة ضوئية.

وقال المعد الرئيسي للدراسة سوبو دونغ، وهو من جامعة بكينغ الصينية، في بيان إن آلية الانفجار ومصدر قوته لا يزال يحيط بهما الغموض، لأن كل النظريات المعروفة تواجه تحديات جادة في تفسير الكم الهائل من الطاقة التي أشعها "أساسينز". لذلك فإن التحدي المقبل أمام العلماء هو معرفة مصدر القوة الهائل لهذا الانفجار الذي ربما يؤدي إلى وضع تصنيف جديد للسوبرنوفا.

يذكر أن أغلب الفرضيات عن أسباب حدوث سوبرنوفا تعود إلى النفاد المفاجئ للوقود النووي في نجم ضخم، فتتغلب قوى الجاذبية، وتؤدي لانهيار النجم نحو الداخل تحت تأثير قوة ثقله. أو أن يلتقط "قزم أبيض" (وهو نجم صغير بحجم كوكب) مادة إضافية من نجم مجاور إلى أن يصل إلى كتلة حرجة فيخضع لانفجار نووي حراري.

ذاكرة الدماغ بسعة الشبكة العنكبوتية العالمية

قال علماء أعصاب: إن بإمكان الدماغ البشري تخزين معلومات أكثر بعشر مرات مما كان يعتقد سابقًا.

وتوصل باحثون من معهد سالك للعلوم البيولوجية في كاليفورنيا الأمريكية إلى حساب سعة التخزين بقياس الوصلات بين خلايا الدماغ، ومن ثم ترجمة ذلك العدد إلى بايتات، وهي وحدة حساب السعة في ذاكرة الحاسوب.

ويتألف كل بايت من ثمانية بتات (وكل واحدة منها تضم قيمة 0 أو 1). وبإمكان الدماغ البشري أن يستوعب أكثر من كوادريليون بايت من المعلومات (وهو الرقم 1 متبوعا بـ15 صفرا) أو "بيتابايت".

وقال كبير مؤلفي الدراسة تيري سيجنوسكي من معهد سالك في بيان صحفي: إن قياساتهم الجديدة لسعة ذاكرة الدماغ تزيد التقديرات المحافظة عشرة أضعاف إلى بيتابايت على الأقل، وهو مقدار يوازي سعة الشبكة العنكبوتية العالمية.

بعد فحص مكعب صغير من نسيج دماغ جرذ تحت مجهر إلكتروني، صنع العلماء مجسمًا ثلاثي الأبعاد لمركز التعلم والذاكرة، "الحصين"، ومعه وصلات بين خلايا العصبية (خلايا الدماغ)، وكل خلية عصبية تمثل شجرة طويلة، ذات فروع عديدة من "التشعبات" التي تؤدي إلى جذع طويل أو "محور عصبي".

وتنتقل المعلومات - التي تكون على شكل إشارات كهربائية- من أحد التشعبات العصبية إلى محور عصبي آخر للخلية عبر تقاطع كيميائي يدعى "المشبك". وكل خلية عصبية تملك آلاف المشابك، وكم المعلومات الذي بإمكان الدماغ تخزينه يحدده جزئيًا قوة الوصلات بين الخلايا العصبية، التي تتأثر بحجم المشابك.

وتقليديًا تم افتراض أن المشابك العصبية تأتي بثلاثة أحجام فقط هي: صغير ومتوسط وكبير. واتضح الآن أن هناك ما هو أكثر بكثير. وذلك لأن الخلايا العصبية لديها ما يشبه الأشواك على فروعها (تشعباتها). وهي التي تمكن الخلايا من صنع وصلات مشابك متعددة.

وقد تمكن العلماء من تحديد 26 حجمًا مختلفًا لهذه الأشواك، مما يرفع سعة الذاكرة إلى نحو 4.7 بتات من



المعلومات لكل مشبك، وبمضاعفة هذا العدد بمليارات المشابك، فإن الحجم الإجمالي لسعة التخزين في ذاكرة الدماغ سيكون أكبر بكثير من التقديرات السابقة.

ولما كان بإمكان عقل الإنسان البالغ أن يولد نحو عشرين واطًا من الطاقة، أي ما يعادل لمبة ضوء خافت، فإنه من خلال محاكاة الوصلات البيولوجية، قد يتمكن المهندسون من تصميم حواسيب أكثر قوة وتوفيرًا للطاقة، وربما ستملك تلك الحواسيب من الذاكرة ما يكفي لاستيعاب المعلومات المنتشرة على الويب اليوم.

أول قرص مصمت بسعة 13 تيرابايتا

عادة يكون التوجه نحو استخدام أقراص الحالة المصمتة "إس إس دي" – التي تقدم أداء يفوق بكثير الأقراص الصلبة التقليدية "إتش دي دي" – على حساب السعة التخزينية، حيث تفتقر الأولى لأقراص بسعات كبيرة، لكن هذا الأمر تغير بشكل جذري مع شركة فيكستارز اليابانية التي كشفت عن قرص تخزين "إس إس دي" بسعة 13 تيرابايتا، مما يجعله أول قرص من نوعه بمثل تلك السعة الهائلة.

ويحمل القرص – الذي يأتي بالقياس 2.5 بوصة المعياري- اسم "SSD-13000M" في حين يحمل شقيقه الأصغر الذي يأتي بسعة عشرة تيرابايتات اسم "SSD-10000M".

ولا تعد الشركة جديدة في مجال أقراص الحالة المصمتة ذات سعة التخزين الكبيرة، حيث كانت طرحت العام الماضي أقراصًا بسعة ستة تيرابايتات.

وتعمل الأقراص الجديدة بتقنية تحكم من تصميم فيكستارز، وهي تعتمد على ذاكرة "إم إل سي ناند" (MLC NAND)، التي تستخدم خلايا متعددة الطبقات، مصنعة بتقنية 15 نانومترا.

وتقول الشركة: إن سرعة القراءة المتتابعة لهذه الأقراص تبلغ 580 ميغابايتا في الثانية، وسرعة الكتابة تبلغ 540 ميغابايتا في الثانية، كما تزعم أن هذه السرعات ستحافظ على استقرارها خلال عمليات الإدخال والإخراج الطويلة، وأن استهلاك الطاقة هو أقل من ثلاثة واطات في حالة السكون ويصل إلى 6.5 واطات عند الضغط.

ومثلما هي الحال عندما تطرح شركة قرص تخزين بسعة هائلة، فإن القرص الجديد غير موجه للمستخدم المنزلي، خاصة أن ثمنه يبلغ 13 ألف دولار أمريكي.

كما إن سماكته التي تبلغ 15 ميلليمترًا تجعله غير ملائم للاستخدام في معظم الحواسيب المحمولة، لكن هذا لن يكون عائقًا في الأسواق التي تستهدفها الشركة، حيث تتوقع أن تجد أقراصها الجديدة طريقها في استخدامات تعد فيها سرعة الأداء مع توفر سعة التخزين ضرورة لا بد منها.

ومن هذه الاستخدامات تطبيقات الفيديو ومعالجة المؤثرات البصرية في مونتاج الأفلام، وبث المحتوى، ووحدات تخزين من فئة "أوبجيكت ستوريج"، وتشير الشركة إلى أنه بإمكان القرص الجديد حفظ 4.3 ساعات من الفيديو غير المضغوط بدقة "4 كي" المسجل بمعدل ستين إطارًا في الثانية، أو 832 ساعة إذا تم ضغط ذلك الفيديو بمعيار H.265.



أما كيف تمكنت شركة غير معروفة من إنتاج قرص "إس إس دي" بهذه السعة قبل شركات مثل سامسونغ أو إنتل، فيوضح موقع "جيك" المعني بشؤون التقنية، أن فيكستارز تطور منذ مدة حلول تخزين وحوسبة لشركات كبرى تضم بوينغ وكانون والجيش الأمريكي، كما أنها على صلة جيدة بشركة توشيبا العريقة في مجال تصنيع أقراص التخزين والذاكرة، حيث تملك الأخيرة النسبة الأكبر من أسهم فيكستارز.

وفتحت الشركة باب الطلب المسبق على أقراصها على موقعها الإلكتروني، وتقول إنها ستبدأ شحنها في أواخر شباط/فبراير 2016 مع ضمان لمدة ثلاث سنوات.

علماء الفلك يرصدون أوسع نظام شمسي



صورة توضيحية للكوكب "2 ماس جي 2126" (جامعة هيرتفوردشاير)

وجد فريق علماء فلك من بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا أوسع نظام شمسي معروف حتى الآن، يضم كوكبًا ضخمًا، ويبتعد عن نجمه إلى الدرجة التي يحتاج فيها إلى 900 ألف عام ليكمل دورة حوله، وفقًا لدراسة جديدة.

وفي حين ظل العلماء يعتقدون لمدة طويلة بأنه كوكب حر يعوم في الفضاء وحيدًا دون نظام شمسي، تبين لهم أن الكوكب "2 ماس جي 2126" مرتبط بنجم يبعد عنه نحو تريليون كيلومتر.

ولوحظ أن الكوكب ونجمه يتحركان في الفضاء معًا، وكلاهما يبعد نحو 104 سنوات ضوئية عن شمسنا، مما يعني وجود علاقة بينهما.

ويبعد الكوكب عن نجمه مسافة تزيد سبعة آلاف ضعف ما تبعده الأرض عن شمسنا، مما يمنحه أوسع مدار معروف، والدورة الواحدة حول نجمه تستغرق نحو تسع مئة ألف سنة أرضية.

وبحسب الدراسة التي نشرت نتائجها في دورية "مانثلي ساينس" التي تصدرها جمعية علماء الفلك الملكية، فإن مدار الكوكب حول نجمه من الاتساع بحيث إنه لم يكمل سوى أقل من خمسين دورة حول نجمه طيلة حياته كاملة.

وقال المؤلف الرئيسي للدراسة نيل ديكون – من جامعة هيرتفوردشاير في بيان- إن هذا أوسع نظام شمسي يتم العثور عليه حتى الآن، "وكلا عضويه معروفان منذ ثماني سنوات"، لكن لم يربط أحد بينهما من قبل.

وأضاف أن الكوكب ليس وحيدًا تمامًا كما اعتقدنا سابقا، لكنه بالتأكيد في "علاقة على مسافة بعيدة جدًا".

وأكد في البيان أن هناك احتمالاً ضئيلاً بوجود حياة على عالم غريب من هذا القبيل، لكن لو كان فيه قاطنون فإنهم لن يشاهدوا "شمسهم" إلا كنجم مضيء، ولن يتخيلوا مطلقًا أنها على صلة بهم.

ويقدر العلماء أن هذا الكوكب يملك 11.6 إلى 15 مرة ضعف كتلة كوكب المشترى، أما عن كيفية نشوء نظام كوكبي بالغ الاتساع كهذا وبقائه صامدًا حتى الآن، فذلك أمر ما يزال بحاجة إلى تفسير، وفقًا للمؤلف المشارك بالدراسة سيمون موري من الجامعة الوطنية الأسترالية.